آفـــاق إســلامية

دكتورة

نعمات أحمد فؤاد



الناشر

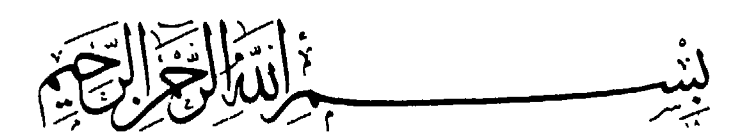
المكتبة الأكاديمية

١٩٩٩

آفاق إسلامية

حقوق النشر

المكتبة الأكاديمية
١٢١ ش التحرير - الدقى - القاهره
تليفون: ٣٤٨٥٢٨٢ / ٣٤٩١٨٩٠
فاكس: ٣٤٩١٨٩٠ - ٢٠٢


بسم الله الرحمن الرحيم

موضوعات الكتاب

	رقم الصفحة
– تقديم	٩
– الإسلام فى العصر الحديث	١١
– الإسلام والعمران فى المجتمع الإسلامى	١٩
– الإسلامى والمشاركة الحضارية	٣٣
– المسلمون اليوم	٤١
– الإسلام والإنسان	٤٤
– الإسلام والإعجاز	٥٤
– الإسلام والفنون فى البلاد الإسلامية	٧٠
– التراث والحضارة	٨٥
– الإسلام فى السلم والحرب	١١٤
– الإسلام حياة وأعماق إنسانية وأبعاد حضارية	١١٧
– الإسلام حضارة ورسالة	١٢٣
– الإسلام فى أفقه الأعلى، حضارة الإسلام والرمز	١٢٨
– موقف الإسلام من الرق والرقيق	١٣٤
– الحقوق الشخصية فى الإسلام	١٣٨
– دور مصر فى الحضارة الإسلامية	١٤٧
– الإسلام والغرب	١٨٦
– للبيت رب يحميه	٢٠٠

آفاق اسلامية

مقدمة المؤلفة

آفاق واسعة ممتعة لأن الإسلام ليس دينا فحسب ولكنه عالم رحب فيه النفس الإنسانية والعقل الإنسانى وقد عرف كيف يأسرهما .

تودد إلى النفس بالرحمة ، وتخاطب مع العقل فى احترام حتى جعل التفكير فريضة إسلامية .

هذا الكتاب فيه دراسات

وفيه قراءات فى الفكر الإسلامى

وفيه تأملات إسلامية فى قضايا المجتمع

وقيمة هذه المجموعة أن كل موضوع فيها ، مجلى من مجالى التفكير يضيف

إنها آفاق اسلامية

فيها كثير حافل أرجو أن أكون وفقت فى كتابته فالتحليق فى هذه الآفاق ، أشواق روح يطيف بها القلم ويطوف . . .

إنها قطوف .

فهل هذا الكتاب ، بعد الطواف وطول المطاف ، يقول ؟

لقد حاولت جادة مخلصة مؤمنة بأن الله سبحانه

إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه .

د . نعمات أحمد فؤاد

القاهرة : ١٤١٨ هـ
١٩٩٨م

الإسلام فى العصر الحديث

بعد أربعة عشر قرنا من ظهور الإسلام ونزول الوحى، يحس إنسان العصر الحائر، بحاجة قوية إلى الإسلام يتفهمه ويتعمقه، ويطلب عنده الشفاء من داء العصر، وهو الغرور المادى والغرور العلمى.

بعد أن أبدع إنسان العصر الحديث حضارته الآلية، وقطع فيه شوطا بعيدا حتى وصل إلى سطح القمر وشعر كما لم يشعر من قبل بظمأ الروح والمشاعر ... هذا حين طب الإسلام لروحه وجسمه معا، لآخرته ودنياه معا لم يعمل لواحدة على حساب الأخرى، بل أعاد التوازن إلى النفوس القلقة فاستقرت وارتاحت ... وإذ تطمئن النفس تعطى عطاءها كله غير منقوص وغير شائه.

إن مأساة الإنسان المعاصر، مأساة بروميثوس الذى حاول تحدى الآلهة فارتطم بالجبل (جبال القوقاز فى الأسطورة)..

إن كل نمو للوعى، يدعو اللاوعى للانكماش.

إن النمو فى جانب واحد حتى الأخلاق، يؤدى إلى الانهيار المحتوم.

هنا الطبيب يكتشف ثورة عارمة من اللاشعور ضد الشعور ... وهنا يعجز العقل الإنسانى عن العلاج إلا بحلول زائفة أو مشتبه فيها.

الطريق هو الذى عثر عليه الشرق منذ بداية الأشياء.

الطريق الذى عثر عليه الصينيون حين لم يفصلوا بين المتضادات فى الطبيعة الإنسانية، بحيث لم ينقطع الاتصال الواعى بينها.

ليس هناك أخطر على الإنسان الأوروبى من أخذه باليوجا الهندية لأن المسألة عنده، مسألة إرادة ووعى. والأمر أكبر من هذا فتحدث النتيجة نفسها التى أريد تجنبها .. أى تنمية الوعى ضد اللاوعى فيصاب الرجل الأوروبى بالعصاب أى بالاضطراب.

إن التفاعل إذا جاء من داخل الفرد تحول إلى رؤية خارجية .. وإذا جاء من خارج الفرد تحول إلى تجربة ذاتية .. وخير التفاعل ما تدفق من تيار نهر الزمن ..

أما الإسلام فقد منح الإنسان الطمأنينة النفسية .. السلام النفسى (افعل ما يطمئن إليه قلبك وإن أفتوك وأفتوك) محاولة من الرسول الكريم فى بث الطمأنينة والثقة فى نفس المؤمن.

وهذه الطمأنينة النفسية هى التى جعلت، بلالا، يعذبونه أقسى وأقصى العذاب فيقول: أحد .. أحد.

لقد أطمأن إلى عقيدة يهون معها ويهون بعدها كل شئ ..

«قلب المؤمن دليله» .. قالها التراث الإسلامى فى مباشرة وسهولة حين لف «يونج» العالم النفسى الكبير، حولها طويلا .. شقى فى البحث عن دليل.

ان التقوى هى اتقاء نزعات الشر، ونزعات الشيطان .. والشيطان هو الجزء الثائر المحموم المنبوذ فى النفس. والإنسان نفسياً هو الذى أصطلح فى داخله الوعى واللاوعى. والمتكامل شوق الإنسان ولو لم يدر إلى هذا اللقاء الداخلى .. ولهذا وجدت الديانات لتغذى حنين الروح إلى ذلك التكامل.

لهذا وجدت الديانات ولهذا عاشت.

وهنا نتذكر وحدات الفن الإسلامى. لقد مثل الفن الإسلامى، التكامل النفسى بوحداته.

إن كيان الانسان يعج بالمتناقضات .. فيه رحمة وقسوة .. فيه قوة وضعف .. الفن الإسلامى بمتقابلاته يحل هذا التناقض.

قبل التقليد

لكن نطيع قوانين النفس الداخلية كما يقول «يونج» يجب أن نطيع قوانين الأرض أولا .. أن نرضى غرائزنا إرضاء ذكيا وكاملا فى غير ترخص. لقد دعت المسيحية إلى الروح .. ولكن بعد العصور الوسطى حين انحلت الروح إلى ذهن، وسادت العقلانية، كان رد الفعل خطأ اللبس بين الذهن والروح الذى أدى بدوره إلى لوم الروح لأخطاء الذهن...

إن الذى ينمى نفسه فى بعد واحد، يضيع ... وحركات الفن فى حقيقتها ثورة على الاتجاه الواحد فى سعى إلى التكامل عن طريق الأخذ بالطرف الآخر المقابل ... ومن آثار هذا «اللامعقول» فى الفن.

ونأتى نحن لنتظاهر «بالمودرنزم» فنأخذ باللامعقول، مع أننا لم نمر بالمراحل التى أدت إليه والتى عاشها أصحابه وعانوا منها.

هل نتروى قليلا قبل التقليد؟

للصين كتاب عن الحياة ترجمه من الصينية إلى الألمانية، «كلهلم» ونشر فى لندن سنة ٣٥ وترجمه إلى الانجليزية Cary Baynes هذا الكتاب فسره وعلق عليه «يونج». ومن قوله:

الحل ليس فى التهكم من الروحانية الشرقية ووصفها بالعجز.

وليس فى التشكك فى العلم واعتباره هداما للإنسانية.

لابد للروح أن تتكئ على العلم بوصفه مرشدا فى عالم الواقع.

ولابد للعلم أن يتجه إلى الروح للاهتداء إلى معنى الحياة.

وقد حقق الإسلام هذا التوازن فى إحكام دقيق ووثيق.

لقد أقام الإسلام بمبادئه وقوته الذاتية أمة ودولة، يجتمع لهما العلم والدين، مرتين:

_ مرة فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام حين جمعهم ونظمهم ونشأهم على المبادئ الجديدة والقويمة بما صقلهم وهذب بداوتهم وقلّم جاهليتهم وأحال النزوة الغرائزية فى داخل الإنسان البسيط إلى ذروة إنسانية، لا أقول عند الجميع .. ولكن يكفى عند النماذج التى عرفت لنا فى ميدان الحكم مثل أبى بكر وعمر .. والتشريع عند الإمام على ابن أبى طالب، والحرب عند خالد بن الوليد وسعد بن ابى وقاص، وأبى عبيدة بن الجراح ونظرائهم فى الميادين الأخرى.

_ ومرة بعد وفاة الرسول فلولا الإسلام لارتدوا إلى جاهليتهم التى ولفوها طويلاً – وقد حاول بعضهم بالفعل، الارتداد – ولكن أبا بكر وصاحبه على هدى من الإسلام واهتداء، جمعا شمل الجماعة، وقبضا على ناصية الأمور وشرعا تحولا تاريخيا عاش إلى اليوم عبر القرون والظنون.

ولو أن الدول التى قامت على أكتاف الإسلام واصلت الاستضاءة بروحه، والاسترشاد بهديه، لكان للمسلمين اليوم، شأن آخر.

ولكن ركبها أو معظمها، غرور الفرد، وغريزة التملك، وشهوة إراقة الدماء سفحا من الجسد، أو هدرا من العقل بإكراه المفكرين وكراهيتهم واضطهادهم، كما حدث فى محنة القول بخلق القرآن.

المسلمون.. والسياسيون

لقد اعتدنا أن نركز الفروق بين الغرب والشرق فى الماديات والروحانيات .. ولكننا ننسى أو نتناسى المقارنة بينهما فى نظم الحكم .. فقرآننا يقول بالشورى، ولكن الذى يعمل بهما مسيحيو الغرب لا مسلمو الشرق. فكل حاكم فى الغرب يستمد شرعيته من الكنيسة أو من الديمقراطية أى حكم الشعب واختياره الحر المريد .. حتى لويس الرابع عشر كانت وراءه قوى تكبح جماحه وتوجه سيره، على الرغم من قوله (أنا الدولة) أو الملك الشمس Le Roi Soleil. أما الحكم فى معظم تاريخ الشرق فهو لا يستمد من روح الدين الذى يحترم الإرادة والعقل والشورى ولا يستثنى من هذا الأمويون والعباسيون والعثمانيون والاندلسيون الخ ...

ومع هذا ظلت الأمة الإسلامية أمة فاضلة .. وهى فى ميزان الإسلام والقيم والتحضر، الأحسن والأبقى والأشرف ففى كنفها، ومنها، وبها ... القضاة والعلماء والفقهاء والأخيار.

إن الفقه الإسلامى من صنع الأمة الإسلامية لا السياسيين.

والفن الإسلامى من صنع الأمة الإسلامية لا الحكوميين.

بل إن المجاهدين من صنع الأمة الإسلامية، فالمرابطون فى الثغور على أهبة الجهاد، متطوعون لأن الإسلام فى قلوب الناس يوجه حياتهم وسلوكهم بينما أصحاب الدول يوجههم الحكم والمصلحة.

ولولا قلوب الناس العامرة بالإيمان الصحيح من قوة الإسلام .. ولولا قيام الأمة الإسلامية بالعلم والقضاء والحسبة والصناعة والفن لما عمرت فى التاريخ، الدول طويلاً.

ولسنا فى هذا بدعا ففى كل مكان فى الدنيا، الدول لا تصنع الحضارة ولكن الأمم إذا آمنت واطمأنت فعملت وجودت العمل ثم تفننت وابتكرت وأبدعت .. وهنا يحمد الحاكم العادل المتدين لأنه يوفر للأمة الجو المعين على الازدهار .. خاصة إذا تجاوب معها، وآمن بها، وعف فيها، وربط خيره بخيرها .. أما أولئك الذين حكى التاريخ أنهم اعتمدوا على القوة فهم كراكب الأسد يراه الناس فيوجلون منه، وراكب الأسد أشد وجلا.

إن القوة تفصل نفسيا بين الحاكم والمحكوم فى كل زمان ومكان.

وهنا تصح نظرية (الدائرة الشريرة المقفلة) التى قال بها ابن خلدون وغيره من المفكرين فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى أى بداية الدول ونهايتها الدرامية.

إن التاريخ علم الشعوب لا الملوك خلافاً لما قاله «بوسويه» الذى اعتبر التاريخ علما رفيعا مقصورا على الملوك وأنه خطة إلهية .. ولكنها مقصورة على المسيحيين وحدهم!!

ولكن الإسلام لم يعرف هذه التفرقة بين الإنسان أو الأديان لأنه دين الفطرة ولأن رسوله بعث إلى الناس كافة .. ولأن الناس عنده سواسية كأسنان المشط .. وهى قيم لم يرق إليها «بوسويه» أو كتابه «مقال عن التاريخ العالمى Discours sur L' Historie Universelle على شهرته.

من الذى سقط ؟

استطاع الإسلام أن يصنع من البادية، أمة ودولة وخلافة وحضارة تهدى إلى الدنيا فخر الحكام وعطر التاريخ عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز وعبد الرحمن الناصر.

إن المسيحية اعتنقتها ممالك كانت قائمة قبلها، وبدونها، واليهودية لم تقم دولة، ودولتها الجديدة لم تكن تقوم لولا مصالح الغرب ومنافسيه فى قيامها ومساندتها.

ولكن الإسلام نشأ محاطا بقوتين دنيويتين ضخمتين .. هما الفرس والروم فغلب عليهما بقوته الذاتية لا بالسلاح، فقد كان سلاحهما يفوق سلاحه مرات نوعا وعددا ولكنه كان الأعمق والأقوى أثرا فى نفوس آمنت به فاسترخصت الفداء لأن الله وعدها الجنة .. وهى أمل يفعل الأعاجيب، وأعلى فى يقينها الشهادة والشهداء فاستبسلت وقاتلت فى سبيل الله وابلت بلاء حسنا.

وتتميز الحضارة الإسلامية بأنها نجت من داء الحضارات وهو الانحلال والاضمحلال لأن أساسها ليس عنصرا بشريا.

إن الذى سقط فى الأندلس دولة العرب لا حضارة الإسلام، فإن هذه باقية إلى اليوم حتى بعدما آل الحكم الى آخرين دينا ودولة.

حضارة الإسلام فى الأندلس باقية تشهد عليها قرطبة وغرناطة وإشبيلية التى تمثل عنصر الجذب فى سياحة إسبانيا إلى يومنا هذا والذى سقط فى دمشق دولة بنى أمية

لا حضارة الإسلام. وفى كل مرة تسقط عاصمة، ترث مكانتها، فى مكان آخر، عاصمة أخرى لأن الاسلام أمة يقوم بدولته فيها، المسلمون بلا تفريق بلا عصبية لجنس أو امتياز لطبقة.

لقد قامت الحضارة العربية والإسلامية بالإسلام.

وتدهورت بالمسلمين عربا وعجما دون الإسلام. فالإسلام قيم ونظم وتشريع وإنسانيات.

والمسلمون خاصة الحكام من أمثال بنى بويه وبنى الأحمر كانوا لا يرقون إلى مستوى الإسلام فبقى الإسلام دينا وانحدر دولة وسياسة بل صناعة وفنا.

ومن شرف المسلمين أن الفساد لم يلحق الإسلام قط بل انحصر فى فئة قليلة استأثرت بالحكم والنفوذ والمال وهى رزايا لا مزايا إن لم يدعمها الخلق حتى لا تسقط، ويعززها الضمير فلا تجور.

والتاريخ الإسلامى يسجل أن الصراع انحصر فى المتنافسين على السلطان .. أما الأمة الإسلامية فقد نفضت يدها من هؤلاء واستعزت بالسلطة الباقية سلطة الدين والعلم، فالتفت حول العلماء والفقهاء وسمت رجل الدين الذى تتمثل فيه خصائصها هى: سلطان العارفين فى رد هادف على سلطان الحكم.

خط سير مختلف

ونظرة مقارنة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى التى سبقتها أو التى تلتها نجد أن المسيحية ولدت فى بيت لحم بفلسطين وكانت تابعة للرومان. وحارب الرومان المسيحية ودافعت مصر عن المسيحية ثم قامت بنشرها حتى وصلت بها شمالا إلى أيرلندا، وجنوبا إلى الحبشة. ومكنت لها بالعلم حين كتبت أشهر ما فى تراثها الفكرى والدينى على يد بوخوميوس وأثناسيوس من الآباء المصريين.

إذاً نشر المسيحية والتمكين لها جاء من خارجها.

ولما اعتنقها الرومان فى النهاية، استقطبتها حضارتهم التى قامت على الغزو والسيطرة فى طبعها العام والتى ورثت من الناحية الفكرية الحضارة اليونانية التى تتلمذت بدورها على الحضارة المصرية القديمة.

المسيح أو عيسى بن مريم عليه السلام لم يكن حوله إلا تلاميذه أو حواريوه هما خاصية الخاصة لا عمومية (الكافة).

وإذا رجعنا قليلا إلى الوراء، نجد اليهود (المكابيون) يعارضون إقبال الناس على اليهودية وهنا بدأ الصراع بين اليهود أنفسهم. فلما بطش (بختنصر) بهم ونفى جماعات منهم إلى أرض بابل وهو ما يعرف «بالاكسودوس» أو الخروج، انكسرت شوكتهم، وبدأ الشتات أو «الدياسبورا» الذى تكرر فى عهد الرومان فلم ينصفهم إلا الاسلام الذى أفسح لهم بتسامحه مكانا فى دولته خاصة فى الأندلس.

أما الحضارة الغربية أى الحضارة الحديثة فهى تنسب أصولها - باستثناء المنصفين منهم إلى الحضارة الإغريقية أى الهلينية وهى كما ذكرت قامت على الحضارة المصرية .. كما أن الحضارة الإسلامية، قامت بترجمة الحضارة الإغريقية. وبهذا وفرت على أوروبا ألف عام على الأقل. ولهذا بعد تفصيل عريض.

ولكن الإسلام خط سيره، مختلف:

وحّد الإسلام القبائل فى أمة، ثم مهد منذ هجرته إلى المدينة لنظام مجتمع ودولة تبلورت فى خلافة أبى بكر وعمر. ثم صارت هذه الخلافة ملكا فى عهد بنى أمية. ثم صارت إمبراطورية فى عهد عبد الملك بن مروان. ثم صارت للإمبراطورية حضارة إسلامية فى عهد العباسيين.

حضارة إسلامية قام بها المسلمون على اختلاف جنسياتهم تصديقا لقول الرسول الكريم: (بعثت إلى الناس كافة) فى عملية مؤاخاة بين البشر.

فلم تعرف دولة الإسلام النعرة الجنسية.

هذا حين شاع التعصب للجنس إلى حد النعرة فى الأمم القديمة والوسطى والحديثة أيضاً.. وما قول هتلر بتفوق الجنس الآرى ببعيد. وما قول اليهود بشعب الله المختار وسائر الناس، كما يبدو، الشعب المختار، بخاف.

اليونان اعتبروا أنفسهم الأعلى والآخرون برابرة. وقسموا الشعب فى بلادهم إلى سادة وعبيد. واحتقروا العمل اليدوى واستنكفوا منه، واستمرأوا الانغماس فى الفراغ بلهوه وعبثه، فجنت عليهم البطالة، وفى النهاية قضى عليهم المقدينيون الذين كانوا يحتقرونهم بقيادة الإسكندر.

والرومان فى قوانينهم نصوا على أفضلية الرومانى! حتى كان التجنس بالجنسية الرومانية وسيلة للوصول.

والصينيون يقولون من خلال سور الصين المشهور انهم فى غنى عن سواهم أى أنهم الأعلون.

والهنود البراهمة يدلون بأنفسهم.

وحين لم يعتد ابن خلدون فى مقدمته، والمسعودى فى مروجه الذهبية باللون الأبيض، جعلته أوربا، امارة تفوق ومظهر امتياز حتى بلغ الازدهاء بـ «هيوستون ستوارت تشمبرلين» Heuston Stewart Chamberlain، حدا ألف معه كتابه «أسس القرن التاسع عشر» Foundations of the Nineteenth ، عزا فيه كل معطيات الإنسان المتحضر إلى الجنس الآرى أو الهندى الجرمانى، وهنا اعتبر المؤلف، المسيح نفسه آريا.

وحين دهمت هجرة الأوروبيين أمريكا نادى مفكروها بقصر الهجرة على السكسونيين والجرمان وأهل شمال أوربا امتدادا لعقيدة أو عقدة تفوق الجنس الآرى. وتزعم هذه الحركة مايسون جرانت ولوثر وباستودارد.

فلم يكسر شوكة هذا الادعاء والازدهاء، إلا العالم المؤرخ توينبى بعد قرون.

ويشهد الإسلام المعركة مستقرا وقريرا فقد حسمها منذ البداية حسما، آضت إليه فى النهاية، أوربا صاحبة نظرية الاستعلاء.

ويرن فى سمع الزمن والناس، رأى الإسلام ورؤيته وآيته (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن اكرمكم عند الله أتقاكم). الحجرات ١٣

أقول للمرة الكم لا أدرى: إن الاسلام من خلال القرآن الكريم صنع ١٤ قرناً بما فيها من اجتماعيات وسياسات، أعاد بناء الإنسان على أرض الجزيرة وما حولها.

كتاب فجّر كُتبا بل مكتبات، ويتجدد القلب فتتجدد المعانى فيه، وتتمزق الأمة الإسلامية من الفرقة والتشتت والهوى والخطأ والخطايا أحياناً ثم لا تموت لأن هناك شيئاً خفياً وقوياً يربطها فلا تضيع ويمسكها فلا تتهاوى. هذا الرباط الخفى القوى هو القرآن. وقد لا يعرف الناس هذا ولكنه واقعهم وحظهم الكبير.

وهذا الرباط لا يستثنى منه غير المسلمين ممن يعيشون معهم ويلتقون بهم فى جنسية الوطن وعلى أرضه.

هذا هو الإسلام.

الإسلام والعمران فى المجتمع الإسلامى

ليست المرة الأولى التى أتكلم فيها عن الإسلام والعمران فى المجتمع الإسلامى. وفى سابق قلت إن **الإسلام كيف العمارة الاسلامية فمالت إلى الأفقية تحقيقا لمعنى المساواة** والى السقوف المنخفضة **وإلى الاحتفال بالأسرة والبيت الذى كيف عمارته الحجاب فى الإسلام ففتح على الداخل** لا الخارج وشكل نوافذ مشربيات حاجبة.

كيف الإسلام العمارة الإسلامية يوم انعكس الترتيل فى القرآن عليها، العقود المتوالية. وتوالى العقود فى العمارة الإسلامية لون من الترديد. ودكة المرددين فى المسجد نوع من الترديد. لون من التطريب الهندسى.

ونثر النجوم فى الزخرفة الإسلامية فى أحجام مختلفة نوع من الترديد والتوليد ويجئ الطبق النجمى المشهور فى الفن الإسلامى تحية لسورة النجم.

والرحمة فى الإسلام ترجمتها العمارة الإسلامية فى عدة صور: المارستان والأسبلة والأربطة والخانقاوات والأوقاف والأحباس.

والجنة فى الإسلام شكلت كثيرا من الآثار الإسلامية ممثلة فى العمارة الخيرية.

وتأكيد الإسلامية لقيمة العمل جعل العمارة الإسلامية لاتتوقف حتى فى عصور ضعف الدولة الإسلامية.

وسماحة الإسلام وشموليته كانت وراء عواصمه فقد تعددت العاصمة الإسلامية لأن أصحابه لم يتمسكوا بمدينة معينة فالإسلام دولة يقوم عليها المسلمون لا العرب ومن هنا كانت العاصمة بعد المدينة، دمشق ثم بغداد ثم القاهرة هذا غير المدن الأندلسية. وكان من أثر هذا أن ازدهرت فى الإسلام المدن والعواصم، معماريا وفنيا وعلميا وهى فى النهاية محسوبة له بما تحمل من نظام وحضارة.

كما وقفت طويلا عند توجيه القرآن للتشكيل والتلوين بالنور والظلال عند توجيهه للتجسيم والتصوير يوم وصف الكون صورا حتى الكلمة الطيبة صورة إذ شبهها بالشجرة الطيبة.

الاسلام والبناء:

لقد حالت روح الإسلام دون الهدم حتى فى الحروب فحرم هدم المنازل أو بيوت العبادة أو قتل النساء والشيوخ والأطفال.

لقد خرج هولاكو والتتار من صحراء فخربوا وألقوا بمكتبة بغداد فى النهر لتكون موطنا لخيولهم وخرج العرب من صحراء فعمروا فى الشرق والغرب.

وليس معنى هذا أنه لم يحدث هدم فى دولة العرب ودولة الإسلام فالملوك كما يقول الجاحظ(١) من شأنهم (أن يطمسوا آثار من قبلهم والعمل على إماتة ذكر أعدائهم فقد هدموا لهذا السبب، المدن والحصون.)

لقد أجرى الخليفة المأمون عمارة (٢١٦ هـ – ٨٣١ م) بقبة الصخرة المطلة على القدس، فاتخذها سببا أو مناسبة لمحو اسم منشئها عبد الملك بن مروان ووضع اسمه مكانه.. وفات انصاره، تغيير التاريخ الأول وهو ٧٢ هـ – ٦٩١ م فانكشف أمرهم.

ولكن الحقيقة بعد هذا تضيع معالمها كالأثر.

وتحق كلمة المقريزى صاحب المواعظ والاعتبار (إذا تأملت البقاع وجدتها، تشقى كما تشقى الرجال وتسعد.)(٢)

حتى صلاح الدين هدم سور مدينة أنصنا بالصعيد وشحن أحجاره ليبنى بها مع أحجار الهرم التى هدمها وزيره بهاء الدين قراقوش، سورا يحيط بالقاهرة والفسطاط كما انه خرب كما يقول الأثرى حسن عبد الوهاب، القصور الفاطمية وكانت من عجائب الدنيا.. فتبعثرت أجزاؤها فى منشآت المنصور قلاوون وغيره.

حتى المساجد لم تسلم من يد الهدم والتخريب! فقد هدم الملك (الصالح) نجم الدين أيوب كثيرا من المساجد والقصور ليبنى قلعة الروضة.

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ١ ص ٣٦ – ٣٧.

(٢) المواعظ والاعتبار للمقريزى جـ ١ ص ٣٤٨.

ولكن هؤلاء غلبت بشريتهم الأرضية، سماوية العقيدة، ومثالية الدين.

وكما يتجاور الخير والشر فى الحياة بل فى الطبيعة الواحدة أى فى الإنسان الواحد، فإن هؤلاء يقف إلى جانبهم، أخيارا عمروا أقاموا المدن والمكتبات وشجعوا العلوم والفنون فازدهرت وأذهرت. ومما بنوه مدينة (اللد) فى فلسطين، و(بغداد) فى العراق فى مكان بابل القديمة، والقطائع والعسكر والقاهرة المعزية فى مصر الإسلامية.. ولو ان الثلاث، امتدادات لمنف العظيمة التى تتجدد ولاتتبدد... تتغير ولاتغيب... شاهدة الحضور... عزيزة الوجود... لها، بعد كل الأسماء، فى الوجدان المصرى بل الإنسانى، مكان لايشائيه إلا طيبة الطيبة أقدم مدينة فى الدنيا.

وتضم مصر المدينتين... ويتوج اسمها المدينتين... مركزين حضاريين مصريين.

ويفتح العرب المسلمون، الأندلس، فينقلون إليها كل مافى بغداد من علوم وفنون وينشئون فى قرطبة كثيرا من المبانى الفخمة. والمكتبات العظيمة العامة والخاصة.

ومن أشهر المكتبات العامة، مكتبة قرطبة – بلغ عدد المكتبات العامة ستين مكتبة – وقد بلغ عدد مكتبة قرطبة أو مكتبة الحكم المستنصر (٥٠ – ٦) مائتى ألف مجلد جمعها من إفريقيه وفارس وسائر البلدان... وكأنه يستمع إلى الحديث (اطلبوا العلم ولو فى الصين)... وكأنه يصغى بقلب مفتوح إلى نداء الآيات التى تردد فيها اسم العلم ١١٦ مرة.

وكثرت رحلة العلماء بين المشرق والمغرب للإفادة والاستزادة وليست كرحلة مذعورة حين دهم هولاكو بغداد ففرت العقول وتركها العلماء ولولا مصر التى احتضنتهم بل استقدمت الخليفة نفسه إحياء للخلافة الإسلامية، وكان هدف التتار القضاء عليها، باسقاط الخليفة وتدمير بغداد عاصمة الدولة.

لقد جعل الرسول فدية الأسير تعليم عشرة من صبيان المسلمين **فى دعوة إلى العلم** كالدين.

إن الذين بكوا على الإسلام فى الأندلس إنما بكوا فى الحقيقة على زائل من الحكم أما الإسلام **فهو باق فى الأندلس** بل إن إسبانيا تعيش عليه اليوم بما تقصد إليه السياحة والرواد.

الإسلام اليوم ماثل فى مسجد قرطبة وقصر الحمراء بغرناطه وآياته الباقيات فى اشبيليه ومرسيه ومدريد العاصمة نفسها وغيرها.

الاسلام بناء.

(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر)

وقد جعل المسألة ليست البناء فحسب بل * المحافظة عليه.

* الإضافة إليه.

لقد بدأ جامع قرطبة بفدان وانتهى بثمانية.

لقد كتب الإسلام تاريخ العمارة الإسلامية.

وتاريخ الأزهر خاصة. فواحد يضيف إليه، وآخر يوقف عليه، وثالث يجعل منه، مدارس لتعليم القرآن وهو الجامعة الكبرى.

تخطيط المدن فى الإسلام:

وقد عنيت الشريعة الإسلامية بتخطيط المدن.. ففى سنن أبى داود: أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بأن ينادى فى معسكره بأن من ضيق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له، وذلك حينما لاحظ تضييق صفوف الأخبية فى ميادين القتال.[1]

وقد **وضع عمر بن الخطاب دستورا لإنشاء المدن**، أذاعه على فاتحى الأمصار ومنشئيها فى صدر الإسلام، فجعل المسجد محور المدينة أو مركز الدائرة بحيث تتفرع الشوارع حوله... وأن تكون المناهج أربعين ذراعا ومايليها ثلاثين، وما بين ذلك عشرين، والأزقة سبعة أذرع والقطائع ستين.[2]

وكذلك **تناول المشرع الإسلامى قوانين سعة الشوارع والطرق، وتناولها فى أحكامه**. واتفقوا على أن الطريق النافذ مباح المرور فيه لكل إنسان لأنه حق للمسلمين، فليس لأحد أن يبنى فيه أو يخالف خط جاره (خط التنظيم)[3] فلا يبرز عنه، كما وضعوا قوانين لإقامة الأسبطة[4] واشترطوا أن تكون مرتفعة بحيث يمر المحمل، أو الفارس على جواد ورمحه قائم، وحرموا بناء المصاطب وغرس الأشجار أمام الدور، مادام يترتب على غرسها تضييق الطريق.)

---

(١) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٢٨٢.

(٢) اقرأ المرجع السابق.

(٣) الفوائد الباهرة فى حكم شوارع القاهرة.

(٤) الساباط: ممر بين منزلين من أعلى.

ووضعوا فى حكم المنافع العامة الشوارع الخاصة التى أبيح استعمالها، ومثلها الشوارع التى اصطلح الملاك على تركها من أملاكهم، والطرق التى تشقها الدولة، فلايجوز شغلها، ولاتضييقها صونا لنقوش الجدران فى وجهات المساجد والدور، وتيسيرا للمرور، ولتوفر الهواء والنور، شددوا على سعة الشوارع.

وبمناسبة التخطيط وصف الكاتبون القاهرة وصفا لا أدرى هل نسر به أو نحزن...

خرج إليها يوما موسى بن عيسى فهتف بمن حوله فى بهر الإعجاب، قائلا أو سائلا:

أتتأملون الذى أرى؟ قالوا وما الذى يرى الأمير؟ قال أرى ميدان رهان، وجنان نخل، وبستان شجر، ومنازل سكنى، وذروة جبل، وجبانة أموات، ونهرا عجاجا، وأرض زرع، ومراعى ماشية، ومرتع خيل، وساحل بحر، وصائد نهر، وقانص وحش، وملامح سفينة، وحادى إبل، ومفازة رمل، وسهلا وجبلا **فهذه ثمانية عشر متنزها فى أقل من ميل فى ميل.**

ماذا نقول الآن؟

... ...

وقد استحدثت العمارة الإسلامية عناصر تعد كل منها موضوعا هاما فى تاريخ هذه العمارة مثل المئذنة المصرية بمراحل تطورها..... ومثل القباب.

وأحفل البلاد بالآثار الإسلامية، مصر... حتى ليقول الأثرى حسن عبد الوهاب: (إن مجموعة القباب والمنارات فى مصر لانظير لها فى أى قطر آخر من الأقطار من حيث الكثرة والتنوع فى مادة البناء مابين آجر وحجر، أو الجمع بينهما ومابين تنوع فى الطرز والزخرف، ومباراة فى الرشاقة، حتى أصبحت المنارة والقبة المصرية، جديرتين بلقب عرائس الباب والمنارات فى العالم الاسلامى.)(١)

لقد استرعت الحضارة الإسلامية أنظار الناس من غير العرب وغير المسلمين منذ ما يقرب من ألف سنة وبخاصة أولئك الغربيون الذين خضعوا لتأثيرها كما يقول الدكتور فريد شافعى فى كتابه (العمارة العربية فى مصر الإسلامية) عندما أخذت أفواجهم تتتابع

---

(١) كتاب (الرسومات الهندسية للعمارة الاسلامية) للأستاذ حسن عبد الوهاب.

على بلاد العرب والمسلمين أثناء الحروب الصليبية واستمرت تشد أبصارهم وتستهوى أفئدتهم طوال تلك الحقبة إلى وقتنا هذا. وقد أنصفها الكثيرون وفى مقدمتهم الدكتورة سيجريد هونكه فى كتابها (شمس الله على الغرب).

غير أن فئة من هؤلاء العلماء لم تلتزم المنهج العلمى الخالص فحاولت حجب الفضل عن أصحابه... من شدة إحساسها به وهو نوع من التقدير المعكوف كما يقول الأستاذ العقاد. فقد اشتد نفوذ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى فلما لم يملك الجاحدون لها فكاكا من أسرها سموا المسلمين **نقلة** فى إشارة إلى مرحلة الترجمة التى سبقت مرحلة الإبداع.

يكفى أن العرب وفروا على الحضارة الأوربية والحضارة الحديثة اليوم، زمنا طويلا يعد بعشرات القرون.

لقد لبثت أوربا فى طور التخرج والنقل حين أخذوا عن العرب والمسلمين أكثر مما لبث العرب فى هذا الطور حينما أخذوا عن اليونان.

ومهما يكن من أمر فإن أشد الناس تعصبا لايمكنه الإقلال من شأن النتائج الحضارية الخطيرة التى حدثت فى تاريخ البشرية، وترتب على ظهور محمد النبى العربى وعلى قيامه ببث الدعوة إلى الدين الإسلامى وعلى انتشار هذا الدين فى منطقة كبيرة من العالم، فإن ما أحدثه محمد بما أتى به من عقيدة وتعاليم يدعو بها الناس إلى عبادة رب واحد عظيم، وإلى خلق قويم، وترشدهم إلى مافيه صلاحهم وصلاح البشرية، وإلى العلم والعدل والشورى... كل ذلك لاشك يعد **نقطة تحول هامة فى مجرى حضارات العالم ولايمكن مقارنة هذا الحدث بأى حدث آخر فى تاريخ البشرية.**

كانت صفات وأسماء الله الخالق المبدع أمام عمل الفنانين ووجداناتهم وأحاسيسهم فإنتاجاتهم الفنية محملة بهذا الإحساس القدسى والعبادة والتوحيد والثناء حتى وقف العالم الفرنسى BOURGOIUN برجوان طويلا عند الفن الإسلامى.

الإسلام والفن:

إن تعلق القلب المسلم بالمطلق كان وراء حب الفنان المسلم للتجريد حتى فى رسمه للأشكال يغطيها بالزخارف ويوشيها بالتمنمة أو يحيل الأجزاء إلى وحدة زخرفية فى تحويل يكاد يبلغ مرتبة التصوير.

وتمطر السحائب بعد كلمة الرشيد بغزارة ويتدفق المال كالسيل ويظهر ميل النفس الطبيعى إلى الاستمتاع بل تشتد الرغبة فيه بعد حرمان طويل ويجد العربى المسلم حلا سعيدا للمعادلة الصعبة.. بين حض العقيدة على القسط والقوام بين الإسراف والتقتير وبين حب الفخفخة وجنون العظمة فيعوض الفنان المسلم عن التماثيل الضخمة النمنمات والوشى والتذهيب والترصيع حتى الجدران والأرض غطاها بالفسيفساء... حتى الفخار أصبح خزفا له بريق معدنى.

العمارة الإسلامية:

إن الخاصية الرئيسية التى يوصف بها العالم الإسلامى من حيث الحضارة بعامة، هى أنه **حقبة ثقافية** فى تطور جماعات متعددة ومتميزة من حيث الجنس والظروف الجغرافية، وليس تعبيرا عن شعب واحد من الشعوب أو منطقة من المناطق.(١)

ومن هذا المنطلق نجد **العمارة الإسلامية ذات أثر بعيد فى العمائر المسيحية واليهودية** خلال العصر الإسلامى فى الأندلس وبعده.(٢)

وقد عرفت الحضارة الإسلامية، للعمارة، حقها **فألفت الكتب فى العلوم الهندسية والرياضية والحيل الميكانيكية وجر الأثقال** مما أفاض فى ذكره (الفهرست) لابن النديم و(مفاتيح العلوم) للخوارزمى، و(إرشاد القاصد) و(كشف الظنون).

كما وضعت المؤلفات فى علم عقود الأبنية:

ويروى الأثرى حسن عبد الوهاب أن فى مكتبة أيا صوفيا نسخة من كتاب أبى الوفاء اليوزجانى (ت ٨٨ هـ - ٩٨م) يتناول مايحتاج إليه الصناع من أعمال الهندسة، ولأحمد ابن عمر الكرابيسى، كتاب: حسن الدور، وكتاب: مساحة الحلقة.

---

(١) اقرأ (تراث الإسلام) جـ ٢ لمجموعة من المستشرقين (الترجمة العربية).

(٢) اقرأ أ. جروبيه E. GRUBE عناصر إسلامية فى عمارة البندقية فى العصور الوسطى.

وبحث ج. مايلز G. MLES الدولة البيزنطية والعرب Byzantium and The Arabs

- اقرأ د. أ. جيراز بهوى فى : التأثيرات الشرقية فى الفن الغربى.

Oriental Influences in Western Art: JAUROZBHAY

اقرأ (تراث الإسلام) جـ ٢ ص ١٥.

والقلقشندى فى (صبح الأعشى) له وقفة عند هندسة العمائر ومهندسيها.

ولم يقتصر المهندس المسلم كما يقول الأستاذ حسن عبد الوهاب على رسم منشآته المعمارية بل وضع لها أحيانا نموذجا مجسما (ماكيت) وأقدم نموذج إسلامى هو قبة السلسلة بجوار قبة الصخرة بالقدس الشريف.

ويروى قصتها بأنه (فى أول إنشائها وقبل تجديدها كانت شكلا بنيت على مثاله قبة الصخرة سنة ٧٢ هـ - ٩٦١ م لأن عبد الملك بن مروان حينما أراد بناء قبة الصخرة، وصف مايختاره من عمارة القبة وتكوينها للمهندسين والصناع فصنعوا له قبة السلسلة فأعجبه تكوينها وأمر ببناء قبة الصخرة طبقا لهذا النموذج.)[١]

وقد أكد هذه الرواية مؤرخون ثقة، منهم صاحب (الجامع المستقصى فى فضائل الأقصى) وغيره.

إن العمارة الإسلامية تنتمى إلى الإسلام فنا لا اسما فحسب فلم تكن لموطن الإسلام الأصلى هذا الطراز من العمارة قبله ولكن يحسب للعرب السرعة والنجاح اللذان تم بهما ظهور طراز معمارى إسلامى من شعورهم بالحاجة إليه (وهو شعور يدعو إلى العجب حقا) ... إلى إظهار حقيقة الوجود الإسلامى فى صورة مادية تختلف عما يحيط بها.

وتتميز مع ذلك بهيئة إسلامية مفهومة وتعتبر هذه النقطة كما يقول أوليج جرابار على جانب كبير من الأهمية عندما نحاول أن نقدر تراث الإسلام المعمارى.

لقد انبثق هذا الشعور من طموح حضارى إلى مواكبة مايحيط بهم من طرز معمارية فى البلاد المفتوحة فنشأت العمارة الإسلامية ردا على مجموع كبير معقد من الإشكال السابقة عليها أو المعاصرة لها دون أن تكونها جملة وتفصيلا.

بل مما يسترعى الانتباه كما يقول أوليج جرابار (إن التوليفات المعمارية التى تكونت خلال القرنين أو الثلاثة الأولى التى نشأت عنها كل التطورات المعمارية اللاحقة، إنما كانت فى ذاتها مجرد مثل واحد لقدرة فريدة لدى المسلمين على تحويل عناصر شكلية أو وظيفية عديدة أخرى إلى شىء إسلامى مع الاعتراف بأن هذه التوليفات كانت أول أمثلة هذه القدرة الفريدة وأقواها تأثيرا).

---

(١) اقرأ كتاب (الأنس للجليل بتاريخ القدس والخليل) جـ ١ ص ٢٤١.

• (الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية) للاستاذ حسن عبد الوهاب.

لقد نشأت المسيحية فى منطقة الشرق العربى إلا أن الاسلام كان أكثر انتفاعا بما ورثه من حضارات وأكثر تفننا فقد (أعطى معانى جديدة لأشكال كانت معروفة وشائعة، كما أعطى معانى قديمة لمبتكرات جديدة فى الأشكال).

ومع العمارة، **تراث إسلامى فى فن الزخرفة إلى حد الولع**. ولعل السر فى هذا طول عهد العرب بالصحراء والرمل والتشابه والرتابة الشاملة والطويلة فما أن وقعت عيونهم فى البلاد المفتوحة على الفنون والألوان حتى ابتهجوا بها... وخدمتهم **خاصة العليم**، عندهم فوصلوا **إلى المشاركة ثم المهارة**....

وهنا لم يتركوا شيئا إلا زخرفوه ولونوه وكأن صنيعهم رد مادى على اللون الواحد (الصحراء) حتى الجدران غطوها بالألوان رخاما وفسيفساء ومربعات قيشانية ملونة حتى المعادن كفتوا النحاس بالفضة، وموهوه بالذهب، ولونوه بالمينا... حتى الكتب جلدوها بالألوان... حتى ملابسهم أغرقوها بالأصباغ مما استلفت نظر سولومون. دوف جويتين (S. D. GOITEIN) فى تحليله للألوان والأصباغ التى كان يستعملها الرجال والنساء فى ملابسهم، والتى ورد ذكرها فى وثائق الجنيزة فى مصر القديمة (الفسطاط) فى القرنين الخامس والسادس للهجرة، الحادى عشر والثانى عشر للميلاد.

وبخاصة عندما يتحدث عن التعدد الهائل فى الألوان التى كانت تستخدم فى تلك العصور، والتى كانت تجعل الانسان فى العصور الوسطى يبدو كالطيور الاستوائية وهى تصدح بين الأشجار بألوان متداخلة، وأشكال لامعة براقة، ذات أطياف متغيرة وخطوط وتموجات.[1]

* * *

نظم الإسلام المجتمع العربى بالحكم النظامى ممثلا فى الخلافة بعد النظام القبلى. وكم بين الاثنين فيما يتعلق بالإنسان من حقوق وواجبات تعمل عملها فى مجتمعه الجديد كرامة وإعدادا.. علما وفنا وصناعة.... عمارا وعمارة... أنسا وإيناسا يعطى الإنسان فى ظلهما عطاءه ويؤتى خيره لم يظلم منه شيئا.

(١) س. د. جويتين S. D. Goitein الصناعات الرئيسية فى منطقة البحر الأبيض المتوسط كما نتبين فى وثائق «جنيزة القاهرة»

• The main Industries of Mediterranean a ret as reflected in the Records of the Cairo Genira.

• مجلة التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للشرق.

ويقارن توماس أرنولد فى كتاب (الخلافة) بين الخلافة فى الشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب فيقول إن كليهما يستند إلى قوة الدين غير أن الامبراطورية المقدسة مستحدثة أو هى استمرار للامبراطورية الرومانية فى الوثنية وحتى بعد المسيحية لم تكن الامبراطورية نظاما جامعا فقد كان الامبراطور الحاكم الزمنى، حين يعتبر البابا الحاكم الروحى أما الخلافة (فإنها لم تقم على نظام سياسى سابق، بل هى نظام مستحدث وليد الظروف والأحوال التى نشأت على أثر ظهور الإسلام وبسط سيادة العرب على بلاد الفرس ومعظم بلاد الدولة الرومانية الشرقية. والخليفة حاكم سياسى يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية).

إنه أسلوب الإسلام الذى حد كثيرا من بطش الطغاه فأمن المجتمع الإسلامى واستقر. ومع الاستقرار انتشر العمران فى صور شتى.

لا أريد أن اتكلم عن الخلافة نظاما سياسيا ودينيا فقد تناولها فقهاء ومؤرخون منهم أبو الريحان البيرونى (٤٤٠ – ١٤٠٨) وأبو الحسن على الماوردى (٤٥٠ – ١٠٥٨) وابن حزم (٤٥٦ – ١٠٦٤) والشهرستانى (٥٤٨ – ١١٥٣) وابن خلدون (٨٠٨ – ١٣٨٢).

كما تناولها مشتغلون بالفلسفة منهم أبو نصر الفارابى فى كتابه عن أهل المدينة الفاضلة، وأخوان الصفا، وشهاب الدين السهروردى فى كتابه (حكمة الاشراق).

وتناولها مستشرقون منهم (متز) و(جولد تزيهر) و(توماس ارنولد).

ما أريد أن **أقوله هو ان الاسلام كان وراء كل صغيرة وكبيرة فى عمران المجتمع الإسلامى** حيث استندت السياسة والقضاء... فى الإسلام إلى **روحه وتعاليمه** ثم بعد هذا إلى **مذاهبه الأربعة**. وعندما كانت السياسة، خاصة، تتغيا ما أمر به الإسلام أن يتبع، كان يشيع فى المجتمع العدل والخير يعزز هذا ويرسى قواعده القضاء الإسلامى. فالإسلام منذ وجد كان عقيدة وشريعة... وكان المسجد جامعا وجامعة وقبلة للرأى كالصلاة ومكانا للعبادة، والشورى، والأحكام فى وقت واحد.

يقول توماس أرنولد: (لم يكن المسجد مكانا للعبادة فحسب، بل كان أيضا مركز الحياة السياسية والاجتماعية. فكان النبى يستقبل فى المسجد السفراء ويدير شئون الدولة، ويخطب جماعة المسلمين على المنبر فى الأمور السياسية والدينية. فمن فوق منبر المدينة أعلن عمر عن تقهقر جيوش المسلمين فى العراق، واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد. ومن على المنبر أيضا وقف عثمان يدافع عن نفسه، كما كان الخليفة عند

استخلافه يلقى من فوق المنبر على الجمهور خطبته الأولى التى هى بمثابة بيان عن سياسته فى الحكم.) أى خطبة العرش بالاصطلاح الحديث.

وفى المسجد كانت تتحلق حول العلماء الندوة يفسرون ويشرحون.

وفى المسجد تلقى أطفال المسلمين العلم وحفظوا القرآن.

وفى المسجد تصدر القضاة للحكم بين الناس ونصبوا موازين العدل.

وحين أخذ المسجد هذه الأهمية فى حياة المسلمين ومدنهم صار **معلما عمرانيا علميا وفنيا... هندسيا ودينيا ومساجد العصور الوسطى من أهم آثار الحضارة الإسلامية** فى ذلك العهد.

وقمة العمران فى مجتمع، **المساواة بين أفراده.**

وقد أعلى الإسلام قيم المساواة من تكافؤ فى الحقوق والواجبات.. من عدل ورحمة.

حتى الرقيق سوى الإسلام بينه وبين مولاه فى الطعام والشراب واللباس والتعليم والتهذيب وفى معظم الحقوق المدنية اللهم إلا فى الولاية.

يقول صاحبا كتاب «النظم الإسلامية»[1] (كان من اختصاص المحكمة أن تحكم بتحرير الرقيق إذا ثبت أن سيده يعامله معاملة قاسية.)

كان منطق الإسلام (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة، **فك رقبة)** وقدم هذا العتق على سائر اعمال الخير التى حض عليها فى هذه الآية.

هذا بينما يرى الرومان أرقاء:

أبناء الأرقاء، حين ينص الإسلام على ألا تزر وازرة وزر أخرى، **والمدينين** والعجز عن الوفاء بالدين يستوجب الرق فى شرعهم.

واليهود يرون أرقاء:

المدينين.... كالرومان سواء بسواء.

والعاصون الشرع.

وبالطبع من أوقعهم سوء حظهم فى يدهم من أبناء الآخرين.

وجاء المسيح ومضى – فى وقت قصير – والرق باق لم ينله تعديل.

---

(١) الدكتور على إبراهيم – والدكتور حسن إبراهيم.

ومجتمع يشيع التراحم بين أفراده من كل لون وصفه كالمجتمع الإسلامى، مجتمع مستقر وقرير يرتفع فيه بناء الإنسان وبناء المكان.

* * *

إذا كان المسرح أبا الفنون فإن العمارة أمها. وكما يعانق المسرح فنون الأدب والموسيقى والتمثيل والغناء فإن العمارة تحتضن فنون النقش والزخرفة والتلوين.

فن التلوين فى الإسلام:

ان اللون والزخرفة فى الفن الإسلامى قصد:

* لقيمته الجمالية.
* للرمز عن الإشياء.
* لمحاكاة النماذج.
* للراحة النفسية بالتغيير.

ويعتمد الإيقاع فى الفن الإسلامى على:

التماثل والتناظر والتبادل على الخط اللين والهندسى.

كان الإسلام وراء تشكيل الفراغ فى الفن الاسلامى. فحين كره الفنان المسلم، الفراغ، أراد ملء المساحات الكبيرة. وهنا رأى اعتماده على الخطوط والتوريقات النباتية الدقيقة يتطلب وقتا وجهدا مضاعفا فرسم الحيوان والطير ليعينه الحجم على ملء المساحات... ولكنه تفاديا لرسم الكائنات الحية كما هى، لجأ إلى تحوير الشكل.

كان الإسلام وراء الحليات المعمارية التى تشبه خلايا النحل والتى استعملت فى المساجد فى طبقات مرصوصة وتستعمل فى الزخرفة المعمارية.

ولقد أشاد القرآن بالعسل فيه شفاء للناس، وأشار إلى بيوت النحل. والسورة ١٦ فى القرآن الكريم تحمل اسم: النحل (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

وقد تفكر الفنان المسلم فاستهدى ببيوت النحل واستوحى خطوطها.

وسورة النحل فيها ذكر لنعم كثيرة مما خلق الله ومما استوحى الفن الإسلامى فيما بعد على هدى من نوره... فيها ذكر للسماء والأرض وما ذرأ فيها مختلفا ألوانه... فيها ذكر للإنسان والأنعام والماء والزرع وكل الثمرات... والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبحر والجبال (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها).

وهذا الثراء، أمتع الفنان المسلم وأترع فنه برؤية روية من الأشكال والألوان... والخطوط حتى الأعداد.

إن القبة الثمانية فى فارس تقف وراءها الآية (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية). الحاقة ١٧

الإسلام والجمال فى الحياة:

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون (لكل جمال)، وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرءوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها، وزينة ويخلق ما لاتعلمون). النحل ٥، ٦، ٧، ٨

الزهد يضعف الجسم.
ولما كان العقل السليم فى الجسم السليم.
فقد أحل الإسلام الزينة والمتعة فى غير حرام لبناء مجتمع صحيح قوى.

الزخرفة والفن الإسلامى:

والخيل والبغال والحمير لتركبوها ولكم فيها متاع... اتخذها الفنان المسلم عناصر لزخرفته.

وفى المتحف الإسلامى القطعة المنسوجة سجل رقم ٩٠٦١ وبها شريط من الكتابة العربية مرسومة بأسلوب زخرفى. وفى أعلى هذه الكتابة شريط أحمر اللون به صف من الجمال البيضاء والخضراء مرسومة بأسلوب هندسى محور جداً.

أكده التوازى الشريطى فى الطبيعة المصرية فالوادى الأخضر شرائط هندسية جميلة دائمة الخضرة تشقه قنوات هى شرائط بيضاء كالخير فالماء حياة ونعمة... ويتوج هذا كله النيل وله ضفتان يليهما سهلان يليهما صحراوان... طبيعة منظومة من بحر النيل.

الكتابة العربية والفن الاسلامى:

وسادت فى النسيج، الأشرطة العرضية وكأنها السطور من دخول الكتابة فى الزخرفة... والكتابة العربية لاتكون إلا أفقية.

(ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الملك ٥.

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا. وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) يونس ٥ (وصوركم فأحسن صوركم) التغابن ٣.

ويجيء بعد هذا، الفن الإسلامى، **وهو فن تطبيقى** يستمع إلى نداء حديث (اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع). وقد فتح القرآن له أبواب العلم.

والباحثون فى الفن الإسلامى بدءا من التوحيدى فى (الإمتاع والمؤانسة) حتى عصرنا الحاضر يجمعون على تكييف العقيدة للفن. ولأمر ما يصف المسلمون الفنان بأنه إنسان فاضل(١) بينما يوصف الفنان فى الغرب بالبوهيمية بل إن الحروف العربية حين دخلت فى التشكيل الفنى يقول الدكتور عفيفى البهنسى إن مرجع هذا كله إلى الفكرة التى أوحى بها علماء التصوف الإسلامى عندما نادوا بأن للحروف العربية أسرارا خفية ونسبوا إليها قدرتها على جلب الخير(٢) بتأكيد كهيعص و ن و ق والقرآن المجيد.

وإن كنت أرى أن العربية حرفا ومعنى. اسما ورسما إنما تستمد قيمتها الفنية والنفسية من أنها لغة القرآن الكريم وهو الخير كله والقيمة كلها.

مرة أخرى:

إن الاسلام والفن والعمران... موضوع كبير واسع الثراء.

ليس أدل على قوة ذاتية غير عادية فى الإسلام من أنه وهو حديث عهد بالفنون والصناعات قد احتواها بقوته وحقيقته حتى صار معلَماً من معالمه جديدا قديما.... هو على جنسيته الأصلية، إسلامى فى النهاية والأثر والمفهوم.

---

(١) اقرأ الإمام الغزالى فى (إحياء علوم الدين).

(٢) كتاب دراسات نظرية فى الفن العربى، ص ١٨.

الإسلام والمشاركة الحضارية

بداية أقول إن الإسلام أقر الأديان السماوية قبله وهى ميزة انفرد بها. ونبعة تسامح تحفظ عليه بشره وقوته وسط كل الظروف.

إن اعترافه بالأديان الأخرى، قفل باب الردة عنه... إذْ فيم الرجوع وإلى أين؟

إلى المسيحية؟ إنه يعترف بها

إلى اليهودية؟ إنه يعترف بها فى صورتها الأولى فإن العالم (ديڤو) الذى كتب مقدمة سفر التكوين سجل أن التوراة كتبت بعد نزولها بنحو ٩٨٠ سنة وماوراء هذا من دلالات.

ولعل هذا سر تمسك المسلم تمسكا غريبا بالإسلام، حتى ليستحيل تحوله إلى دين آخر، بينما يدخل أهل الأديان الأخرى فى الإسلام بما يعلمون عن تآخيه وبساطته وصدقه. إن الإسلام لايرفض إلا الإلحاد... وهو حين اعترف بالكتب السماوية يعلن فى الوقت نفسه، رفضه، الإلحاد فالملحدون فى رأيه وتعبيره، لايساوون عند الله، جناح بعوضة (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب.) سورة الحج الآية ٧٣.

وغير هذا عنصرية اليهود... إنها قبلية هابطة، فأن يكون الله إلههم وحدهم. وأن يكونوا هم شعبه المختار، وغيرهم شعبه المحتار، نظرة طبقية قبلية منافية للإنسانية كما أسلفت بينما الإسلام دين الفطرة... والمسلم كل من أسلم وجهه لله وهو محسن ومن هذا المنطلق، اعتبر الإسلام كل من سبقوه... كل ممن سلمت فطرتهم وأعمالهم، مسلمين.

(ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) سورة النساء الآية ١٢٥

وقبل أن أتناول الإنجازات العلمية لهذه الحضارة، أقول إنها حضارة إنسانية حتى حين اضطر إلى الحرب دفعا لظلم أو درءا لعدوان ماكان يحوطها بالتشريع ويضع لها من

التقاليد والحرمات مايليق بدين الشرائع المثلى.. فهو يحرم التمثيل بالميت أو قتل النساء والأطفال أو بقر البطون، مما ترتكبه الحروب الحديثة على الرغم من التشدق بحقوق الإنسان ومبادئ السلام.

حضارة إنسانية حين توهج بحب الحياة فاعترف بمتاعها ومتعتها. أقر زينتها وطيباتها وطيوبها فلا انطوائية ولاقوقعة ولازهد. زهاده اختيار، وأسلوب شخصية.

الإسلام أنيق يحب الجمال والزينة والنظافة... أوجب طهارة الجسم كالروح.. وزكّى الطِّيب والخضاب، وأباح التزين، وأتاح المتعة فى غير حرام، وأوجب الوضوء والاغتسال... فكان نظاما جامعا للدين والدنيا.

ويفرض هذا نصا.. وطقسا.. ثم بالإيحاء أو الاقتداء حين يبثه فى ثنايا أقوال ومعان **كثيرة**، ولكن دون سرف.

إنه دين الفطرة وقد شرح ابن طفيل المسألة عقلانيا، ولكن التجربة الدينية: بصيرة... انفتاح... التجربة الدينية لاتعادى العقل، ولكنها أبعد منه، مدى... إن الخلد عندها لايعنى استمرار الزمن، ولكن يعنى ماوراء الزمن... إن **التوحيد** فى الإسلام سر البطولة فالقول «لاغالب إلا الله» ليست تميمة ولكن عقيدة... فيه سمو على الأشياء، وعلو على الصفات... يصف العابدون مايصفون، ثم يظل أكبر... ليس كمثله شئ.

هكذا رفع الإسلام راية **الحرية والإخاء والمساواة**، قبل الدساتير الحديثة فى الغرب بعدة قرون.

الإسلام حضارة إنسانية يوم ترفق بالإنسان فلم يكلف نفسا إلا وسعها حتى الوحدانية، أكتفى فيها بإشارة السبابة إلى السماء، ولم يحطها بتعقيد أو التواء.

الصلاة اكتفى فيها بالإيماء إذا شق على المؤمنين القيام والقعود...

الصوم أباح الإفطار فى حالتى المرض والسفر...

بل أباح المحظورات عند الضرورات.

كيف التقت البساطة فيه بالعمق؟ إنها سره

الوضوء فى الإسلام وضاءة نفس قبل أن يكون غسل الأطراف. والصلاة صلة بين المحدود «الإنسان» وبين الكمال المطلق «الله». ولعل هذا، السر، فى فرض الصلاة خمس مرات فى اليوم، لعل واحدة منها تنجح فى تحقيق هذا المعنى.

الصلاة فى الإسلام تطهير للذات، وانفتاح بها للنور وعلى النور... ورفع اليدين فى الصلاة استشراف إلى العالى... إلى السامى فى عملية مجاهدة وخلوص والسجود، سجود القلب حين يتجرد من الصلف ويقول الساجد (**سبحان ربّى الأعلى**) ولو كان ملكا أو امبراطورا... بينما فى الركوع يقول سبحان ربّى العظيم...

حرص الإسلام على «**الخلوص**» تمكينا لحواس النفس الداخلية أن تمتح من الأعماق.. أو تنهل من الأشواق الروحية.

الإسلام **صلاته صلة... وبره محبه... وزكاته تكافل مشروع وحق معلوم** وحنان على اليتامى وعتق الرقيق والوفاء بالعهد والصدق فى القول والعمل.

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) سورة البقرة الآية ١٧٧

حتى النواهى فيه أنفع مايمكن من قيود الحق والمصلحة العامة والخاصة المشروعة حفاظا على الشخصية الإنسانية.

(ولاتصعّر خدك للناس ولاتمش فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختال فخور، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك)

وقوله جل شأنه (ولاتقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا.. ولاتمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا).

ومن إنسانية الإسلام أن **الآيات - فى بذل المال - تشمل الإنسان مسلما أو كتابيا** يقول أبو يوسف صاحب كتاب الخراج الذى يفسر الآية (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) بأن الفقراء هم فقراء المسلمين والمساكين هم فقراء أهل الكتاب. ثم حث على العطف عليهما معا حبا وكرامة فقال تعالى: (وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب).

الإسلام حضارة إنسانية يوم احترم الانسان حتى فى آخر السلم الاجتماعى فيقول سبحانه:

(إن تبدوا الصدقات فنعما هى، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم.)

الإسلام حضارة إنسانية يوم حنا على الخطأ ففى الحديث الشريف: (من عمل فأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران).

وهى دعوة للمحاولة والاجتهاد مع جواز خطأ التجريب.

الإسلام حضارة إنسانية بل ثورة إنسانية حين جعل العبادة لله وحده مما أطلق حرية الإنسان مادام لا إله إلا الله.

هذا المعنى يجب أن تلتفت إليه التربية فى البيوت والمدرسة لتستقيم النشأة ويستقيم الإنسان... لأن المرء حين يتجوف من المعنى، أو يتخوف من مخلوق مثله، أو يتخوى من القيمة، فهو خاوٍ خابٍ ولاتستوى الظلمات والنور.

لقد غلبوا الفرس والروم لا بالسيف، فما عند الروم والفرس من السلاح أكثر ولكن **بالتوحيد**... وليس التوحيد كلمة لا إله إلا الله تقال حرفية أو ببغاوية ولكن رؤية رائعة.. مادام لا إله غيره، ولاقوى غيره ولاسلطان غيره فلايخشى غيره... وماعداه صغير وضعيف ومقدور عليه.. ولولا هذا لتهيبوا الامبراطوريات ولخافوا الأباطرة.

الإسلام ثورة ثقافية: حين أعاد بناء الإنسان بدءا بالإنسان البدوى الجاهلى.

وهو ثورة ثقافية وإنسانية معا حين رفع كرامة المرأة بعد الوأد... وهو ثورة ثقافية حين دعا إلى النظر الرحيب فى الكون والنفاذ إلى ابداعه واتساقه الغريب.

القرآن عنده صفاء فى تفهم الإنسان.

(وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا)

معادلة صعبة وصل بها القرآن إلى ذروة من رغبات بشرية البشر ونزعات الخير فى الإنسان.

و(نصيبك) هنا أى ماتحتاج إليه لا الاستيلاء على مال الآخرين.

الإسلام حضارة يوم انتهج أسلوبا فى الحياة هو نمط سلوك من أبسط الأشياء إلى أعلى الأشياء... فجعل «**الاتقان**» فى العمل، قربى إلى الله (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه).

الاسلام دين الاتقان تجويدا للقرآن.

وتجريدا للخط العربى حتى غدا تسعين قلما

الإسلام حضارة إنسانية يوم ركــز على **المساواة**. حـارب الإسـلام، العلو فى الأرض... فالمساواة دعوته (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) بينما الأمم المتحدة اليوم تعترف بشريعة الغاب يوم أعطت الدول الكبرى (حق الڤيتو) لمجرد أنـها قوية أى مرخص لها بالبطش والافتراس. ومن يعترض تستعمل «حق» الڤيتو أو استثناء الڤيتو بتعبير أصح...

الإسلام حضارة إنسانية فى موقفه من المرأة موقفا متحضرا واسع الأفق، إنسانى النزعـة والفكر والشعور... وضعـهـا فى إطار واحـد مع الرجل فى التكليف والمسـؤليـة والإرادة والتصرف. بل أمر الله، الرسول أن يبايع النساء وهذه المبايعة من فروع استقلال النساء فى المسئولية والرأى والاختيار.

حدث هذا فى القرن السابع الميلادى حين تكافح المرأة الحديثة للحصول على حق الانتخاب فى الشرق والغرب... وعُدّ حصولها عليه فى البلاد التى أقرته، تقدما ورقيا.

أعطى الإسلام المرأة حق البيع والشراء وحرية التصرف فى مالها وجعل موافقتها شرطا فى صحـة الزواج ونوه بدورها فـى التاريخ، وسدادها فى الرأى، وقدرتهـا على التفكير والتدبير... أعطاها حق الاحتفاظ باسمها بعد الزواج..

لقد منح الإسلام المرأة من الحقوق مالم تسلم، لها، به، أوريا حتى اليوم.

الإسلام حضارة إنسانية يوم دعا إلى التفكير والتأمل. ليس فيه ضعف يخيفه ويخفيه بتحريمه المناقشة.

الإسلام حضارة إنسانية فى وقفته الواعية بالخلفيه الروحية بالوجود تلك الخلفية التى غابت عن الوعى المعاصر.

ترى الله حياة الحياة، أى السر الأسمى لها.
وترى إبداع الكون، فى اتساقه الغريب.
ومن ثم، حققت هى الاتساق فى أسلوبها

كانت المدارس الدينية «الشافعية - المالكية - الحنفية» تدرس مع علوم الدين: الفلك - الهندسة - الموسيقى... وهى رؤية فى العلاقات المتجـانسه بين العلم والدين والفن يسمونها «العلاقات الفاضلة».

وانطلاقاً من هذا الأفق، حفظ المسلمون الحضارة القديمة حفظ الكريم الذى ينمى ويضيف.

الإسلام حضارة حين ربط الإنسان بالكون الرحيب ولم يحصره فى ركن واحد تحت اسم العلم أو المادة أو العصرية. يقول جيرالد هيرد فى كتابه The Third Morality «القيمة الخلقية الثالثة»: (إن الغرب تعس ومتخلف بتحكيم القانون العلمى فى كل شئ حتى غدا الإنسان آلة قابلة للتحكيم والتحكم. ومادام كل شئ (ماكينه) فكل شئ لاهدف له ولا أخلاق له ولاقيم له.)

الإسلام حضارة إنسانية يوم احترم الانسان منذ أربعة عشر قرنا حين سحب الغرب أو العصر الحديث، السجادة من تحت قدميه... إن أزمة الإنسان المعاصر، أنه أُبعد من الصورة. أصبح إنسانا نمطيا، حين لايميز إنسانا عن آخر إلا صفة فريدة فيه.

الإسلام موهبته أنه مضاد للعقلية الحشرية والحشدية. إن اعتماد الإنسان على الله يشد المرء إلى سلطة أخرى غير سلطة الدنيا. ودون مسئولية الفرد أمام الله تصير الأخلاق أمورا تواضعية.

مرة أخرى أشير إلى «يونج» فى قوله (نحن الأوربيين نتمنى أن نتسلق قمة ديانة فلسفية ولكننا عاجزون لأننا حديثو عهد بالتحضر... قصارى مانصل إليه، أن ننمو إليها... ننمو فى اتجاهها.)

ويتساءل فلهلم Vellhilm لماذا نترجم عن الشرق ونتعرف على الشرق؟ إنها حاجة الأوربى إلى الجانب الروحى فى نفس الإنسان.

إننا إذا ضممنا آيات الشورى فى القرآن الكريم، إلى آيات المجادلة الحسنة فإننا نلمح حض القرآن الكريم على وجوب **دور الرأى العام**... وأن الرأى العام كما يقول الشيخ محمد أبو زهره فى كتابه (التكافل الاجتماعى فى الاسلام) له رقابة نفسية.

ومعنى هذا أن الرأى العام له رقابة نفسية، أنه إذا صلح، هذب الآحاد والجموع، وإذا فسد وتقاعس، فسد المجتمع.

جهلوا الإسلام فهاجموه والناس أعداء ماجهلوا حتى لقد اعترفت وثيقة الفاتيكان – تم طبعها إثر اجتماع مجمع الفاتيكان الثانى والتى طبعت للمرة الثالثة سنة ١٩٧٠ Orienta- tions pour un Dialogue entre Chretiens et Muslums التى تناشد العالم المسيحى أن يقيم حوارا بينه وبين المسلمين...

ودعت الوثيقة فى روح إنصاف، إلى استبعاد «تلك الصورة البالية التى ورثنا الماضى إياها أو شوهتها الافتراءات والأحكام المسبقة.»

لقد قوى الإسلام بعد الحرب المادية، على حرب معنوية لم يواجهها دين آخر... ولكن الحرب هنا لون من التقدير المعكوف أو المدح الملفوف كما يقول الأستاذ العقاد فى العداوة.

إن «دانتى» على شدة عداوته للإسلام من منطلق عصره الوسيط، والحروب الصليبية – التى تمسحت باطلا فى المسيحية والمسيحية السمحة منها براء –

دانتى مع إقرار الكثيرين من الباحثين بتأثره بالتراث الإسلامى، بل بالإسراء والمعراج فى ملحمته «الكوميديا الإلهية » دانتى هذا، لم يقو على إنكار تقديره للفلسفة الإسلامية وفلاسفتها خاصة ابن سينا، وابن رشد اللذين أنزلهما منزلة فكرية عالمية تركت بصمتها على الفكر الإنسانى.

ومن الطريف، أنه حين أقر فلسفتهما، أنكر عقيدتهما!! حتى أدخلهما الجحيم، ولكن فى أولى مراحله حيث لا عذاب ولا دموع، ولكن زفرات وحسرات!!

ويظل الإسلام بعد هذا كله: دينا وحضارة: شعائر وشرائع دين العقل الحر والإنسانية الكاملة.

إن عبقرية الإسلام فى اعترافه بالحضارات كالأديان... لم يكن موقفه الرفض بل القبول... وهو علاقة قوة ووثوق وتفتح وانفتاح.

لقد خرج الإسلام من بيئة بدوية بدائية ثم انتقل إلى بيئات حضارية معرقة فى المدنية كمصر وفارس... فلم يدع ولم يهدد ولم يبدد بل حفظ وصان وأضاف وأذاب رهبة الخوف أو التهيب أو التحفظ على أقل تقدير... بل من سماحته وعالميته، أنه اعتبر نفسه **دولة عامة يقوم بها المسلمون جميعا حتى عاصمته السياسية سرعان ما انتقلت من موطنه الأصلى إلى الأوطان الأخرى فهى دمشق وهى بغداد وهى القاهرة.**

مهما اختلفت الآراء فى الحضارة الإسلامية أو أصالتها فمن المؤكد أنها كانت الشعاع الذى بدد ظلمات أوربا ففتحت عينيها على معالم جديدة للحياة الخصبة المزدهرة بمجد العلم ونور الفن وآيات المدنية. تقول الكاتبة الألمانية سيجريد هونكه فى كتابها: (شمس الله على الغرب): (لم يعد سرا أن مصر هى الوطن الذى بزغ فيه فجر الضمير ومنها أخذ

اليهود ما أخذوا، وأن العرب ظلوا ثمانية قرون طوال يشعون على العالم علما وفنا وأدبا وحضارة... وأخرجوا أوربا من الظلمات إلى النور) .

أقول : مهما يكن من أمر فإن أشد الناس تعصبا لايمكنه الإقلال من شأن النتائج الحضارية الخطيرة التى حدثت فى تاريخ البشرية وترتبت على ظهور **الإسلام**.

ولا يمكن مقارنة هذا الحدث بأى حدث آخر فى تاريخ البشرية .

المسلمون اليوم

تخلف المسلمون لأنهم ابتعدوا عن جوهر الإسلام فالإسلام ثورة إنسانية حين جعل العبادة لله وحده مما أطلق حرية الإنسان مادام لا إله إلا الله.

لقد غلبوا الفرس والروم لا بالسيف فما عند الفرس والروم أكثر ولكن بالتوحيد والتوحيد ليس أن تقال لا إله إلا الله ببغاوية ولكن رؤية رائعة مادام لا إله غيره ولا حق غيره ولاقوى غيره ولاسلطان غيره فلا يخشى غيره.

المسلمون يقولون اليوم لا إله إلا الله أكبر.

وحين يتجوف الإنسان من المعنى، أو يتخوف من مخلوق مثله

أو يتخوى من القيمة فهو خاوٍ خاب. ولاتستوى الظلمات والنور.

الإسلام ثورة ثقافية حين أعاد بناء الإنسان وصنع من الصحراء رجالاً كعمر ابن الخطاب.

ثورة ثقافية حين رفع كرامة المرأة بعد الوأد،

لم يكبلها ولكن أفتى أحد الأئمة الأربعة أبو حنيفة بأن تلى جميع المناصب بل تتصدر للإفتاء.

والحافظ الذهبى فى تاريخه ذكر ٨٨ سيدة تولين أعلى المناصب،

والإمام الشافعى افتخر بأنه تلقى العلم على السيدة نفيسة.

الإسلام ثورة ثقافية حين جعل الرسول فدية الأسير تعليم عشرة من الصبيان إيماناً بالعلم وعملاً على نشره.

الإسلام ثورة ثقافية حين قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «من عمل فأخطأ فله أجر ولمن أصاب أجران» فى دعوة إلى البحث والاجتهاد والتجريب فى سماحة وحنان على الخطأ حتى لايحجم إنسان عن التصرف.

الإسلام دعا إلى التفكير والتأمل فى إحساس بالكون الشامل وهذا معنى غاب الآن عن المسلم المعاصر.

كانت المدارس الدينية (الشافعية – المالكية – الحنيفية) تدرس مع علوم الدين: الفلك – الهندسة – الموسيقى وهى رؤية فى العلاقات المتجانسة بين العلم والدين والفن يسمونها فى تراثنا (العلاقات الفاضلة).

المعاصرة ليست الانشغال بالزائف أو الطرائف ولكنها وعى بالمتاح من شتى ألوان المعرفة فى العلم والفن والصناعة، لكن إذا غدت الحياة زيا وأداة، والديانة نصوصاً وطقوساً دون تعمق روح النصوص والطقوس يتهاوى الانسان ثم يهوى هويا

إن المعاصرة موضوعية التفكير – عالمية الرؤية – بصيرية الأفق.

إن الهجرة ليست النقلة من مكة إلى المدينة، ولكن الهجرة بدأت بالآية الكريمة: «اقرأ باسم ربك الذى خلق»

هنا قراءة الكون بدلائل القدرة فيه وهى أكبر كثيراً من قراءة الحروف.

سئلت هيلين كيلر بعد أن ولدت كفيفة صماء عما تعتقد أنه أسوأ نكبة يصاب بها الإنسان فقالت: «أن تكون له عينان ولايرى».

رؤية البصيرة نماء للذات

إن الزراعة agriculture تنمية البذرة فى عالم النبات

والثقافة culture تنمية الذات فى عالم الإنسان. ولأمر ما، تشابهت الكلمتان نطقا وكتابة... تقريباً.

إن التقوى ليست زيا ولكن التقوى اتقاء نزعات الشر ونزغات الشيطان، والشيطان هو الجزء الثائر المحروم المنبوذ فى النفس والإنسان الكامل هو الذى اصطلح فى داخله الوعى واللاوعى، والروح الشفه فى حنين إلى هذا التكامل، لذا وجدت الديانات ولهذا عاشت.

هنا فقدت الحضارة الحديثة الكثير بغياب المسلمين الحقيقيين عنها لأنها حضارة اعتمدت واعتدت بالذكاء وحده... الله أكبر فقطعت شوطاً بعيداً حتى وصلت إلى القمر ولكنها تشعر بظمأ الروح والمشاعر حين طب الإسلام لروح الإنسان وجسمه معاً لآخرته

ودنياه معاً فأعاد التوازن إلى النفوس العلقة فاستقرت وارتاحت وإذ تطمئن النفس تعطى عطاءها كاملاً. إن أكبر نسبة للانتحار فى السويد وعندها كل وسائل الحضارة الحديثة.

إن العمل على تناغم الإرادة والقدرة شيء أكثر من الفضيلة إنها الحكمة.

ومن هنا نفهم قوله تعالى: «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً».

«صدق الله العظيم»

الإسلام والإنسان

الإسلام دين العقل الحر والإنسانية الكاملة. إن الفطرة السليمة تهتدى إلى الإسلام بصفائها ويصور هذا فيلسوف الإسلام «ابن طفيل» فى قصته «حى بنى يقظان».

عرف «وايتد هيد»، الدين، بأنه أمر توحيدى فإذا لم تتوحد على الإطلاق فلست متدينا على الإطلاق فالدين هو وعى الإنسان بفرديته... بقيمته الإنسانية.

وقد احترم الإسلام الإنسان يوم جعل العلاقة بينه وبين الله مباشرة فالمسجد فى الإسلام كالقلب المفتوح، إنه بيت الله بدون حجاب ولا كهانة ولا وسيط. وهذه هى سمة الإسلام الكبرى.

المسجد فى الإسلام مساواة بغير شعارات أو حروف... فالناس فيه سواء من يحضر أولاً، يقف فى الصف الأول ولو كان غفيرا، ومن يحضر أخيرا يقف فى نهاية الصفوف ولو كان أميرا...

وبهذا الاحترام الكامل للإنسان، صنع الإسلام حضارته لقاء حميما بين المادة والروح حين غلبت الحضارات والأديان قبله، أحدهما على الأخر.

الإسلام رؤية جديدة للحقيقة، فحين تستحضر المسيحية ملكوت الله فى القلب البشرى، يستحضر الإسلام ملكوت الله فى داخل النفس وخارجها وما وراء المحسوس.

ومن هذا كان الإسلام دينا وحضارة شعائر وشرائع... فرؤية القرآن لله، رؤية محيطة. إن القرآن الكريم الحافل بالصور ولكنها ليست للتصوير الحسى... إنها رؤى ممتدة... يقول الله تعالى (كلمة طيبة كشجرة طيبة) كيف تصور هذه الآية.

رؤى ممتدة هى انفتاح لايعادى العقل ولكنه أبعد منه مدى... انفتاح يرى الخلد لايعنى استمرار الزمن، ولكنه ما وراء الزمن.

يقول كارليل Karlil فى كتابه «الأبطال» (لو لم يكن محمد فيه صدق لما استطاع دينه أن يعطى هذه الحضارة كلها).

الحضارة هى عطاء الإنسان: عقله وروحه ووجدانه ويده. فوقف عقله وراء تجاربه يدرك الأشياء ويربط بينها ويحلل ويستنتج ويستشف ثم يصل إلى جواب لسؤال حاك فى نفسه أو طرح عليه واقعه.

ومن إشراقات روح اهتدى إلى الدين.

ومن هزات وجدانه أبدع الفن، وأترع الخلق، وأمرع الحب.

ومن صنع يده: الإناء والبناء والنسيج والزرع والشجر.

ومن بدع أنامله الرسم والتصوير والنقش على الحجر.

كان خالقه يعرف قدراته حين ركبه فى أحسن صورة.

وكان ربه يعرف طاقاته حين ميزه بالعقل والنطق وعلمه مالم يعلم... وأكرمه فكتب وقرأ.

بل كرمه على الملائكة فحمله الأمانة.

جعل له عينين ولسانا وشفتين... وهداه النجدين ومع البصر، البصيرة ومع اللسان والشفتين، حبال صوتية فتكلم وترنم.

هذه حقيقة.

وقد وقف «جون ديوى» طويلا عند دور الكلام فى صنع الفكر الذى يقوم على المسميات والصفات.

ولأمر ما بدأ الوحى فى الإسلام بالآية الكريمة (اقرأ بسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم.)

كانت هذه بداية كبرى للإسلام وكانت فاصلا بين الجاهلية والإسلام الذى هو علم ومدنية وحضارة.

* * * *

كتب الانسان على ألواح الخشب وكأن الشجرة أفاءت على الإنسان الظل والنور فى وقت واحد.

على فنن من الشجرة غرد الطير وأرسل النغم.

وعلى لوح من الشجرة غرد الإنسان وكتب بالقلم.

وبلا شك قبل أن يكتب الإنسان، تكلم.

لابد أن يكون الإنسان أحدث أصواتا حين يرقص فرحا ومرحا... أو حين يصيح غاضبا مهتاجا.

ولابد أن يكون الإنسان، قد استحدث أصواتا يقلد بها زفيف الريح أو حفيف الشجر، أو زفيف النسمة، أو هسيس الموج على الحصى، أو خرير النبع، أو هدير البحر، أو زقزقة العصفور، أو هديل الحمام، أو بغام اليمام أو حتى ثغاء الشاة ومواء القطة.

لابد أن هذه الأصوات جميعا لفتته أو أدهشته، أو فتنته... فحاكاها وسار الزمن.. وسار الإنسان.

الزمن يجدد دورته... والإنسان يصنع حضارته... ابتداء بالوسائل وتطورا إلى الغايات. وبين المرحلتين تبين له أن حضارته لاتقوم بغير خمسة عناصر:

الدين... والفن... والعلم... والعمل... والمال.

وقد زكاها جميعا الإسلام ودعا الإنسان إلى رعايتها رعاية جامعة متوازنة يثرى بها، فى شمول، روحه وجسمه معا فى توفيق دقيق، وحقيق.

ولكن بين المرحلتين أى الوسائل والغايات، بون شاسع وبعد بعيد فأرنولد توينبى يذهب إلى أن أقدم أثر خلقه الإنسان فى رحلته مع الحياة، أو قصته مع الحضارة يرجع إلى ثلاثمائة ألف سنة، وإن كانت آراء أخرى تهبط بهذا الرقم كثيرا لاسيما العهد القديم الذى يحدد عمر البشرية بسبعة آلاف سنة (النص اللاتينى) أو ستة آلاف (النص الإغريقى) حين جاء روبرت هوك فى عصر العلم واستقرأ طبقات الأرض فأكدت الجيولوجيا أن عمر الأرض أضعاف هذا الرقم.

الجيولوجى الدكتور نصرى شكرى فى مقاله (قصة الأرض) يقول إن لكل وحدة، تاريخاً شيقاً... فالنيل بمعناه الواسع تاريخ يربو على خمسين مليون من الأعوام انتقلت فيه دلتاه من الفيوم إلى الصحراء الغربية، إلى مكانها الحالى.

بل إن لكل قطعة من زلط الصوان المنتشر فى الصحارى قصة ترجع إلى مائة مليون عام.

ولكن أكبر من هذا كله وأشمل وأصدق، وصف القرآن الكريم لله جل جلاله بأنه هو (الأول والآخر).

عمر الأرض مليون سنة أو ألف مليون سنة، أو غير هذا... الله هو الأول والآخر.

وانعكس هذا على الفن الإسلامى بما يشهد به غير المسلمين، فى وفاء للحقيقة هو تجرد وتجريد يرتفع إلى أفقه، الإنسان، إزاء الحقائق الساطعة والناصعة. يقول الدكتور بشر فارس فى كتابه الناقد «سر الزخرفة الإسلامية»:

(على المؤمن أن يتوجه بكيانه إلى الله، فالله مصدر جذبه وغاية سعيه فى آن واحد. وفى القرآن الكريم (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) البقرة ١١٥...

وفيه أيضا (ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون.) هذان معنيان لايفتأ كتاب الإسلام يرددهما:

من هنا لدونة الزخرفة الإسلامية وقد آل بها المطاف بين يدى الاسلام أن عتقت من الواقعية الهلينيه، وخلصت من الصلابة الفارسية. فلا مبتدأ لها ولا منتهى، وما يجوز لها أن تطمع فى أحد منهما، لأنها تسعى وراء الله الذى (هو الأول والآخر) الحديد ٣.

منه تبتدئ الأسباب وإليه تنتهى المسببات.

وبفضل اللدونة نرى الوحدة فى الزخرفة الإسلامية دوارة تارة وتارة متوترة... وهى، فى أكثر الحال، تلتوى وقلما يدركها البهر... ووجهتها، أبدا، ما لا حد له، فهى ماضية بلا ملل... وهيهات أن تبلغ ما تهدف اليه، فشأنها شأن إيقاع يترنح منقادا للصبر.)

وإن كنت أرى مع الدكتور زكى حسن أن الوحدة فى الزخرفة الإسلامية تتوقف أحيانا عن المضى بعد أن زايلها الشعور بالخوف من الفراغ متأثرة بالفن الصينى.

ولعل الدكتور بشر فارس أحس بصعوبة التركيز فجنح إلى التطبيق قائلا: (أن التفاف العرق بورده وأوراقه، كذلك انبساط السطوح، يقفان فجأة أحيانا، أو ينكسران حتما على الحواجز، عند أطراف الساحة التى تستقبل المنسق. أترى يرضى الالتفاف والانبساط بهذه الهزيمة؟ كلا! أما العرق فلا تختتم مداته، وإما السطح فلا تلتحم أضلاعه... بل كل يصل إلى المدى المقدر له وهو فى فوران نشاطه: إما عند رأس انثنائه، وإما فى قلب اشتباكه، كأنما يتأهب لاستئناف الاندفاع، فيدعوك إلى أن تثب وراءه فى الخلاء، لعلك، من

طريق التخيل تلاحق جولانا صدمته قسوة الواقع... تلك نشوة مشت فى الخط تنبئك أن أفق الغيب المستغلق دون المؤمن مشغلة دائمة لذوقه.)

* * * * *

وهكذا يكون الإسلام مددا للحضارة، وسندا للفنان أى الإنسان المتحضر. وإذا كان فى الأدب يفقد الكثير حين الترجمة، فإن التشكيل له قدرة على الإقناع والإمتاع عبر حواجز الجنس والمسافة واللسان.

والقرآن الكريم فى توجيه لروائع الخلق: (هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى) (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله.)

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت.)

وفى القرآن الكريم توجيه للنور والظلال: والشمس وضحاها، والقمر اذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها.)

والإبداع الفنى لغة علمية مغروسة فى نفس الإنسان كغرائزه. وبعض الإبداع متاح حتى بغير تعلم... ولكن هناك إبداعاً مشحوناً بمجاهدات روحيه. وهذا مقصور على من وهب.

يعدد الدارسون الفنون بأنها فى الأدب والرسم والنحت والتصوير والموسيقى... وننسى فن الرؤية... فن التلقى... فن البصيرة الذى هو باب من أبوا ب الحياة.

وهذا الباب فتحه القرآن الكريم على مصراعيه فى دعوة دائمة ودائبة للتأمل. والإسلام ربيب الصحراء، خير معين على هذا التأمل.

والإسلام المتحضر الفنان، يدعو إلى الجميل فى العمل والقول حين زكى الحسنة. والحسنة من الحسن. والحسن من الجمال. والعمل الجميل هو الذى يرضى (كل) الإنسان أى ذوقه وعقله ومشاعره.

والشيخ شلتوت يقول (المعروف ماتعارفت عليه الفطر).

ومن هنا جاءت تسمية المنكر.

ولأمر ما تشابهت الحروف أو تماثلت بين الطيب (بفتح الطاء) والطيب (بكسرها) .

إن الحضارة قيمة.

والعمل قيمة فى الخلوص له... والخلوص نقطة لاترى... نقطة تلاقى الكيان الإنسانى بمذخوره، مجمعا، فى سن القلم أو الريشة عند ملامستها للصفحة أو اللوحة.

هنا يكون العمل عطاء قلب... وفيوض روح.

وهذا التفسير للحديث (ان الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) والعمل الحديث يبدو أنه نسى هذا المعنى... إنه يضفى على الإنسان خيرات مادية ولكنه يسلبه إنسانيته.. أى يحوله إلى آلة.

لا استغناء عن الآلة.

لاعودة إلى الوراء.

ولكن كل مانريده هو استئناس تصحيح الآلة.

لقد قتلنا كما يقول هكسلى، «الكرافت» أى الصنعة اليدوية، أى فن توليد الحب.

إننا الآن نشيع اللاحب فى الحياة الحديثة أى «الآلية» الحاسب الاليكترونى حين يحرر الإنسان من الأعمال الصغيرة، مقبول كما حررت المطبعة، المؤلف، من النسخ.

ولكن العقل الاليكترونى حين يلغى عمل الإنسان أو يطغى عليه مرفوض. إن العمل إيمان.

والحضارة فى عصور زهوها، عمل جوده أصحابه لإيمانهم به وتحقيق ذاتهم من خلاله.

إن أزمة الإنسان المعاصر، أن التربية الحديثة عنيت بذهنه دون وجدانه، فعجز عن إيجاد المعادل المعنوى للتقدم العلمى.

إن البحث العلمى الحقيقى تجربة وتجرد. وعصرنا امتاز فى الوسائل من تليفون (مسرة) وبرق، الخ ولكنه يفتقد القيمة التى تتركز فى الدين والفن والفضيلة.

والإسلام قيمة كبرى لعناقه مع الحياة فى ود موصول يطبع حضارته بفنونها وعلومها حتى غدا له طابعا. يقول م. س. ديماند فى كتابه «الفنون الإسلامية»: (يمتاز الفن الإسلامى بتنوع عظيم أصاب نواحيه وأشكاله وصناعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله،

وهذا التنوع بلغ من الشدة حدا يصعب فيه كثيرا أن تجد فيه تحفتين متماثلين ومع ذلك يمتاز بوحدته).

الواحد هو الأصل فى العدد... وفى الكون... والتنوع هو الظاهرة الكبرى فى الطبيعة... والفن الإسلامى لم يعط الصورة إنسانا أو شجرا أو نهرا «كينونه» لأنه اعتبرها ظلالا عابرة فى طريق تطلعه الدائم إلى ماوراء الطبيعة.

إلى الله الواحد.

وحين تمثل الفن الإسلامى هذا المعنى، خرج خلاصة مقطرة للحيوية والحياة.

إن الإسلام يتجاوز بالتوحيد، النطق بالشهادتين، إلى توحيد الذات فلا انفصام ولاتشقق، وتوحيد المجتمع فيبرأ من التشيع والتطاحن، وتوحيد العالم نحو القيمة الكبرى أى الله.

وحين كرم الإسلام، الإنسان، بالحرية والشورى، وإرادة الاختيار، ودعوة التأمل والتفكير، حتى ليقول الأستاذ العقاد (التفكير فريضة اسلامية)... كان أكثر من طقوس كان قيما ومبادئ.

الموسيقى:

هناك بلا شك اختلاف بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية فى العصر الحديث. وهو اختلاف ليس مرجع تفاوت فى الفطرة الإنسانية بدليل وجوده بين الأوربيين أنفسهم إذا قارنا موسيقاهم الحديثة بما سبقها من موسيقاهم القديمة، بل إن الشعوب الأوربية اليوم لاتطرب لما يطرب له خاصتها من الموسيقى العملية المركبة.

لقد كان الأوربيون يتعلمون الأنغام على يد العرب فى الأندلس حتى ظلت أسماء الآلات العربية فى اللغات الأوربية إلى اليوم فكلمه لوت Lute من العود. وكلمة نكرا Maker من النقاره وكلمة de clé أو المفتاح الموسيقى من أقليد، وكلمة Rebec من الرباب بل إن الأستاذ فارمر يقرر سبق العرب إلى نوع من الهرمونية يسمونه التركيب وعنوا به توقيع النغمة الواحدة من عدة طبقات فى وقت واحد.

جاء فى موسوعة مكملان للموسيقى والموسيقيين: أن نيقولا رمسكى كورساكوف Karsakoof أنشأ جماعة لدراسة ربع المقام منذ نيف وعشرين سنة فى لننجراد.

وقد أخذ غير واحد من الموسيقيين الأوربيين فى العصر الحديث بربع المقام فى توزيعاتهم الموسيقية وتوقيعاتهم حتى الأوبرالية وتقسيماتهم المسرحية وغير المسرحية.

ووضع الكندى (٨٠١ - ٨٧٠) وهو من علماء الرياضة، أسسا نظرية للأصوات الموسيقية.

ويمت إلى الموسيقى علم الأصوات الكلامية الذى اخترعه المسلمون عندما حاولوا وضع أسس نطق القرآن بالطريقة التى نطق بها الرسول عليه السلام... ويسمى «علم التجويد». وهو يصف نطق الحروف المختلفة على أساس حركة الهواء فى الفم والحنجرة.

لقد كان سادة أوربا يفخرون بما يقتنونه من قرطبة فى عهدها العربى، من منسوجات أو مصوغات أو آنية فخارية. وإلى قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية كان يتوافد طلاب التحف والترف والموسيقى والغناء بل الدواء أيضا. حتى ليقول المؤرخ الإنجليزى استانلى لاين بول (إن حكم عبد الرحمن الثالث الذى قارب من خمسين عاما أدخل على إسبانيا تجديدا لايلم الخيال - على أجمع مايكون - بحقيقة فحواه).

إن عدد المؤهلين فى العلوم الهندسية الذين هاجروا من الدول الإسلامية إلى أمريكا وأوربا يقدر بحوالى ٣٠ ألفا، وصل بعضهم إلى مراكز قيادية فى أعمال البحوث والتطوير فى بيئتهم الجديدة وهناك ٧٥٤ من هؤلاء المتخصصين ظهرت أسماؤهم فى الطبعة الأخيرة من كتاب (رجال ونساء العلم الأمريكيون) منهم ٣٢١ من الدول العربية و١٦٧ من الهند وباكستان و١٠٦ من إيران وأفغانستان و٧٦ من تركيا. وفى مجالات التخصص منهم ٢٢٦ مهندسا و٣١٣ فى العلوم الطبيعية والبيولوجية و٢٢٥ فى العلوم الطبيعية والرياضيات (ص ٢٥ مجلة العلم والمجتمع عدد ٢٥ ديسمبر ٧٦ - فبراير ١٩٧٧).

وقد جعل الفنانون العرب، المسلمون، من الخط العربى بأنواعه المختلفة من كوفى إلى نسخى ميدانا كبيرا للزخرفة. يقول د. فريد شافعى (أخرجوا من الحروف وأطرافها أشكالا وعناصر من الزخرفة تتجمع فى كلمات وعبارات ينتج منها كلها موضوعات زخرفية ذات إيقاع فنى متناغم وتبرزها وتؤكدها فى أحيان كثيرة عناصر نباتية وهندسية وضعت فى مستوى خلفى منها لتزيد من حسنها وجمالها وزينوا بها منتجات الفنون من عمارة وتحف زخرفية (ص ٢٦٤ - ٢٦٥).

كما ابتكروا من الأشكال الهندسية ألوانا وأنواعا جديدة ألفوا بينها وأنتجوا منها أعدادا لاحصر لها من الوحدات والتكوينات الزخرفية التى تسيطر على المشاعر.

وأنتجوا سجلا حافلا من العناصر النباتية من أوراق وزهور وثمار فى أشكال تجريدية محورة ذات طابع عربى إسلامى فريد.

ولقد بلغ من روعة تلك الابتكارات الزخرفية أن أطلق الفنانون الأوربيون كلمة أرابسك على أية تكوينات زخرفية تتشابك فيها العناصر حتى ولو كانت غير اسلامية.

تتهم الحضارة الإسلامية بمجافاتها لفنى: التمثيل والتصوير، والتصوير هنا المقصود به: الرسم والنحت. ولو حللنا هذا لوجدنا السبب فى معنى المسجد فى الإسلام فالإسلام جعل علاقة الإنسان بالله مباشرة بلا وسيط ولهذا لم يهتم المسلمون بحشد المساجد بالصور والتماثيل حين اعتنوا بالبناء الجميل والقباب الفاخرة والمحاريب. ولاشك أن العرب قد اعتمدوا فى هذا على الأمم التى سبقتهم فى هذه الفنون وهم الفرس والمصريون والروم وأنهم استعانوا بالبنائين من القبط والأرمن فى كثير من العمارات ولكن الذى لاشك فيه أيضا كما يقول الأستاذ العقاد أن الروح العربية كانت وراء اليد الصانعة والمبدعة حتى ليتساءل: (من الذى يتملى منظرا من مناظر القصور العربية ويعزل بينه وبين رشاقة النخلة الهيفاء وخفة الفرس الضامر وهودج الحرم المكنون وتناوب الحياة بين الفضاء والظلال؟ ومن ذا الذى ينظر إلى تلك الأقواس والنوافذ ولايعقد الصلة بينها وبين الحافر تارة والخف تارة أخرى؟ بل من ذا الذى يسمع المقابلة بين المصاريع والقوافى فى الشعر العربى ولايلمح المصدر الذهنى أوحى به ماثلا فى الأنساق والمقابلات أو فى المربعات المتقابلة كما ظهرت فى أول بناء حج إليه العرب وهو البيت الحرام؟).

وقوى نفوذ الفن الإسلامى حتى شاع فى انجلترا فى عهد الملكه اليصابات وما بعده وكانوا يسمونه Arabesque.

بعد هذا يتضح لنا أن العرب لم يجافوا فن الرسم والتصوير بالصورة التى حاول البعض تجسيمها. إن أشعارهم وهى سجل تاريخهم فى الجاهلية حافلة بأوصاف الدمى والعرائس... وإشعارهم فى عهد دولتهم الإسلامية حافلة بأوصاف التصاوير فى الملابس والمبانى وآنية وحلى الزينة وقصور الملوك والأمراء. وقد أحصى المغفور له أحمد تيمور باشا فى كتابه الكبير عن التصوير عند العرب مئات الأبيات التى تدل على انتشار الرسم والنحت فى الآثار الإسلامية وأورد غير قليل من الأسماء العربية التى تفرغ أصحابها لهذا الفن وعكفوا على النقش بل ونحت التماثيل من المعادن والأحجار.

ومهما يكن من أمر فإن أشد الناس تعصبا لايمكنه الإقلال من شأن النتائج الحضارية الخطيرة التى حدثت فى تاريخ البشرية، وترتبت على ظهور محمد النبى (صلى الله عليه وسلم) العربى وعلى قيامه ببث الدعوة إلى الدين الإسلامى وعلى انتشار هذا الدين فى منطقة كبيرة من العالم، فإن ما أحدثه محمد (صلى الله عليه وسلم) بما أتى به من عقيدة وتعاليم يدعو بها الناس إلى عبادة رب واحد عظيم، وإلى خلق قويم، وترشدهم إلى مافيه صلاحهم وصلاح البشرية، وإلى العلم والعدل والشورى... كل ذلك لاشك يعد نقطة تحول هامة فى مجرى حضارات العالم ولايمكن مقارنة هذا الحدث بأى حدث أخر فى تاريخ البشرية.

الإسلام والإعجاز

أعلم أن أفذاذاً من رجال العلم يتحدثون فى وثوق عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم... ولكنى أوثر أن أتكلم عن الإعجاز الفنى فى القرآن الكريم.

والإعجاز الفنى ألوان – إعجاز بلاغى معروف لست فى حاجة إلى تفصيله.

– إعجاز نفسى.

– وإعجاز معنوى.

وما ألزم الأشياء فى عصر العلم الذى استعز بذكاء العقل وحده فأجدبت الروح.

الإعجاز النفسى من نصاعة القرآن أنه طب لجسم الإنسان وروحه معاً ليتواءم الكيان كلا واحداً. إن الصلح مع النفس هو التوحد فلا انقسام ولاتشتت ولا عراك داخلى ولاخوف ينعكس على الخارج فيورث صاحبه الخوف من الآخرين، لأنه، قبلا، خائف فى نفسه... خائف من نفسه... خائف من الناس.

تشكيل التمثال صلح بين كتلة وكتلة.

الوزن فى الشعر انسجام بين شطرى البيت إن السكينة الإسلامية غير الجلَد الرواقى. إنها شئ أكبر... مدد علوى... هو اطمئنان وتواصل لفيض هناءات تهون أمامها الخطوب وتتجدد الرؤى وتشرف النفس من علياء عزها الجديد أمام احتدام الأمور.

إنه ميلاد للنفس يعود به الإنسان من غربته.. يخرج من عذابه أو يعلو عليه.

إن بعض المدن العربية تبلغ نسبة مرضى النفوس فيها ٧٥٪ أى فيها وباء نفسى.

حتى العلاج يزيد الحائرين حيرة لأنه علاج قد يتصل بالعلم وحده ولكن ينقصه الإيمان والعلم على قدره، ليس كل شىء.

إن المستريح فى الغرب بدأ يطرح حيرته.

وحيرة المتقدم أشد وطأة، لأنه وصل إلى الإشباع أما الفاقد فحيرته محدودة... أقصاها: الاقتناء.

ولكن حيرة الإشباع أنه لايجد ذاته وذاته ليست فى السوق.

إنسان الغرب على مسار قرنين من الزمان اكتسب كل شئ إلا نفسه ففى قمة الاكتساء ببريق الخيوط الصناعية وجد نفسه فى قمة العراء والعرى.

لقد حقق الوفرة ولكن ماحققه سيتركه لغيره.

لم يحقق مايبقى له من الأعمال الباقية.

عندما مات الإسكندر أخرجوا يديه من الكفن خاليتين من كل عروض الدنيا التى كان يملكها.

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ومعنى الآية الكريمة أو دلالتها الكبيرة أن المال والبنين **زينة** الحياة وليسا معا **جوهر** الحياة.

الفقير يشقى بالحرمان والمتقدم يشقى بالقلق على ماعنده، إنه الوعى الشقى. وهنا يأتى الإسلام بدعوته الأُخذ بنصيب من الدنيا والعمل للآخرة، إجابة شافية على حيرة الإنسان فى القرن العشرين.

ومن هنا من أراد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام.

يقول «راسل»: (فى عصر العقل نعيش اللامعقول).

الإنسان الغربى غير قادر على تحديد مشكلة لأن مشكلته داخله... ليس من السهل عليه تبينها.

نعم، للحضارة ولكن حضارة من أجل الإنسان. لاحضارة من أجل الأشياء وحدها.

الإنسان يرى التلفزيون الملون المنور وهو معتم من الداخل.

نعم للأسباب الحضارية أى الموضوعية والمنهجية.

المنهج قيمة إذا نظّم الإنسان لا الورق وحده

الإنسان هو الثروة الحقيقية.

الآلة فى يد غيرى ولكن الإنسان أنا

حضارة إنسانية أن يستهل الإسلام فاتحة كتابه الأكبر **بما بين الله والإنسان** دون سائر الموضوعات الكبرى، متوجا هذه العلاقة **بالرحمة** تظلل الإنسان بالطمأنينة من لدن الرحمن الرحيم.

بينما التوراة قلما ذكرت الرحمة... حتى حين ذكرت الرحمة، وردت فى سفر التثنية «السفر الخامس» الذى يعزو، الدكتور فؤاد حسنين، وضعه إلى محاولة إنقاذ مملكة يهوذا، أى أنه مستحدث لغرض. ولهذا يخالف الأسفار السابقة حتى الوصايا العشر، عرضها عرضا جديدا يخالف العرض الآخر الذى ورد فى «سفر الخروج».

والرحمة فى المسيحية تلتمس من الله، ولكنها فى الإسلام وعد من الله، أى أمر محقق كما يقول الدكتور كامل حسين فى كتابه (الذكر الحكيم) أمل مطروح ومفتوح، وهو شعور يزيد فى طمأنينة النفس المسلمة...

آيات الكليات

هناك آيات فى القرآن تسمى آيات الكليات كالفاتحة التى استهلها دون أسمائه الحسنى بالرحمة. توجيها إلى دستور يرشد به المجتمع.

(مالك يوم الدين) أى العالم الآخر. فى هذا اللفظ استقطاب الثواب والعقاب والحساب والجنة والنار فى بلاغة منقطعة النظير.

و(مالك) هذه سيطرة كاملة تامة.

من أجل هذا جعلها قوام الصلاة حتى يقرأها الإنسان فى اليوم ١٧ مرة.

ومن آيات الكليات أية الكرسى.

(الله لا إله إلا هو) (وحدانية)

(الحى) (ومن عداه موقوت يموت)

(القيوم) الذى يقيم كل شئ فهو يحكم ويملكه بالحكم والحكمة والعدل والعلم

(لاتأخذه سنة ولانوم) يقظة دائمة... نوعية مستحيلة على غيره... حتى السنة لاتأخذه.

(له مافى السموات والأرض) (ربوبية)

(من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) (ملك الملوك إله الناس)

(يعلم مابين أيديهم وما خلفهم) (محيط)

(ولايحيطون بشئ من علمه) (كل شئ قاصر أمامه) (إلا بما شاء)

(وسع كرسيه السموات والأرض) (وهو فى كل شئ)

(ولايئوده حفظهما) (قادر)

(وهو العلى) (أعظم الرفعة) (العظيم).

(الإسلام والدنيا):

ومن آياته النفسية أنه دعا إلى عمارة الداخل والخارج... عمارة الروح والجسم.

توهج الإسلام بحب الحياة فاعترف بمتاعها ومتعتها. أقر زينتها وطيباتها وطيوبها. فلا انطوائية ولا قوقعية ولازهد ولاحرمان. زهاده اختيار وأسلوب شخصية.

الإسلام أنيق يحب الجمال والزينة والنظافة. أوجب طهارة الجسم كالروح وزكى الطيب والخضاب، وأباح التزين وأتاح المتعة فى غير حرام، وألزم بالوضوء والاغتسال... فكان نظاما جامعا للدين والدنيا.

ويفرض هذا نصا... وطقسا... ثم بالإيحاء أو الاقتداء حين يبثه فى ثنايا أقوال كثيرة ولكن دون إسراف.

(الاسلام واحترام الانسان):

احترم الإنسان يوم جعل العلاقة بينه وبين الله مباشرة فالمسجد فى الإسلام، كالقلب المفتوح. إنه بيت الله دون حجاب ولا كهانة ولاوسيط وهذه هى سمة الإسلام الكبرى.

رأيت فى أمريكا الصفوف الأولى فى الكنائس للذين دفعوا أكثر ولكن المسجد فى الإسلام الناس فيه سواء من يحضر أولا يقف فى الصف الأول ولو كان خفيراً، ومن يحضر أخيرا يقف فى الصف الأخير ولو كان أميراً.

وبهذا الاحترام الكامل للإنسان، صنع الإسلام حضارته لقاء حميما بين المادة والروح حين غلّبت الحضارات الأخرى أحدهما على الآخر.

ان فى بعض مناطق افريقيا الغربية والجنوبية تقام كنائس للسود وأخرى للبيض وقد وقف عند هذا من كتاب الغرب «باسيل ولش» Basil Willch فى كتابه Religion today كما صور جون روبنسون فى كتابه Christian state in a primitive soceity لم يأبه الإسلام باللون ولكنه اعتد بالثراء الداخلى للإنسان من صفاء الذات ورهافتها وكرامتها.

الإنسان فى الإسلام موضوع وشخصية.

والمجتمع الإسلامى موضوع وتشريع.

والعالم فى الإسلام، رؤية جامعة.

وهو بهذه الأبعاد كلها، حضارة وثقافة وأسلوب شخصية.

دين الرحمة:

إنها رحمة أن يضاعف الإسلام الجزاء فى الحسنة ويقصره على المثل فى السيئة.

(لايحب المفسدين) قمة الرقة فى العتاب أو الحض على الاجتناب ومن هنا أو من وحى هذه الآية كان الإمام أحمد بن حنبل يتورع أن يقول حرام بل كان يقول: (هذا لاأحبه).

مهما تحرر العقل لايمكن أن يصل إلى ما فيه من العطاء... مافى القرآن الكريم

أمر بالبشر لأن عطاء الوجه قد يفوق عطاء اليد.

وأمر بحسن الاستماع فإن الإصغاء لون من الكرم النفسى إنه استقبال رأى.

أمر بإعلان الشهادة فإن نصرة الحق شجاعة دونها انتضاء السيوف.

هذا هو إنسان الدين... إن حياة الروح والقيم هى التى تمنح بهجة الرؤية حين يحصل للغريزة تشكيل متسام.

إن الروح تحرر أولئك الذين يثابرون عليها من سجن العاطفة الشخصية التى تعكف على الاهتمامات الدنيا.

هذه الرؤية تمنح الحرية والجمال والحب لأفكار الإنسان ولعلاقته بالآخرين.

إنها تهيئ الحلول بشروقها.

إنها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة وترد الشارد إلى مكانه من حياة الإنسان.

لقد كان «نيتشه» غريزة قوية وعقلا جباراً ولكنه افتقد لمسة الروح فقضى سنيّه العشر الأخيرة فى مستشفى للأمراض العصبية.

«نيتشه» كأسلوب شعرى ممتاز، مقبول ولكن كأسلوب تفكير يقسم الناس إلى سادة وعبيد، مرفوض.

إن مشكلة فلسطين لاتحتاج إلى ذكاء يدرك عدالتها ومع هذا هى مشغلة الأذكياء من أقطاب العصر لأنهم أذكياء العقل لا القلب والروح.

الدين والفرد:

إن أزمة الإنسان المعاصر أنه أبعد من الصورة. أصبح إنسانا نمطياً. ولايميز إنسان عن إنسان إلا صفة فريدة فيه. والدين هو الميزان المضاد للعقلية الحشرية والحشدية. إن الحركات الحشدية اجتماعية وسياسية تحاول سحب السجادة من تحت قدميه. إن اعتماد الإنسان على «الله» يشد الإنسان إلى سلطة أخرى غير سلطة الدنيا. ودون مسئولية الفرد أمام «الله» تصبح الأخلاق أمورا تواضعيه... قوانين تقبل التحايل.

ولاتوجد حضارة بلا ديانة. وعندما يوجد الشك فهو دليل الانحلال. وفى الانحلال تشتد الحاجة إلى الدين وليس مصادفة أن يتنبأ أندريه مالرو وزير الثقافة الفرنسى فى عهد ديجول أن موضوع القرن الحادى والعشرين سيكون: «**الدين**» وهنا تكون العودة الى الشرق.

الدين والحضارة الغربية:

اعتمدت الحضارة الغربية على الذكاء وحده واستعزت به وحده فأجدبت الروح، أجدبت النفس.

وممن نقدوا الحضارة الغربية «برناردشو» فى كتابه (دليل المرأة الذكية)، و«ديوى» فى كتابه عن الفردية القديمة والحديثة Individualism old and new الذى أشار فيه إلى التشقق فى النفس الأمريكية، و Alexes Karelle الفرنسى فى كتابه (الإنسان ذلك المجهول). أما يونج فى كتابه .The Undiscovered self فقد أوضح فيه أن خلاص العالم منه خلاص النفس. ويقول يونج: (إن خلاص العالم منه خلاص النفس لم يعد العالم مهدداً بالكوارث الطبيعية أو الأوبئة ولكن بالتغيرات السيكولوجية إن أى اختلال يصيب التوازن فى رأس حاكم (من دول الڤيتو) يلقى العالم فى بحر من الدماء).

ويونج فى الفصل الرابع من كتابه يقول إن من المذهل حقا أن الفرد الذى أبدع واخترع وخطط لايفهم نفسه. لايدرك قيمة نفسه حتى ليقال إن الإنسان لغز نفسه.

وكما احتاج خطؤنا لادراك وجه الصواب فى المجموعة الشمسية إلى علم عظيم فإننا لكى نفهم أنفسنا، فى حاجة إلى علم وعالم عظيم.

الإعجاز المعنوى

ومن آياته اعـترافه بالكتب السماوية قـبله فى صـورتهـا الأولى كما أنزلت، قبل أن يمسها تغيير من أى حجم وصفة. وغير هذا عنصرية اليهود... إنها قبلية هابطة فأن يكون الله إلههم وحدهم وأن يكونوا هم شعبه المختار وغيرهم شعبه المحتار، نظرة طبقية قبلية منافية للإنسانية حين سوى الإسلام بين الناس.

وحين خلقهم شعوبا وقبائل فلكى يتعارفوا وجعل الأفضلية للتقوى وحدها والأكثر نفعا لا للڤيتو.

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

ومن الحديث (خير الناس أنفعهم للناس)

واعـتراف الإسـلام بالأديان الأخرى كـما أسلفـت نـقـاء يقفل البـاب أمـام الـردة عـنه.

إن الاعـتراف بالأديان الأخرى حظ كبير ينفرد به ونبعة تسامح تحفظ عليه بشره وقوته وسط شتى الظروف وهو سر من أسرار قوته.

الإسلام والحضارات:

إعجاز الإسلام فى اعترافه بالحضارات كالأديان. وهو وثوق وتفتح وانفتاح. لم يدع ولم يهدد ولم يبدد بل حفظ، وصان، وأضاف، وتبادل الأخذ والعطاء فى انفتاح وانفساح ورضا... ألان صلابة العناد وأذاب رهبة الخوف أو التهيب أو التحفظ على أقل التقدير. بل من سماحته وعالميته أن اعتبر نفسه دولة عامة يقوم بها المسلمون جميعا حتى عاصمته السياسية سرعان ما انتقلت من موطنه الأصلى إلى الأوطان الأخرى فهى دمشق وهى بغداد وهى القاهرة.

لقد خرج هولاكو من صحراء فدمر.

وخرج الإسلام من صحراء فعمر وجعل لها دولة وثقافة وحضارة.

الفرق هو الإسلام.

حضارة استرعت أنظار الناس من غير المسلمين منذ مايقرب من ألف سنة حتى أشد الحانقين عليها وهو رينان لم يلبث أن قال: (ما دخلت مسجداً قط إلا تملكنى انفعال شديد وهو لو أفصحت عنه نوع من الأسف على أنى لم أكن مسلما).

إن النتائج الحضارية الخطيرة التى حدثت فى تاريخ البشرية، وترتبت على ظهور «محمد» النبى العربى، وعلى قيامه ببث الدعوة إلى الدين الإسلامى وعلى انتشار هذا الدين فى منطقة كبيرة من العالم.

هذه النتائج تعد بلا شك نقطة تحول هامة فى مجرى حضارات العالم.

ولايمكن مقارنة هذا الحدث بأى حدث آخر فى تاريخ البشرية. لقد لبثت أوربا فى طور التخرج والنقل حين أخذوا عن العرب أكثر مما لبث العرب فى هذا الطور حينما أخذوا عن اليونان.

قوة الإسلام الذاتية:

تتمثل فى تزايد الإسلام اليوم على الرغم مما عليه حال المسلمين دولا وشعوبا، من ضعف يبلغ فى بعض المواقع إلى قهر... ومع هذا يدخل فى الإسلام حتى أولئك الذين ينتمون إلى عالم الأقوياء.

يدخل فى الإسلام اليوم، أوربيون وأمريكيون ومن بين الصفوة فى الغربيين مثل «موريس بوكاى» و«جارودى» وغيرهما من الأفذاذ.

أما أفريقيا فعلى الرغم من انتشار الإرساليات التبشيرية بها فإن الاسلام يسرى فيها حتى يقدر بعض الباحثين أنها، قارة الإسلام فى القرن الحادى والعشرين.

إذاً هى قوة الإسلام الذاتية فواقعنا لايمكن أن يشكل قوة جذب لأهل الأديان الأخرى ولكنه، **وحده**، الإسلام.

(الإسلام... والتبشير والاستشراق) :

أن ينتصر «الرسول» بما هو نبى الإسلام على المشركين، وأن ينتصر «أبو بكر» على المرتدين، وأن ينتصر «عمر بن الخطاب» على الأباطرة والقياصرة كسب كبير وحاسم للإسلام فى القديم. ولكن أن يصمد الإسلام فى العصر الوسيط والحديث للاستشراق والتبشير، قوة ذاتية فى داخله تحسب له حتى قال لورانس براون سافرا: (الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام، وفى قوته الذاتية. إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى).

وتقول مجلة العالم الإسلامى الإنجليزية: (إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى. ولهذا الخوف أسباب منها: إن الإسلام منذ أن ظهر فى مكة لم يضعف عدديا، بل دائما فى ازدياد واتساع ثم إن الإسلام ليس دينا فحسب بل هو نظام اجتماعى).

القرآن الكريم ثبت أربعة عشر قرنا:

إنه الآن ينتشر بين العلماء الغربيين وإن تكتم البعض Nous sommes a la maison de Arkum.[1] . ومن الغريب أنه يتقدم وأهله ليسوا فى المقدمة.

إذاً فقوته ذاتية.

ماذا نعرف عن عالم النمل أو النحل أو النبات أو الحيوان أو الطيور؟

إن فضائل علوم الحياة، الإيمان بالقوة الأعظم التى تعطى من الطين الوردة والعنبة... القوة المعجزة:

التى تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى.

يعلق القشيرى على تعريفات الباحثين لأى معنى من المعانى بقوله (كلٌ تكلمَ بما سَنَحَ له) أى الحقيقة الكبرى علمها عند الله أى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا).

العلم الحديث يهتم بالمحسوسات التى تخضع للقياس ولكنه عاجز عن تعريف الإنسان كما هو، وعن العوالم الخارجية التى لاتخضع للقياس كالنفس، والروح، والشعور.

العلم الحديث حين ينتفع بالطبيعة يتكشف مافى الأشياء ولكنه لايحول الأشياء... تستطيع أن تتغلب على ضعف البصر بأن تلبس نظارة ولكنك لاتستطيع أن تغير حدقة العين.

واليوم نريد حضارة جديدة فيها إنسانية الإنسان وكونية الكون وقدسية الروح.

الرحمن خلق الإنسان علمه البيان.

ليس البيان اللغوى وحده ولكن كل مايبين عن النفس والكون.

العلوم بيان... الفنون بيان.

---

(١) إشارة إلى بداية الإسلام حين كان المؤمنون يعبدون الله سراً فى دار الأرقم اتقاء لقريش.

المدارس الدينية فى الإسلام (الشافعية – المالكية – الحنفية) كانت تدرس مع علوم الدين: الفلك – الهندسة

وهى رؤية فى العلاقات المتجانسة بين العلم والدين والفن يسمونها (العلاقات الفاضلة).

العلم حوار بين الإنسان وبيئته ونفسه.

العلم بحث عن كيفية الحدوث.

العلم استطلاع دقائق الخلق بتوفيق من الخالق.

يشرح الغزالى فى (مشكاة الأنوار) الآية (الله نور السموات والأرض) أى به تُرَى السموات والأرض.

وهذا يسوقنا إلى مفهوم: أن المدرك العلمي للألفاظ جانب واحد من استعمال اللغة. ويبقى المدرك الفنى والمدرك النفسى... يبقى المدرك الدينى.

يقول هوايت هد فى كتابه Science & Modern World ربما إذا تشككنا فيما إذا كان التاريخ يتقدم بالبشرية أم لا فإن شيئا واحدا مؤكداً يؤكد التقدم هو: الدين.

العلم الحديث قام بدافع السيطرة لهذا أثمر القوة ولم يثمر الرحمة... اهتم بالسرعة ولم يهتم «بالكينونة». زهوه كله أن يكون الإنسان بعد زمن قصير قد عبر البحر أو صعد السماء ولكنه لم يهتم أن (يكون).

الإنسان العصرى إنسان مختزل.

مختصر إنسان.

ولكن الإنسان بالوعى الدينى عنده حضور شامل لكيانه كله فى تناسق وتكامل يعطى عطاءه كاملا. ولأمر ما قال الإمام الغزالى بالعلوم القلبية.

فى مؤتمر الفن الإسلامى بلندن عام ١٩٧٦ قال النقاد الفنيون فى شبه إجماع إن الفن الإسلامى على اختلاف أوطانه متشابه وعزوا هذا التشابه إلى الخط العربى.

الفن الإسلامى يشده بعضه إلى بعض رباط بلاشك والعنصر الرائع الذى يربط عطاءات الفن الإسلامى فى أوطان عدة إنما هو **الفكر الإسلامى** ثم تجئ الكتابة العربية فتستوعبه.

وفى هذه المرحلة وصلوا فى كل حقل من حقول العلم إلى مستوى أعلى ودفعوا الفروع العلمية نحو مزيد من التخصص.. ووضعوا كثيرا من المصطلحات العلمية الجديدة كما أنهم وضعوا حجر الأساس لفروع علمية جديدة تماما نذكر منها:

علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وعلم النحو والصرف والبلاغة.

وأخيرا فان العالم مدين لأولئك الباحثين العرب القدامى باعتماد التجربة كوسيلة للبحث العلمى تطبق بصورة منهجية.

ويشير المقال إلى رحلة قام بها **سبعون جغرافيا مسلما** فى بداية القرن التاسع الميلادى استغرقت عدة سنوات وأسفرت هذه الرحلة العلمية عن **وضع خريطة للعالم** تعتبر بالنسبة إلى ذلك الوقت **ذات دقة عالية** يعرضها معهد فرانكفورت بعد أن حولها بطريقة فنية بارعة إلى مجسم على شكل كرة أرضية.

وتحتوى مجموعة فرانكفورت الثمينة على كثير من الأشياء التى تبرهن على أن **العلوم والتقنية العربية كانت قد بلغت أوجها فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تغط فى سبات عميق.**

وكل قاعة من قاعات المتحف تضم فى جنباتها كثيراً من المفاجآت.

فبعض الأجهزة البالغ عددها نحو ٥٠٠٠ جهاز (خمسة آلاف) والتى كان قد اخترعها علماء الطبيعة أو الطب أو الفلك **تشبه حتى فى أدق أجزائها النماذج التى صنعها الباحثون الأوربيون فى مطلع العصور الحديثة وإن كانت اقدم منها بكثير.**

وهكذا تم البرهان على أن العالم الفلكى الدانمركى الشهير **«تيخوبراهه»** قد سرق -هذه عبارة سيلفستر فوهلر- الإنتاج الفكرى لمن سبقه وأن **كوبر نيكوس** قد استخدم **عملا سابقا قام به عالم فارسى فى القرن الرابع عشر.**

اما الدرة اليتيمة فى مجموعة معهد فرانكفورت فهى **ساعة مائية صنعت فى القرن الرابع عشر عبارة عن خزانة مزينة بزخارف فنية جميله** وفى داخلها ساعة تديرها قطرات من الماء تتساقط عليها بشكل متواصل.

لقد أشاد الاسلام بالعلم والعلماء حتى ليقول «موريس بوكاى» (لقد اتخذ العلم لاول مرة صفة عالمية فى جامعات العصر الوسيط الإسلامية) كتابه: (دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة).

العلم أحد أركان الحضارة التى تقوم على:

الدين – الفن – والعلم – والعمل – والمال.

وقد زكاها جميعا الإسلام ودعا إلى رعايتها رعاية جامعة متوازنة يثرى بها الإنسان فى شمول: روحه وجسمه معا فى توفيق دقيق وحقيق.

وقد طرحت الحضارة الإسلامية فى مجالات العلم والفن طرحا وافرا وزاهرا.

استشهد فى باب العلم بمجلة Deutsch Land الالمانية العدد ٩٥/٤٢ فقد كتب «سلفستر فوهلر» مقالا بعنوان (التاريخ الحقيقى للعلوم العربية) أشار فيه إلى أن المستشرق فؤاد سركين وصل الآن إلى كتابة المجلد الثانى عشر من أصل عشرين مجلدا ينوى كتابتها عن «تاريخ المؤلفات العربية».

وكان هذا العالم التركى الأصل يهتم منذ وقت مبكر – عندما كان تلميذا للمستشرق الألمانى المشهور هيلموت ريتر – بمسألة نشر التاريخ الحقيقى للعلوم العربية وتأثيرها على بلاد الغرب.

وفى الطرف الغربى من مدينة فرانكفورت تقوم مؤسسة بحثية... معهد دولى متخصص بتاريخ العلوم العربية والإسلامية.

ويشير المقال إلى عصر الترجمة إلى العربية من اليونانية والفارسية والسنسكريتية يقول سيلفستر فوهلر: (بعد مرحلة الجمع والاطلاع التى استغرقت نحو مائتى عام تمكن العلماء العرب خلالها من دراسة المعارف العلمية التى كانت موجودة فى العالم آنذاك.

بدأت مرحلة الإبداع والتأليف فى صفوف العلماء العرب.

لم يعاد الإسلام حضارة من الحضارات...

لم يتدخل فى العادات والتقاليد وأسلوب العيش والعقائد. لقد رفض عمر رضى الله عنه، وقد حضرته الصلاة أن يصلى فى كنيسة القيامة حتى لايفعلها المسلمون، بعده.

إن الإسلام قيمة كبرى لعناقه مع الحياة فى ود موصول يطبع حضارته بفنونها وعلومها حتى غدا له طابعا.

وفى العلم أعطى الإسلام، الحضارة الإنسانية:

* **الكندى** مؤسس نظرية الأصوات الموسيقية على قاعدة نطق الحروف المختلفة على أساس حركة الهواء فى الفم والحنجرة.
* **محمد بن موسى الخوارزمى** فى الجبر.
* **الشيرازى** (١٢٣٦ - ١٣١١) أول من فسر قوس قزح بأنه نتيجة لانكسار أشعة الشمس داخل قطرات الماء المعلقة فى الهواء.
* **الفازارى** الذى اخترع «الاصطرلاب» وهو جهاز فلكى قديم، أمثلة فحسب.

إن القرآن ليس للتبرك إنه روح الثقافة الإسلامية.

عصرنا اعتد واعتز بالعلم أى الذهن وحده وقبض الثمن الثروة والقوة ولكنه خسر نفسه وفقد الأسلوب. والنفس هى، الأسلوب.

مع كل تقدمنا فى الطب

مع كل تقدمنا فى التكنولوجيا

مع كل اهتمامنا بالحياة والموت، اخترعنا آلات دمار مروعة تستطيع فى دقائق أن تفنى الجنس البشرى... لأن العلم لم يقترن بإنسانية الدين فتحول تفتيت الذرة لخدمة العلم إلى نوع من القسوة فإذا بها تنتهى إلى القنبلة الذرية.

إن حضارة الغرب تدرس الأشياء لا الإنسان ولهذا لم يكتشف الإنسان إلى اليوم. إن مجرد وجود علم النفس دليل على أزمة الإنسان المعاصر المتشقق نفسيا.

ولذلك يجدر بنا عندما نتكلم عن (روح العصر) أن ندرك أن روح العصر هذه لها بُعدان فى الزمان والمكان فروح العصر فى الغرب عدمية تحطيمية ولكن فى الشرق شئ آخر... تفاؤل وإيمان وإحساس بالتاريخ وبالقيمة... إنسان الغرب فى حاجة إلى روح وهو ما أراد مونج أن يقوله فى كتابه Modern Man in Search for a Soul الذى ألفه فى الثلاثينات.

الدين حرية

الإنسان لايكون حرا حقاً إلا إذا كان عنده خبرة دينية ناضجة وهذا عكس مايظن البعض ممن يدعون أنفسهم أحرارا أى خارجين على الدين أو متخففين منه على الأقل.

حتى كلمة (عبد) فى الإسلام منتهى الحرية لأن عبد الله ينتفى معها أن يكون عبداً لغيره.

إن الإنسان المتكامل = خبرة دينية + خبرة علمية + خبرة خلقية + خبرة فنية

خبرات ناضجة لتعطى عطاءها معا فتكتمل الصورة.

لقد صنع القرآن الكريم أربعة عشر قرنا بما فيها من اجتماعيات وسياسات.

كتاب فجر كتباً بل مكتبات.

وتتمزق الأمة الإسلامية من الفرقة والتشتت والهوى والخطأ والخطايا... أحيانا... ثم لاتموت لأن هناك شيئا خفيا وقويا يربطها فلا تضيع ويمسكها فلا تتهاوى... هذا الرباط الخفى القوى هو القرآن... وقد لايعرف الناس هذا ولكنه واقعهم وحظهم الكبير.

(الإسلام والعلوم الحديثة)

(ومع هذا) يقول موريس بوكاى قبل أن يسلم (تناولت القرآن منتبها بشكل خاص إلى الوصف الذى يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية. لقد أذهلتنى دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهى تفاصيل لايمكن أن تدرك إلا فى النص الأصلى... أذهلتنى مطابقتها للمفاهيم التى تملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات والتى لم يكن ممكنا لأى إنسان فى عصر «محمد» (صلى الله عليه وسلم) أن يكون له عنها أدنى فكرة.

إن أول مايثير الدهشة فى روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق وعلم الفلك وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعالم الحيوان، وعالم النبات، والتناسل الإنسانى وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية ضخمة، لاتكشف فى القرآن أى خطأ. وقد دفعنى ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنسانا، كيف استطاع فى القرن السابع من العصر المسيحى أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد

بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية فى العصر الذى كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير Dagobert D. Runes استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالى عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات)

ويقول:

(ومن الثابت فعلا أن فترة تنزيل القرآن، أى تلك التى تمتد على عشرين عاما تقريبا قبل وبعد عام الهجرة (٦٢٢م) كانت المعارف العلمية فى مرحلة ركود منذ عدة قرون).

بل إن موريس بوكاى يعلق أهمية خاصة على المسائل العلمية التى لم يثرها القرآن (فما يحتويه هام... وما لايحتويه هام أيضا... فهو لايحتوى فى الواقع على ذكر النظريات التى أثبت العلم فيما بعد عدم صحتها. ولابد من التنويه بهذا الجانب ذى الطابع السلبى).

وفى نهاية المطاف: أؤكد على:

العودة إلى الدين الصحيح أى الجوهر...

التكامل النفسى والإنسانى أى **الجمع بين الدين والعلم والفن والفكرة فى وحدة.**

فكل منها قوة وثراء

ومجموعها غاية الإيمان الراشد فالمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف.

والتفكير فريضة إسلامية

ويوم جمع الإسلام بينها فى ترابط وفهم وعمل صارت له دولة وثقافة وحضارة وحضور يملك الكلمة والقرار.

نريد شخصية إسلامية تتمثل فى مجتمع إسلامى وفكر إسلامى واقتصاد إسلامى.

نتمنى أن يقترن الإسلام فى ذهن المسلمين بالعلم كعصور حضارته وكما هو مذكور فى كتابه من دعوة دائمة إلى العلم والكشف والتأمل.

دراسة التراث الإسلامى دراسة مضنية واسعة الأفق تعمد إلى **تنقيته وتخليصه من الحشود والتزايدات والتهويمات والتهويلات** التى تشوهه عامدة.

ثم دراسة مايزال مخطوطا وتيسيره للنفع العام.

نريد تمثل التراث المعنوى للإسلام وهو شئ آخر غير إحياء التراث المادى هو تحرير معنوى يعين على إعادة بناء الشخصية الإسلامية مستمدة من قيم الإسلام التى غابت عنا.

نحن نحتاج إلى تجميع الذات الإسلامية علميا واقتصاديا وفكريا واجتماعيا فى عملية مسح إحصائى شامل...

نحتاج إلى **بنك معلومات إسلامى**.

تتدارسها البلاد الإسلامية وندرسها فى المدارس والمعاهد وتكون خطة عمل لحكوماتها.

هذا هو المعراج فى محاولة للحل.

الإسلام والفنون فى البلاد الإسلامية

العمارة عمار واستقرار. والإسلام يحب العمار (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه).

والإسلام يحب البناء حتى ليشبه به تماسك المجتمع الإسلامى (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا). **بنى الإنسان بالقيم الكريمة.. وبنى المكان بالمدن الكبيرة... حتى الجنة فيه: (غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار).**

وقد اهتم الإسلام **ببناء المساجد وجعل عمارة البيت الحرام مرقى من مراقى القربى** إلى الله تعالى.

(انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر).

ومسجد المدينة كان الرسول يعمل بيده فى بنائه مع الصحابة والمسلمين تكريما للدين، وتكريما للعمل، وتكريما للبناء الذى يضيف ويرفع، حين يحطم الهدم، ماديا ونفسيا.

وقد كيف الإسلام، عمارة المسجد من حيث:

- **الفراغ المعمارى.**
- **الارتفاع.**
- **الزخرفة.**

وفى المعبد الفرعونى يتجه الفراغ إلى نقطة محددة من بهو الأعمدة... إلى قدس الأقداس.

وفى الكنيسة المسيحية يتجه المصلون إلى الهيكل.

وفى المسجد الفراغ رأسى يربطه بالسماء كما فى المئذنة وأفقى يربطه بمكة.

إن إيثار الإسلام للمساواة واحتفاله بها، وتأكيده عليها، انعكس على العمارة الإسلامية فمالت إلى الأفقية التى تحمل معنى المساواة حين تعين

«الرأسية» على التفاوت و«ترفع» الارتفاع وشموخه. ولهذا يقوم نظام النسب فى الإسلام كما يقول العالم الأثرى الاسبانى «دون مانويل جومث مورينو» على أساس الوضع الأفقى وكأنه تحية لروعة الخلق الإلهى فى البحر والسهل... وكأنه تأكيد لصفوف المؤمنين فى المسجد حين الصلاة. ولايستثنى من الأفقية الإسلامية المحببة إلى الفنان المسلم، إلا المئذنة لحاجة الدين إلى انتشار دعوة الآذان على مساحة واسعة لإقامة الصلاة أحد أركان الدين الخمسة ولايتحقق الانتشار المنشود إلا إذا انطلق الصوت طليقا من ارتفاع.

حتى مايخرج عن «الأفقية» من الأشكال، يطوعه الفنان المسلم لها. وإن كانت المآذن المصرية أمعنت فى الارتفاع بالوراثة المعمارية التى رفعت من قديم المسلة ففى داخل كل مئذنة، مسلة، على تفاوت.

يقول الدكتور عبد العزيز سالم(١) إن الفنان المسلم (حين يخطط زوايا، يؤثر المنفرجة لأن الزاوية القائمة شكل من أشكال الارتفاع، وحين يبرز استدارات فإنه يطوقها بإطار مربع، وحين يقيم قبابا، فإنه يهتم بتصغير نسبها حتى لاتفسد أفقية البناء، بل يوزع تكورها على نصوص، أو يقضى عليه بأن يستبدل به تقاطع العقود، أو يهبط به الى مستوى القبوات).

وينعكس مبدأ المساواة فى الإسلام، مرة أخرى، على العمارة الإسلامية، فى ميل المعمارى المسلم إلى السقوف المنخفضة المتمثلة فى المساجد الأولى كجامع المدينة والجامع العتيق بالفسطاط الذى يحكى المقريزى أنه كان منخفضا حتى عبد الوليد ابن عبد الملك حين قام عبد الله بن عبد الملك برفعه سنة ٨٩ هـ. بل إن المقرى فى «نفح الطيب» يحكى أن جامع قرطبة الذى أقيم بعد الفتح الإسلامى سنة ٩١ هـ، كان يصعب على المصلين به القيام على اعتدال لتقارب هذه الأسقف من الأرض (جـ ٢ ص ٩٦) وظل هذا طابع المساجد فى دولة الإسلام حتى القرن الثالث الهجرى فإن جامع ابن طولون فى القطائع الذى أقيم سنة ٢٦٥هـ كان ارتفاع مسطحه لايزيد على عشرة أمتار عن أرضية المسجد.

وما لبثت مصر أن عملت على تصعيد الارتفاع فى المسجد بوراثاتها القديمة... ويتجلى ميل مصر إلى السمو فى الأعمدة والأسقف فى جامع السلطان حسن حتى ليسميه أساتذة العمارة من المستشرقين هرما إسلاميا.

---

(١) كتاب (القيم الجمالية فى فن العمارة الاسلامية) للدكتور عبد العزيز سالم.

لقد قاربت المساواة فى الاسلام بين المسلمين، وقربت بين الفنون الإسلامية. فى مؤتمر الفن الإسلامى بلندن فى عام ١٩٧٦، قال النقاد الفنيون فى شبه إجماع، إن الفن الإسلامى على اختلاف أوطانه، متشابه، وعزوا هذا التشابه إلى الخط العربى.

احترم الإسلام عقل الإنسان، وطب الإسلام لروح الإنسان ووجدانه معا... ومن هذا موقف الإسلام من الفن.

كانت صفات الله وأسماء الخالق المبدع أمام عمل الفنانين ووجداناتهم وأحاسيسهم فإنتاجاتهم الفنية محملة بهذا الإحساس القدسى، روية من التوحيد والتنزيه لله... حتى وقف العالم الفرنسى Bourgoin برجوان طويلا عند الفن الإسلامى.

فى الفن الإسلامى حسن الحوار والجوار الذى أوصى به الدين الإسلامى فى الفن الإسلامى تجمع يهوى الترابط أو انبثاق يهوى الإشعاع (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) المللك ٥.

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا... وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) يونس ٥.

ويأتى الزجاج المعشق عنصرا من عناصر اللون الغنى بتأثيره الجمالى فى العمارة الإسلامية فلعبت الاشعاعات الضوئية النافذة إلى الداخل، عبر اللوحات الزجاجية ذات الألوان لتكون قيما جمالية بتعدد صورها حسب شدة الإضاءة الطبيعية وتغيرها تبعا للتوقيت اليومى... وحالة السماء.

أى لون فى حركة دائمة أو حركة ملونة.

اللون فى القرآن الكريم، له صور شتى.

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها... ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها... وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه) فاطر ٢٧ – ٢٨.

السماء... الماء... النبات... الجبال... الناس.... الدواب الأنعام... ألوان ألوان...

وعشق الفنان المسلم الألوان: المصرى من طول العهد بالزراعة واللون الأخضر أغنى الألوان فى الطبيعة... والعربى من طول العهد باللون الأصفر فى الصحراء فأقبل على الألوان فى ولع يشتهى التعويض.

والإسلام قيمة كبرى لعناقه مع الحياة فى ود موصول يطبع حضارته بفنونها وعلومها حتى غدا، له، طابعا. يقول م. س. ديماند فى كتابه (الفنون الإسلامية) :

(يمتاز الفن الإسلامى بتنوع عظيم أصاب نواحيه وأشكاله وصناعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله، وهذا التنوع بلغ من الشدة حدا يصعب فيه كثيرا أن نجد تحفتين متماثلتين ومع ذلك يمتاز بوحدته.)

وقد وقف العالم الفرنسى برجوان، طويلا عند الفن الإسلامى.

وقيل عن ليوناردو دافنشى أنه كان يقضى وقتا طويلا فى تأمل رسم هذه الزخارف الهندسية الإسلامية.

لقد قاربت المساواة فى الإسلام بين المسلمين، وقربت بين الفنون الإسلامية. حدث فى مؤتمر الفن الإسلامى بلندن سنة ١٩٧٦، أن قال النقاد الفنيون فى شبه إجماع، إن الفن الإسلامى على اختلاف أوطانه، متشابه، وعزوا هذا التشابه إلى الخط العربى.

الفن الإسلامى يشده بعضه إلى بعض، رباط بلا شك، ولكن العنصر الرائع الذى يربط عطاءات الفن الإسلامى فى أوطان عدة، إنما **هو الفكر الإسلامى** إنما هو روح **الإسلام** من مساواة وحرية وسماحة وتوحيد... ثم تجئ الكتابة العربية فتستوعبه...

وقوى نفوذ الفن الإسلامى حتى شاع فى انجلترا فى عهد الملكة اليصابات وما بعده وكانوا يسمونه أرابيسك.

لايعرف الإسلام الهدم فى أى صورة.

الإسلام **بناء وتقدم**... أى حضارة.

بنى الإنسان بالقيم الكريمة.. وبنى المكان بالمدن الكبيرة... حتى الجنة فيه (غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار).

والإسلام يحب البناء حتى ليشبه به تماسك المجتمع الإسلامى (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا).

إن من يعمر المساجد فذلك مرقى من مراقى القربى إلى الله تعالى:

(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر).

ومسجد المدينة كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعمل بيده فى بنائه مع الصحابة والمسلمين تكريما للدين، وتكريما للعمل، وتكريما للبناء الذى يضيف ويرفع، حين يحطم الهدم ماديا ونفسيا.

كيَّف الإسلام بروحه وتعاليمه، العمارة الإسلامية فالقبة فى المسجد الإسلامى مظلة رضوان... وهى تميل فى فارس إلى التثمين متأثرة بالآية:

(ويحمل عرش ربك فوقهم، يومئذ، ثمانية).

الفن الإسلامى له رؤية **ثم يتنوع بتعدد الإنسان** الخلاق الذى يحترم الإسلام حريته.

كرم الإسلام الأم والأب فارتفع فيه معنى الأسرة وكرم الإنسان فارتفع فيه معنى السر والستر.

ومن هنا **احتفل الفن الإسلامى بالباب فنقشه ونمنمه بما يقفل على أسرار مصونة**، ويفتح على **عالم سعيد**، أسرة... أب وأم وأبناء.

الباب الإسلامى معمور... **إنه بستان نباتى ملتف الأغصان تحف به النجوم إشارة إلى وحدة الكون واستضاءته بفضل الأصل الواحد.**

* * * * *

حبب الإسلام الحجاب بما فيه من ذاتية وخصوصية وانعكس هذا على طراز عمارة البيت الإسلامى الذى يفتح على الداخل لا الخارج... والذى تشكل نوافذه مشربيات حاجبة... حتى حديقته ونافورته تقوم فى الداخل حتى يستقل أصحابه بما حوى.

هذا حين يدخل الجميع من باب المسجد لأنه بيت الله إله الناس...

تساووا فلا أنساب فيها تفاوت ∴ لديك ولا الأقدار مختلفات

كيف الإسلام بروحه وتعاليمه العمارة الإسلامية. كما أسلفت، يقول الدكتور فريد شافعى(١) (الدين قد يستخدم العمارة والفنون للتأثير على الناس، أو يستخدمها هؤلاء للتعبير عن شعورهم نحو دينهم). ص ٢٣١.

وقد عدد الدكتور فريد المؤثرات التى تكيف العمارة فى أى مكان.. من تلك العوامل: النظم السياسية – الحالة الاقتصادية – البيئة المناخية – الطبيعة الجغرافية – التكوينات الجيولوجية.

وقد خضعت العمارة الإسلامية لهذه العوامل فى نشأتها وتطوراتها خاصة فى مصر حلقة الوصل بين الشرق والغرب... ويؤكد الدكتور فريد أن العمارة الإسلامية فى المسجد نمت نموا محليا جعلها تختلف فى وحداتها، وفى نسبها، وأحجامها، عما يقابلها فى البلاد الإسلامية.

إننا نلاحظ فى المسجد المصرى، كالمعبد المصرى: **الممر الضيق الطويل يخرج منه السائر إلى الرحابة الرحبة فى البناء، وفى المكان.**

هل يوفر الفنان للمكان، **عنصر المفاجأة؟ عنصر الدهشة الجمالية؟**

هل هو درس نفسى أن **الضيق بعده فرج**؟ هل هو ترديد للآية: **(إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا)**. هل هو تحضير للدخول؟

تحضير للنفس وتحضير للصمت يفتح بعدها المكان قلبه وذراعيه؟ وينشرح الصدر وكأن الزائر مسلم.

وبعد الممر ينفتح المسجد على الصحن كما كان ينفتح المعبد على بهو الأعمدة. وتقابل الميضة فى المسجد، بحيرة الاغتسال فى المعبد ويقابل المحراب والمنبر فى المسجد قدس الأقداس فى المعبد، إن القبة هى الترجمة الإسلامية للهرم... ترفق الخط فى يد الفنان المسلم، من سماحة الدين الجديد، فاستدار الخط بعد صلابة وثبات.

إن الفن التشكيلى له قدرة على الإقناع والإمتاع عبر حواجز الجنس والمسافة واللغة، والقرآن الكريم فيه توجيه للتشكيل (هو الله الخالق البارئ المصور). **وفيه توجيه للنور والظلال** (والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها، والسماء ومابناها، والأرض وما طحاها ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها).

الكون فى الإسلام صور... **الزهرة صورة، والقمر، والضحى، والليل،** صور... صور حتى **الكلمة الطيبة، صورة فى القرآن فهى كشجرة طيبة**،صور أقسم بها القرآن إشارة إليها وإشادة بها، وإعلاء لها، ودعوة إلى **اجتلائها فى سجدة قلبية، هى هدف الإسلام من السجود.**

السجود الحقيقى فى الإسلام **إيمان القلب بالقدرة، وشهادة للخالق بالتفرد، حين ينبهر الإنسان المحدود، بالكون الشامل فيقول بالحركة (ولم يكن له كفوا أحد).**

ومع هذا تطوحت الآراء فى فن التصوير مابين **حلال وحرام**. وقد لعب اختلاف الرأى فى هذا الموضوع من موضوعات الفن دورا كبيرا فى الزخرفة الإسلامية التى ابتعدت عن رسم الإنسان **إيثارا للسلامة واتجهت إلى التجريد خطوطا، والى النبات أغصانا وأوراقا.**

ولكن الزخرفة الإسلامية **أعتقت من الواقعية الهللينية والصلابة الفارسية فانطلقت بلا نهاية لأنها تتطلع كالمسلم إلى الله الذى (هو الأول والآخر).** الحديد ٣.

الخطوط فى الزخرفة الإسلامية **دوارة طوافة**... ويدركها **البهر فتتوتر**، ولكنها تمضى بلا ملل مَنْ يعرف الصبر. فاذا **قابلها حاجز من إطار، أو حافة من جدار، أفاقت** كمن يصطدم بالواقع ثم ماتلبث أن تستأنف نشاطها من جديد، فى ساحة أخرى.. بالروح نفسها... والتصور نفسه، مما يحسبه النقاد، تشابها وهو وحدة أسلوب مع تنوع الأنماط.

* * * * *

لقد ابتكر الفن الإسلامى من الأشكال الهندسية ألوانا وأنواعا جديدة ألفوا بينها وأنتجوا منها أعدادا لاحصر لها من الوحدات والتكوينات الزخرفية التى تسيطر على المشاعر... وانتجوا سجلا حافلا من العناصر النباتية من أوراق وزهور وثمار فى أشكال تجريدية محورة ذات طابع عربى إسلامى فريد.

ولقد بلغ من روعة تلك الابتكارات الزخرفية أن اطلق الفنانون الأوربيون كلمة «**أرابيسك**» على أية تكوينات زخرفية تتشابك فيها العناصر حتى ولو كانت غير إسلامية.

وبعد الحروب الصليبية بنى الأوربيون قلاعهم على مثال الحصون العربية فى مضاعفة الجدران، وإقامة البروج والأبواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة التى تحول دون وصول القذائف إلى الأفنية الداخلية.

كما تأثر بناء الكنائس فى أوربا بالكنائس الشرقية المتأثرة بدورها بالطراز العربى فظهرت فى الكنائس الأوربية الزوايا والبروج المستديرة.

وقد بلغ من نفوذ وسحر الفن الإسلامى على الأوربيين أنهم قلدوه تقليدا حرفيا فنقلوا حروفه على أنها جزء من النقوش، ومن الطريف ماذكره المستشرق توماس أونولد فى كتاب (تراث الإسلام) أنهم عثروا فى أيرلندا على صليب من مخلفات القرت التاسع على الأرجح نقشت البسملة على زجاجه فى وسطه بالحروف الكوفيه.

الزخرفة الإسلامية مؤمنة بأن الغيب سر من أسرار الله فهى **دائما تواقة إلى المجهول، مشتاقة إلى المكنون والمضمر.**

وفى نشوة الخلق الجميل، **ينطلق الفن الإسلامى فيتعمق كل شىء حتى طيات الكساء وثناياه فإذا حقق غايته تعزى وارتوت روحه الظمأى، بعض الشىء إلى عالم المجهول.**

إن **تعلق القلب المسلم بالمطلق كان وراء حب الفنان المسلم للتجريد** حتى فى رسمه للأشكال يغطيها بالزخارف ويوشيها بالنمنمة أو يحيل الأجزاء الى وحدة زخرفية فى تحوير يكاد يبلغ مرتبة التصوير.

وتمطر السحائب بعد كلمة الرشيد بغزارة ويتدفق المال كالسيل ويظهر ميل النفس الطبيعى إلى الاستمتاع بل تشتد الرغبة فيه بعد حرمان طويل ويجد العربى المسلم حلا سعيدا للمعادلة الصعبة.. بين حض العقيدة على القسط والقوام بين الإسراف والتقتير، وبين حب الفخفخة وجنون العظمة فيعوض الفنان المسلم عن التماثيل الضخمة النمنمات والوشى والتذهيب والترصيع حتى الجدران والأرض غطاها بالفسيفساء... حتى الفخار أصبح خزفا له بريق معدنى.

* * * * *

أقول حتى نظام الأحجار المتداخلة فى البناء، زاد عليه المسلمون (التقسيم) بالألوان فى مصر الإسلامية... كان الفنان المصرى المسلم مأخوذا بالنظام والموسيقى فخلق من «التقاسيم»، أفراحا تغنى.

إن الايقاع فى الفن الإسلامى يعتمد على التماثل والتناظر والتبادل على الخط اللين والهندسى.

وينعكس الترتيل فى القرآن الكريم (ورتل القرآن ترتيلا).
على العمارة الإسلامية، ظاهرة العقود المتوالية.
توالى العقود، لون من الترديد.
لون من التطريب الهندسى.
ونثر النجوم فى الزخرفة الإسلامية، لون من الترديد.. والتوليد.
إنه تحية لسورة (النجم)... تحية للآية الكريمة (والسماء والطارق والنجم الثاقب)

وفى المسجد دكة المرددين... وهذا غير التكرار الذى يوقع فى الملل. أن يكون التكرار محسوبا فى هدف أعلى، فن. ونظام الوحدات فى الزخرفة الاسلامية، لون من الترديد.

بل إن الإسلام وراء فن الموسيقى فإن تجويد القرآن وترتيل الآذان وراء حفظ الموسيقى العربية...

يروى الشيخ عبد العزيز البشرى فى كتابه «قطوف» أن جميع مؤذنى المساجد فى القاهرة كانوا (إذا ظهروا المآذن للهتاف بالأولى أو «الأولة» – ومن أولة الآذان هذه، ابتدع بيرم، فيما أرجح، حين تشرب وعشق الروح المصرية، ألوان الأولة فى الغناء – وقفوا وقد أرهفوا آذانهم، وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصدر إليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج لليلتهم. فإذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنغمة الرصد مثلا، أسرع مؤذنو المساجد حوله بترديدها... وأخذ أخذهم مجاورهم ومن تقع للأسماع أصواتهم وهكذا فلا تمضى دقائق إلا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة الرصد، وإذا بدا بالبياتى، أو بالحجاز، أو بالسيكاه... إلخ وما شاء الله كان).

لم يعاد الإسلام حضارة من الحضارات أو فنا من الفنون وليس أدل على قوة ذاتية غير عادية، فيه، من أنه وهو حديث عهد بالفنون والصناعات قد احتواها بقوته وحقيقته حتى صارت معْلما من معالمه جديدا قديما... وهو على جنسيته الأصلية، إسلامى فى: النهاية.. والأثر.. والمفهوم

والزخرفة الإسلامية تحتفل باللون حتى لتقيمه مقام الضوء محاكيا للطبيعة مرة أو مخالفها ولكنه فى الحالين لايشوبه تكبر أو تجبر لأن الفنان يقرأ فى قرآنه الآية (**ومن أحسن من الله صبغة**) البقرة ١٣٨. ويعرف اللون مكانته عند الفنان المسلم فيمضى يكتشف له الأشياء حين يكتنفها ويندمج معها... **ويعطيها وتعطيه فيغدو الإحساس**

ملونا، واللون حساسا قبل «سيزان» رائد التصوير الحديث الذى تجاوز أسلوب عصر النهضة الاتباعى.

وكثيرا ماغمس الفنان المسلم ألوانه فى ماء المعادن يمالس بها السطح، ويؤانس بها الشكل فتلمع أو تتطوس وهى فى الحالتين مايكاد الفنان يسكبها على السطح حتى تؤدى فى غناء... وكأنها إفضاء نفس الى نفس ورجاء روح إلى روح.

هذا إذا كان الفنان واجدا سعيدا عنده مايقوله، أما إذا كان الفنان لم تلمسه بعد الشرارة المقدسة، فإن ألوانه تكون صارخة كأنها تعبير عن ضيقه المكتوم.

* * * * *

ويبدو أثر الإسلام فى وجه آخر وهو تركيز الفنان المسلم، الزخرفة وتكثيفها، فى مواضع معينة كالمنبر والقبلة والمحراب والمئذنة وكأنها تحية خاصة للإسلام.

* * * * *

ومن الظواهر الزخرفية التى انتشرت فى العمارة الإسلامية وصارت من مميزاتها (الشمسيات) أى... «الشبابيك» المفرغة المحشوة بالزجاج الملون التى تفننت فيها مصر فى آخر العصر الفاطمى.

ومن تأثير الإسلام فى الفن الإسلامى أنه فن متفائل من بشر الإسلام وبشريته إلى جانب قدسيته... دين لاينكر الزينة والمتاع فى غير حرام... ومن هنا ولع الفن الإسلامى بالتزويق وكأنه موسيقى الشعر العربى المقفى أو كان فيه من سحر الكهرمان أو بيان حسّان، أوغنائيات البحترى.

وحين أشبه الفن الإسلامى بالشعر العربى يشبه المستشرق غارسيا غومس الشعر العربى فى الأندلس بزخارفه الموشاة «الأريسكية» بأنه قصور حمراء لفظية.

حتى الخزف ترقص فيه الألوان من الفرحة، وتغنى الظلال فى تطريب وينسكب الضياء مشرقا كنور الإيمان وضياء كضمير المؤمن معذور الفارابى حين طرب لها وأنزلها منزله الألحان الكاملة.

وكأنى بالفن الإسلامى يتدفق كسيال يجرى مدافا فيه أسرار المعانى والألوان والوجدان ويخلب بالتقابل والتلاقى، عيون العشاق وأفئدة من الناس تهوى إليه.

والفن الإسلامى خاصة فى مصر حين يطعم ويرصع يستجمع خبرات المكان الذى انطق الحجر ولعب بالذهب مهر فى التشكيل والتصوير... وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صنعت من ضياء الجواهر النادرة فيما بين العصرين مما أغدقته على الفاطميين، القاهرة.

ليس تقييما ولكن حوارا، كثيرا مايدور بين فن غال وحبيب يغالى ولايغلو.

أتوقف عند هذا القدر من الحديث عن الحضارة الإسلامية علما وفنا وأثرا فى أوربا بما ارتادت وسبقت وأعطت فى غير من او استعلاء.

وقد مهرت مصر الآثار الإسلامية على أرضها وخارجها: ففى أنحاء العالم الإسلامى مآثر لمصر وآثار حفر اسمها عليها، عمالها الذين كانوا يقصدون المبناء والتعمير والتجميل. إن من يراجع (توقيعات الصناع على آثار مصر الإسلامية) وقد أفرد لها الآثرى حسن عبد الوهاب، كتابا، يجد أن (أكثر العمارات التى أجريت بالحرمين الشريفين نفذها مهندسون وعمال مصريون).(١) ... وقبل الأثرى المصرى، أشاد بصناع مصر، الرحالة عبد الغنى النابلسى، وابن فضل الله العمرى، والرحالة البشارى المقدسى، والبلاذرى، والهروى، وابن بطوطه.

لقد كان لمآذن المساجد وبخاصة مساجد القاهرة فى القرنين ١٤، ١٥ تأثير واضح فى أبراج النواقيس فى كنائس إيطاليا فى عصر النهضة وهى التى نقل عنها رن (ت ١٧٢٣) فى القرن الثامن عشر ماصممه من أبراج عند ترميم ثم إعادة بناء كاتدرائية القديس بولس فى لندن.

كما نقل الصليبيون فن العمارة الحربى إلى أوروبا من مصر والشام.

وبعد الحروب الصليبية بنى الأوربيون قلاعهم على مثال الحصون العربية فى مضاعفة الجدران وإقامة البروج والأبواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة التى تحول دون وصول القذائف إلى الأفنية الداخلية.

---

(١) كتاب (توقيعات الصناع على آثار مصر الاسلامية) للاستاذ حسن عبد الوهاب.

كما تأثر بناء الكنائس فى أوربا بالكنائس الشرقية المتأثرة بدورها بالطراز العربى فظهرت فى الكنائس الأوروبية الزوايا والبروج المستديرة.

لقد تأثرت الحياة الأوروبية بالحضارة الإسلامية حتى انعكست فى لغاتها ألفاظها مثل:

Cotton من القطن... Muslin من الحرير الموصلى، Damas من الحرير الدمشقى.. Devan من الجلد القرطبى، Morocoo من الجلد المراكشى... Jupe من الجبه، Musk من المسك، Attard من العطر... Syrup من الشراب، Jar من الجرة، Rice من الأرز، Lemon من الليمون Sucre من السكر.

هذا بعض ما ثبت فى الإنجليزية والفرنسية وأضعاف هذا فى الإسبانية والبرتغالية ولا تأخذ الحياة الأوربية هذا كله من العربية إلا اذا كانت الحضارة الإسلامية فى مقام التفوق الذى يغرى بالاقتباس.

وكانت روح الإسلام وراء المسجد الإسلامى وضعا وموضعا.

المسجد للجميع لأن بيت الله، اللائذون به كثيرون وهو لايصد أحدا.. فلهذا تعددت الاتجاهات المفضية إليه بل تعددت الأبواب فى المسجد الحرام وكان المسجد فى البداية يبنى فى وسط المدينة تيسيرا للجميع، ليس بالمسجد حجاب أو أماكن متفاوتة مخصصة إنه مكان واحد رحيب كالقلب المفتوح. من يحضر أولا، يتقدم فى الصفوف على سواء بين الناس.

* * * * *

الترتيل فى القرآن (ورتل القرآن ترتيلا) انعكس على العمارة الاسلامية، ظاهرة العقود المتوالية.

توالى العقود، لون من الترديد.

لون من التطريب الهندسى ونثر النجوم فى الزخرفة الاسلامية فى أحجام مختلفة، نوع من الترديد والتوليد. إنه تحية لسورة النجم... تحية للآية: (والسماء والطارق... والنجم الثاقب). ونظام الوحدات فى الزخرفة الاسلامية، لون من الترديد.

وفى **المسجد، دكة المرددين** وهذا غيـر التكرار الذى يوقع فـى الملل. أن يكون التكرار محسوبا فى هدف أعلى، فن.

بل الاسلام وراء فن الموسيقى فإن **تجويد القرآن وترتيل الآذان وراء حفظ الموسيقى العربية.**

ومبـدأ التكافل الشامل فى الاسلام كان وراء العمـارة الاسـلاميـة والجامعة الاسلامية ومثل هذا: الأزهر، إنها روح الاسلام وراء نظام الأروقة فيه.

(المسلمون أمـة) وأى أمة؟ (خير أمة أخرجت للناس) لهذا لم يكن الأزهر مسجدا محليا بل مسجد أمة يلتقى فيه ٣٦ جنسية فى ٣٦ رواقا.

الاسلام وراء تاج محل فى الهند بناه مسلم لمسلمة.

أن يكون التكرار محسوبا فى هدف أعلى فن.

الرحمـة فى الإسلام ترجمتـها العمـارة الإسلامية فى عدة صور: **المارستان والأسبلة والأربطة** والأوقاف أو الأحباس، كما ذكرت.

ومن الرحمـة، **الطمأنينه** التى يبثـهـا الإسـلام فى نفوس المؤمنين **وعدا** بالجنة وبوجود حياة أخرى وثواب وعقاب يعاقب على السيئة ويثيب على الحسنة بعشرة أمثالها مما جعل المسلم يعمل لآخرته كما يعمل لدنياه.. وليس أبقى أثرا وأقوى تخليدا من العمارة الخيرية برسوخها وثباتها فنرى أشد العصور ظلما وظلاما احفل العصور بالمساجد والأسبلة والأربطة من باب التـقوى أو التكفير عن الذنب بل ظهرت فى النظم الإسلاميـة نظام الأحباس أى الاوقاف.

حتى العمارة الدنيوية يحبسون ريعها أو بعضه على أعمال الخير بشروط يرونها محققه لآمالهم فى المثوبة من الله.

وهكذا يدين شطر عظيم من الآثار الإسـلاميـة على اختـلافهـا للإسلام دينا للدنيـا والآخرة.

هذا بينما الجنة لاوجود لها فى الديانة اليهودية القديمة فكان من المحتم عندهم أن ينال المرء كل شيء فى هذا العالم.

وهذا سر ما اتسم واتصم به اليهود من تكالب على المادة... كل مشكلة عند اليهود سببها وحلها الفلوس وفى الإسرائيليات عندما تساءل النبى أيوب عن الخير والشر والحكمة

والعدل والظلم جاءه الجواب فى صورة، هبة من الرب مقدارها ١٤٠٠٠ من الغنم، و٦٠٠٠ من الإبل وألف من الثيران وألف من اتان وسبعة بنين وثلاث بنات... وهى كما يقول «ديورانت» فى كتابه «قصة الحضارة» خاتمة سعيدة ولكنها عرجاء لأن أيوب تحصل على كل شئ إلا جواب أسئلته وتظل المشكلة قائمة عند اليهود حتى سفر الجامعة لم يحلها بل كانت رؤيته لها متشائمة حين قال:

«إن الهناء والشقاء فى هذا العالم لاشأن لهما بالفضيلة والرذيلة».

وامتد أثر الإسلام فى الفنون الإسلامية بعد العمارة إلى **الزخرفة والتشكيل** بأنواعه **والتلوين والخط**.

ومن الظواهر الزخرفية التى انتشرت فى العمارة الإسلامية وصارت من **مميزاتها (الشمسيات)** أى الشبابيك المفرغة المحشوة بالزجاج الملون التى تفننت فيها مصر فى آخر العصر الفاطمى.

* * * * *

إن الإسلام رسالة ثقافية فنية على أعلى مستوى. يوم حبب إلينا الجمال والزينة (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق). (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها **جمال** حين تريحون وحين تسرحون).

وتشرب الفنان المسلم روح دينه فمضى يزركش المربع ويحنن المستطيل ويعشق الخشب ويستنطق السطح الصامت بالنقش والنمنمة.

حتى الخشب أرواح تتحاب وتعشق. يقول ديورانت فى قصة الحضارة إن «المسيحية فى مثاليتها المجردة، قد وضعت لتسير عليها أقلية ورعة». **ولكن الاسلام احتفل بالدين والدنيا**. الإسلام ميزته أنه **أسلوب حياة**... نمط سلوك **من أبسط الأشياء إلى أعلى الأشياء**.

الإسلام يحب المتعة فى غير إثم **والفن نعيم روح، إن الترف المادى عبء، ولكن الترف المعنوى جناح.**

أن تجعل من الحياة جزءا **فنا جميلا، وأن تجعل من الفن حياة جميلة، نعمة كبرى.**

* * * * *

ولما كانت العربية جزءا من الإسلام لنزول القرآن بها، فقد تمثلت، هذا، **الزخرفة الإسلامية فى محبة للإسلام، فغدا الخط العربى عنصرا بارزا من عناصر الزخرفة الإسلامية حتى وصلت بها تسعين نهرا (أى طريقة).**

وانتقل حب ترتيل القرآن الى ترتيل الخط أى تحسينه فقال الامام على (الخط الحسن يزيد الحق وضوحا).

وحين أقسم الله بأداة الكتابة **وهى القلم**. ارتفع شأن العلم وارتفع شأن الخط باعتباره حامل المضمون وعنوانه. وهكذا انبعثت **قواعد الخط محاذاة لأصول مخارج الحروف فى جميع البلدان الإسلامية** كما لاحظ هذا وسجله **الدكتور بشر فارس فى سماحة تجمع المسيحية والإسلام عند العارفين.**

وهكذا أصبح الخط العربى فنا جميلا، وجليلا.

* * * * *

وقف وراء الفنون فى البلاد الاسلامية:

سماحة الإسلام الذى سمى نفسه دين الفطرة إشارة إلى أنه دين الإنسان السوى أينما وجد وفى أى مكان (بعثت إلى الناس كافة) لقد طبق الإسلام هذا المعنى عمليا وتلقائيا حين صارت له دولة وصولة وخلافة فلم يتمسك بمكة أو بالمدينة عاصمة له.

إن الامبراطورية الإسلامية هى الامبراطورية الوحيدة التى تتمسك بعاصمة واحدة تقليدية.

كانت العاصمة فى الإسلام، دمشق ثم بغداد، القاهرة هذا غير المدن الأندلسية وكان من أثر هذا أن ازدهرت فى الإسلام العواصم معماريا وفنيا وعلميا لأن كل عاصمة يوفر لها أهلها رصيدهم من الحضارة، وطاقاتهم الإنشائية والفنية **فكسب الاسلام هذه العواصم الزاهرة الزاخرة التى أعطته وأعطاها... وهى فى النهاية محسوبة له إذ بها يميل الميزان الحضارى إلى الرجحان حاملة اسمه آخذة مكانها فى التاريخ، فى مصاف الحضارات، حضارة إسلامية خالدة.**

التـــراث والحضـــارة

حين تتحلق الندوة حول التراث، ويدور الحديث عنه، ترتسم علامات استفهام كبيرة وكثيرة... منها:

* ماهو التراث على التحديد؟
* ما دوره الحضارى؟
* ماهى مصادر التراث؟
* كيف نتعامل مع التراث؟
* ما أسباب دراسته؟
* هل للتراث قضية؟
* ما هو التقييم الحضارى للتراث؟

الآية ١٩ من سورة الفجر (وتأكلون التراث أكلا لما) هنا التراث إرث مادى.

والآيتان الخامسة والسادسة من سورة مريم (.... فهب لى من لدنك وليا – يرثنى ويرث من آل يعقوب، واجعله رب رضيا).

والنبى زكريا فى هاتين الآيتين الكريمتين إنما قصد بدعائه ورجائه الفضل، لا المال... فتوارث المال ليس همّ الأنبياء.. إن ما يعنيهم إنما هو، الفضل والقيم... وورثتهم، فيها، العلماء.. (العلماء ورثة الأنبياء) ... ويؤكد هذا قول النبى عليه السلام: (إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة).

أحد تعريفات **التراث** الوافية أنه (تجارب السلف المنعكسة على الآثار التى تركوها فى: المتاحف، أو المقابر، أو المنشآت، أو المخطوطات، ومازال لها تأثيرها حتى عصرنا الحاضر. إن التراث يعنى أيضاً الملاحظات التى أدركها الموهوبون فى الفن عبر العصور، وتركوا بصماتهم معبرة عن هذا الإدراك السخى الذى تنحنى أمامه الرءوس تقديراً... والتراث يعنى ما وصلت إليه البشرية من قيم حققتها عبر العصور، أى منذ أن استطاع الإنسان أن يخطط فى الكهف حتى العصر الحديث.

وهذا التعريف ينسحب على العصور التاريخية البعيدة بل الموغلة فى أعراق القدم مع أن كثيرين منا حين نقول التراث، ينصرف الذهن إلى العصر الإسلامى دون سواه من العصور الأخرى.

وهم معذورون فنحن أصحاب هذا التراث نخص، فى الواقع، التراث الإسلامى.

إن الإسلام أكثر من رابطة تجمعنا، فهو لم يوجد بيننا بذاته، فحسب دينا ... عقيدة وشريعة، بل وحد بيننا **لغة** فى منطقة الشرق العربى على الأقل ... ووحد بيننا فى **الفكر** النابع منه على الساحة الكبيرة .. أى العالم الإسلامى.

ويجهد المحللون فى النفاذ إلى سره كما حدث فى مؤتمر الفن الإسلامى الذى عقد بلندن عام ١٩٧٦ فقالوا إن وحدة الفن الإسلامى تعزى إلى الخط العربى كما أسلفت... ونسوا أن **وحدة** الفن الإسلامى جاءت من **وحدة الفكر الإسلامى.**

وتتمثل وحدة اللغة فى الكتب الجامعة مثل كتاب: (المخصص لابن سيده) فى القرن الخامس الهجرى الذى اعتمد على مصادر كثيرة ينتمى أصحابهم إلى بلاد مختلفة من دولة الإسلام فى ذلك الوقت .. ولكن لسانهم واحد وبالتالى تراثهم جامع ومشترك.

ويعدو الأمر، المعاجم، إلى كتب البلاغة، فيستعين السبكى فى شرحه بمئات من كتب سبقه أصحابها إلى علوم البلاغة، وفنونها.

وبعد البلاغة، **الشعر** ... الذى يمثل كتاب الذخيرة لابن بسام، وحدته فيعارض الشاعر فى الغرب الأندلسى، الشاعر فى الشرق. وكم هفا الأندلسيون إلى الشرق وتعلقوه .. وعلى رأسهم عبد الرحمن الداخل. بحنينه الدافئ وحديثه الشجى الشهى إلى نخلة الرصافة.

وحين أخذت دولة الإسلام بالترجمة فى حركتها العلمية، تنقل العلماء بسهولة بين أنحاء هذه الدولة، **لوحدة اللغة ووحدة الهدف** فالتقت جهودهم وعقولهم فى العلم، كما التقت قلوبهم فى الدين ... ويتبادلون الرسائل ويتجاذبون الحوار .. ويرحل ابن بطلان طبيب بغداد إلى القاهرة ليلتقى بطبيبها على بن رضوان عام ٤٤١ هـ بل هاجر ابن الهيثم من البصرة إلى القاهرة ولزمها حتى آخر يوم من عمره كما هاجر إلى القاهرة ابن البيطار من الأندلس.

حتى **التراث الشعبى** على ذاتية له وخاصية فيه، كانت تربطه فى أوطان الإسلام، خطوط عامة وإن درجت تحتها تفاصيل تختلف من بلد إلى بلد بما يضفيه عليه أصحابه، ويضفيه إليه مبدعوه، من خصائص مميزة تحمل طابع بيئتهم وبصمتها ...

حتى **السياسة**، وهى شائكة، جاء اخوان الصفا برسائلهم يجعلون منها **تراثا موحدا** بما أخذوا من كل رأى ومذهب فى موضوعية وعقلانية فهم يصرحون (إننا لا نعادى علما من العلوم، ولا نتعصب لمذهب من المذاهب، ولا نهجر كتابا من كتب الحكماء والفلاسفة مما وضعوه وألقوه فى فنون العلم، وما استخرجوه بعقولهم وتفحصهم من لطيف المعانى)[١].

وحدة التراث تمثلها الموسوعات التى لم تقتصر على بلد بل امتدت اطلالتها فضمت العالم الإسلامى على انفساح الرقعة وتعدد الأسماء.

إن الأسلوب الخاص للتاريخ الإسلامى ومؤرخيه سواء ما كان منه تأريخا بالسنة، أو تأريخا لبلد من البلاد، يقول بوحدة التراث ....

فالطريقة الأولى تغطى بطبيعتها، العالم الإسلامى. أما الطريقة الثانية فمع تحديدها بلداً بعينه، مثل النجوم الزاهرة، إلا أنها لم تلبث أن طافت وطوفت بالأقطار الأخرى.

خيط حريرى غير منظور يربط العالم الإسلامى، هو:

التراث بعد القرآن الكريم

فإذا دعونا إلى استبيانه واستلهامه، **فلأنه وجودنا النفيس**. إنه نحن ... والشئ لا يكون إلا نفسه كما يقول المناطقة.

أما **الحضارة** فهى ثمرة سلسلة طويلة من التحدى والاستجابة فى تاريخ الإنسان فردا فى شعب .. وشعبا فى وطن .... وأوطانا على الساحة الكبيرة مع تفاوت بين البلاد والشعوب ... أو هى كما عرفها الدكتور حسين مؤنس فى كتابه: «الحضارة» – فى مفهومها العام – ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصود أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية.

وهكذا ترى المفهومين أو التعريفين **متداخلين**.
فى الواقع، **التراث حضارة** بما هو عطاؤها الباقى.
والحضارة تراث بما هى ذخر أمة وميراث الأجيال.

---

(١) أقرأ للدكتور عز الدين فودة (التراث السياسى فى رسائل إخوان الصفا) مجلة (فصول) المجلد الأول – العدد الأول، أكتوبر ١٩٨٠.

والحديث عن التراث ليس للزهو فيما يفيد الزهو الجيل الحاضر أو يغنى عنه، أو يعفيه من إضافة جديدة الى تليد شاهد بحضوره على أصحابه .. بل لعل الحديث عن التراث نداء للحاضر، وإيذان بالمسئولية.

وإكبار التراث لا يعنى تقليده فإن فى هذا، تجميداً للمواهب الخلاقة وحجراً عليها ولكن يعنى تجديده، فى امتداد له، واستمداد منه ... حتى تتواصل الخطى على طريق طويل يجمع فيه الخالف بالسالف، **وحدة العرق وعز الانتماء.**

وليس معنى التراث، التصديق على المقولة (التاريخ يعيد نفسه) لأن التاريخ أو الحضارة مجموعة إشراقات أو فيوض إبداع كتب بها أصحابها، التاريخ. والإبداع لا يتكرر بالقدر نفسه والمقدار .. وإلا فقد جوهر الابتكار وهو الخلق على غير مثال.

وليس معنى التراث تحصيل حاصل ولكن استكشاف جديد فيه، أو تنقية قديم من شائبة قد تخرج به عن معناه.

والإبداع كثيراً ما يكون رؤية جديدة لقديم مستقر .. حين يكون الابتكار، موهبة خلاقة فيها عنصر الميلاد والمفاجأة حتى لصاحبها نفسه. وقد كان أناتول فرانس عندما يقرأ حوار أبطاله يقول: أى شيطان أجرى على لسانهم هذا الشعر.

والتراث هو الذى يصنع البطولات باستيعابه والانتماء الحميم اليه. فالبطولة_ كما يقول الدكتور عفت الشرقاوى (لا تنشأ من فراغ وإنما هى تجسيد لآمال الشعب. فالبطل رمز أمته وذروة فاعليتها التاريخية – وليس هناك على الحقيقة بطولة خارج إطارها الشعبى .. بل إن البطولة لا تكون كذلك إلا إذا انبثقت عن تراث هذا الشعب التاريخى وارتبطت به أشد الارتباط ... فإذا لم تكن كذلك سقطت قبل أن تقوم).

كما لا يعنى إكبار التراث، **التسليم بكل ما فيه** فأصحابه، وإن عزوا، بشر، يجوز عليهم الخطأ والقصور فى غير تقصير.

ولا يعنى إكبار التراث التخلف عن مواكبة العصر السريع التغير والتقدم **ولكن الخير فى الجمع بين التراث والمعاصرة** وهنا يكون التراث ركيزة للحاضر، وانطلاقة نحو المستقبل فى ثبات اليقين ... كالدوحة الفينانة لاتنال منها العواصف لأن جذورها ضاربة في أعماق الأرض ... أو كشجرة أصلها ثابت فى الأرض وفرعها فى السماء شأن كل طيب أصيل.

وهكذا يعنى التراث فى وقت واحد، **الاستلهام والخلق واللمح والطموح ... الاعتزاز والابتكار**. ولا غنى عنها جميعا مجتمعة ومفردة.

ومن هذا ولع الشعراء فى بداياتهم **بالمعارضة الشعرية** ثم التحليق فى آفاق جديدة يحققون فيها ذاتهم على غير مثال بقدر ما يسع التأثر والتأثير.

ومثل هذا يحدث فى مجالات الفن الأخرى. فقد بدأ مايكل أنجلو بتقليد نماذج الفن الإغريقى الذى كان يحلو لأوربا الانتماء إليه. وأتقن هذا التقليد إلى حد يصعب معه التمييز بين الأصل والمقلد ولكنه أضاف فيما بعد إلى منحوتاته قوة البناء الجسمى بمفهوم فنى للتشريح كما أضاف إيقاع الحركة.

ورمبرانت أضاف **عامل الضوء** كعنصر من عناصر التشكيل الفنى + التعبير الدقيق عن بصمات الزمن ممثلة فى التجاعيد.

والتراث الإسلامى، على اهتمامنا العلمى وارتباطنا العاطفى به كثير منه **مبدد** .. غير مصون ... **مفرق** غير مجموع.

عن **تسرب التراث** يقول الأستاذ محمد كرد على فى كتابه (خطط الشام) (من المصائب التى أصيبت بها كتب الشام، أن بعض دول أوربا ومنها فرنسا وبريطانيا وهولندا وروسيا، أخذت تجمع منذ القرن **السابع عشر كتبا** من تراثنا تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين. وكان قومنا ولاسيما من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع، بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل أن يفضلوا درهما على أنفس كتاب، فخانوا الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف فيه كأنه ملكهم.

وحدثنى الثقة أن أحد سماسرة الكتب فى القرن الماضى، كان **يغشى** منازل بعض أرباب العمائم فى دمشق ويختلف إلى **متولى** خزائن الكتب فى المدارس والجوامع فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة. وبقى هذا سنين يبتاع الاشعار المخطوطة من أطراف الشام، ثم رحل بها إلى بلاده فأخذتها حكومته وكافأته عليها، ص٤٠.

إن النمسا تقتنى أكبر وأغنى مجموعة من البردى فى العالم كله. وقد بدئ فى جمعه منذ ١٨٢٤ إن مجموعات الأرشيدوق «إينر» تبلغ وحدها نحو سبعين الف بردية!

وهذه البرديات مصرية قديمة وعربية منذ الفتح العربى لمصر حتى عصر المماليك. وتأتى بعد النمساء ألمانيا وبريطانيا وفرنسا حيث يضم متحف اللوفر بباريس ٣٠٦ بردية عربية لم ينشر منها شيء حتى الآن. ولم تتخلف إيطاليا وتشيكوسلوفاكيا وروسيا بل بولندا وسويسرا وبالطبع أمريكا ...

هذا حين لا تملك البلاد العربية شيئاً من كنوز البردى إذ استثنينا مصر التى تملك مجموعتين.

مجموعة دار الكتب وتضم ألف بردية.

ومجموعة المتحف المصرى

ماذا عندنا ؟

فهرس المخطوطات المصورة(١) الذى أصدره معهد المخطوطات العربية يشير إلى أن فى معهد المخطوطات العربية ٨٤٤ مخطوطا فى فن الطب وحده (كلها من النفائس القيمة النادرة التى انتقاها المعهد وجمعها من مختلف أنحاء العالم عن طريق بعثاته. أو حصل عليها عن طريق التبادل أو طلبها من مكتبات العالم).

أما كتاب «مخطوطات عربية» الذى أصدره المجمع العلمى العراقى فيقول: (إن فى مكتبة صوفية المركزية **ما يزيد على ثلاثة آلاف مخطوطة فى جميع فروع المعرفة** ... وأكثرها فى الفقه والفتاوى الشرعية وأصول الفقه والنحو والصرف والبديع والبيان والفلسفة الإسلامية وعلم الكلام وآداب البحث والمناظرة.

ويوجد نحو مائتي مخطوطة فى الطب والفلك؛ والرياضيات(٢).

هذه أمثلة فحسب

أسباب دراسة التراث

* جمع المفرق منه
* تحقيق الموجود بين أيدينا
* الإحاطة العلمية به فى محاولة معرفة أنفسنا
* تمزق الإنسان بين حضارته وحضارة الآخرين

---

(١) الجزء الثالث – العلوم – القسم الثانى الطب.

(٢) الدكتور يوسف عز الدين (مخطوطات عربية).

طبيعة الصراع بين الحضارات الغالبة والمغلوبة وتمزق إنسان الدول النامية بين قيمه الموروثة والمحببة وبين مقتضيات ومتطلبات الحضارة الصناعية.

والنتيجة ليست فى صالحه إذ (لا يمكن تفادى وقوع التغيير الحضارى فى هذا العصر الذى اتسعت فيه المواصلات الفكرية والمادية، وصارت نطاقا يلف العالم كله)[١].

مشكلة العصر لا فى مصر وحدها بل فى الشرق خاصة هو زحف أمريكا أو الحضارة الصناعية على إنسان الحضارات الانسانية.

إنها مشكلة الاختيار.

وهنا يكون التمسك بالتراث، تماسكاً فى وجه الحضارة الصناعية.

تأمينه فتراثنا نهب من حيث الكم والكيف. لقد تركنا دراسته للمستشرقين وولاء معظمهم غير مبرأ من الغرض أو الهوى.

كما تركنا إباحة انتحاله، بغير **رد** أو **حد**.

إن اليهود يشنون حملة ضارية فى امريكا وكندا تستهدف انتحال كل انجاز حضارى لشعوب الحضارة القديمة وخاصة مصر فى عملية تأثير مرسوم، على الرأى العام هناك.

أما **المستشرقون** الذين كتبوا عن تراثنا فكتبهم وكتاباتهم متعددة ومن أهمها كتاب (تراث الإسلام)[٢].

أسوق المثال من كتاب يعد من أهم وأكبر ما كتبوه، وهو كتاب من ثلاثة أجزاء كبيرة تحمل اسم (تراث الإسلام).

ومما جاء فى هذا الكتاب:

المعرفة الاسلامية تتسم (بالتمييز الصارم بين الخاصة والعامة، وهذا يفسر الصفة الارستقراطية والحضرية لمعظم إن لم نقل لكل الآداب والمعرفة).

* كما يفسر التمييز بين اللغة الأدبية واللغة العامية.

---

(١) كتاب (التعبير الحضارى وتنمية المجتمع) للدكتور محيى الدين صابر، ص ٣٠٩-٣١٠.

(٢) تراث الإسلام تصنيف شخت وبوزورث ترجمة الدكتور محمد زهير السمهورى.

* وهذا أدى فيما بعد إلى المبالغة فى تبجيل العلماء الذين يعتبرون الحجة فى جميع فروع المعرفة.

* إن الاكتشاف الهام للدورة الدموية الصغرى من قبل ابن النفيس لم يؤثر على معاصريه وعلى من جاءوا بعده وإن الأفكار الأصيلة التى جاء بها ابن خلدون نالت من المديح لفصاحة لغتها أكثر مما نالته بسبب محتواها.

وهذا كله مردود ومرفوض من الإنسان العربى بل من الإنسان المنصف ولو لم يكن عربياً أو مسلماً.

فالإسلام الذى أعلى من المساواة، والمعرفة الإسلامية التى نشأت فى كنف الإسلام روية من روحه لا تعرف الطبقية.

والمسلمون فى تبجيل العلماء إنما يستجيبون لدعوة كتابهم، الموصولة إلى التعلم والتأمل واقتران العلم بالعبادة وتفضيل العلماء على الشهداء.

إن «شاخت» يحصر اهتمام العرب فى اللغة!! وهو قول يكفى فى دحضه المثل الذى جاء به واعنى ابن النفيس الذى اهتم بالبحث العلمى وكرس جهده له دون سواه.

وهنا يحضرنا قول الدكتور عبد الحليم منتصر(١) (الذين درسوا التراث أغلبهم من الغربيين، ولا تخلو كتاباتهم من تميز ضد الحضارات السامية).

وهو سبب قال به الأستاذ العقاد فى تعليل التهوين من دور العرب فى الحضارة الإنسانية إذ يقول (إن البدعة الحديثة التى نشأت حول الآرية والسامية قد جنحت بالأوروبيين منذ ظهرت فيهم إلى اختصاص الحضارة العربية بالنقل دون الإبداع، وحببت إليهم أن يميزوا عليها حضارات الأمم الآرية ولو كانت شرقية – بملكة الإبداع والتفكير الحر ولاسيما فى المباحث النظرية التى يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو الانتفاع به فى مرافق المعيشة .. لأن تمييز الشرقيين الآريين ينتهى إلى تمييز العنصر الأوروبى فى أصوله الأولى، وهى الدعوى التى يسوغ بها سيادته على أمم العالمين)(٢).

وتقتضى الأمانة العلمية أن نذكر فى الجانب الآخر، منصفين أشادوا بالحضارة الاسلامية. يقول الأستاذ **سنجر** Charles singer إن الحضارات تكونت مستمدة كل منها

(١) كتاب تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه.

(٢) أثر العرب فى الحضارة الأوربية للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٢٨.

على الأخرى بصورة ما، وهى فى الحقيقة ليست إلا أدوارا حضارية فى حركة واحدة فى تطور البشرية. وأنه ينبغى لنا إذا أردت أن تفهم الدور الأوربى من أدوار الحضارة أن نرجع إلى أصوله. وهذا أمر لا نستطيع تحقيقه إلا من خلال القرون الوسطى فقط(١).

ومن هؤلاء «لالاند» الذى عد الفلكى العربى «البتانى» من العشرين فلكيا المشهورين فى العالم، كما عد «كاردانو» الكندى من الاثنى عشر عبقريا الذين ظهروا فى التاريخ. ويقول المستشرق «سخاو» عن «البيرونى» أنه أعظم عقلية فى التاريخ كما يقول «سارتون» عن «ابن الهيثم» إنه أعظم عالم طبيعى مسلم فى التاريخ _ وقد لقب الشيخ الرئيس «ابن سينا» بالمعلم الثالث بعد الفارابى وأرسطو(٢).

ودخول أوربا عصر العلم، أدى إلى ضرورة معرفة جغرافية العالم الإسلامى. وهذا بدوره أدى إلى البحث التاريخى فى الاتجاه نفسه ... يعزز هذا الدافع الاقتصادى فقد كان العالم الإسلامى بثرواته منطقة جذب لعدد غفير من التجار الأوربيين.

إن الاهتمام بالكتابة عن التراث الإسلامى .. وهذا الاهتمام فرع من الاستشراق، ظهر أو أشتد فى أعقاب الحروب الصليبية التى أوجدت حاجة كبيرة وملحة للحصول على صورة كاملة ومسلية مرضية لأيديولوجية الخصوم ... كان الشخص العادى يريد صورة لأبرز السمات الغريبة التى أدهشت الصليبيين فى تعاملهم مع المسلمين.

وهكذا كما يقول «مكسيم رودنسون» حدث أن الكتاب اللاتينيين الذين أخذوا بين عام ١١٠٠ وعام ١١٤٠ على عاتقهم إشباع هذه الحاجة لدى الإنسان العامى، أخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد دون أى اعتبار للدقة فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المنتصر» كما جاء فى كلمات ر. و. ساوثرن R.W. Southern.

ومن الطريف أنه لما جاء دور المسلمين فى الانتصار، واستردوا بيت المقدس، أرادوا أن يتخلصوا من عقدة صلاح الدين فانتحلوه!! فظهرت فى القرن الرابع عشر قصيدة طويلة، اطلقوا عليها اسم «صلاح الدين» أعيدت فيها صياغة حوادث الأساطير القديمة السابقة .. فلا يجوز فى عرف أوربا أن يكون فارسا قمة مثل صلاح الدين إلا مسيحيا فلم تلبث أن زعمت أن أمه هى الكونتيسة بونثيو Countess of Ponthieu وأن سفينتها تحطمت على الساحل المصرى بل مضت فى الإغراب والإغراق الى أن الرجل اعتنق المسيحية وهو على فراش الموت!!.

---

(١) كتاب الحضارة الاسلامية أساس التقدم العلمى الحديث للأستاذ جلال مظهر ص ٢.

(٢) أقرأ كتاب (تاريخ العلم) للدكتور عبد الحليم منتصر.

بل بلغ العداء للمسلمين أن نقموا على الامبراطور فريدريك الثانى (النورماندى) لتعاطفه مع الإسلام واهتمامه بالعربية ومودته للمسلمين فقام البابا جريجورى التاسع Greegory IX بطرده من الكنيسة عام ١٢٣٩ بتهمة الود للإسلام والمسلمين.

لم تصحح نظرة أوربا ونظريتها إلا بداية عصر النهضة واكتشافها ما عند المسلمين من ثروة علمية مما أذكى فيها بالتالى **حب الاستطلاع عن الإسلام**.

وحين بدأ اهتمام أوربا بالفلسفة وبأرسطو خاصة وجدت طلبتها عند المسلمين فى الأندلس فقد ذهب جيرارد دى كريمونا Gerrad of Cremona (١١١٤ - ١١٨٧ تقريباً) الى طليطلة بحثا عن ترجمات عربية للنصوص اليونانية التى كان يرغب فى ترجمتها وبذلك يضيفها إلى حصيلة الفلسفة الغربية. وفى الوقت نفسه كانت قد بدأت فى ترجمة «كتاب الشفاء» لابن سينا. وتلتها ترجمات لسائر كتبه فذاعت شهرته فى أوربا وكان لها تأثير عميق. وتبع هذا ترجمات فلاسفة المسلمين الآخرين.

وهكذا أخذت تتشكل فى أذهان المفكرين الغربيين صورة أخرى للعالم الإسلامى **بوصفه مهد الفلاسفة العظام**.

وهكذا رد علم المسلمين ونصرهم، أوربا، إلى الصواب، يقول «مكسيم رودنسون» صحيح أن محاربة الإسلام ظلت أمراً واجباً! لكن معرفة عميقة به كان من شأنها أن تؤدى إلى المزيد من الموضوعية، بل أن تؤدى فى المدى البعيد إلى المزيد من النسبية. ففى بداية القرن الرابع عشر أخرج دانتى من النار، كلا من ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين ووضعهم فى المطهر، وهؤلاء هم المحدثون الوحيدون الذين انضموا إلى حكماء العالم القديم وأبطاله.

وفى عام ١٣١٢ صادق مجلس ڤينا على أفكار بيكون وليل بخصوص تعلم اللغات وخصوصاً اللغة العربية(١).

أضف إلى هذه الأسباب **اتساع حركة التبشير والاستشراق** حتى انتشرت كراسى الدراسات الشرقية فى الجامعات الأوربية.

وأضف إليه **ظهور العثمانيين** على مسرح الأحداث ونمو امبراطوريتهم على حساب البلقان المسيحى وخاصة اليونان وله دالة على أوربا.

---

(١) كتاب تراث الإسلام.

أما الحاجة التى تدفعنا دفعا إلى دراسة التراث وخاصة اليقظة الفكرية التى لن تتأتى لنا ما لم نتدارك كما يقول الدكتور طه حسين، مانسينا من التراث القديم ونستدرك ما فاتنا من العلم الحديث(١) .

لابد لنا من **إحياء التراث**، ونلاحظ أن أعلام الإحياء والبعث فى تاريخنا خصوا التراث باهتمام بعيد المدى فالشيخ رفاعة الطهطاوى أنفق جهدا كبيرا فى جمع ما استطاع من مخطوطات تراثنا إلى جانب ما نقله عن الغرب من علوم حديثة .. وهو مؤشر لا يخطئ إلى إيمانه بأن الإصلاح له شقان:

* معاصرة علمية ...
*دراسة للتراث.

وكذلك فعل أحمد زكى شيخ العروبة .. وكذلك فعل أحمد تيمور باشا والشيخ محمد عبده فى محاولة تجديد الفكر الإسلامى، والبارودى فى محاولة إحياء الشعر العربى.

وكان الأستاذ الخولى يشترط على طالب الماجستير والدكتوراه أن يزود رسالته بنص محقق لمخطوط من التراث فى موضوع رسالته.

ولكن إحياء التراث يستوجب **تنقية التراث**. يقول الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه (بناة النهضة العربية) عند الحديث عن الإمام محمد عبده.

(وأما تنقية الدين الإسلامى من الشوائب الطارئة عليه فأساس سعيه فيها أن أطلق لفكره، الحرية فى تفسير القرآن. ولم يتقيد بما قاله القدماء أو وضعوه من القواعد التى يحرم الأئمة تبديل شئ منها. فرأى أن يحل نفسه من هذه القيود ويفسر القرآن على ما يوافق روح هذا العصر فيجعل أقواله وآراءه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح المبنى على المشاهدة والاختيار لنواميس العمران على ما بلغ إليه هذا العلم إلى الآن مع مطابقة لأحكام العقل وأصول الدين)(٢).

وممن أخذوا بتنقية التراث الدكتور أحمد أمين فى إسلامياته الجامعة: فجر الإسلام ـ ضحى الإسلام ـ ظهر الاسلام. وممن أسهموا فى تنقية التراث الأستاذ عبد الحميد العبادى.

---

(١) أقرأ (مرآة الإسلام) ص ٣٠٨.

(٢) ص ٨٥.

وقد أشار ابن خلدون فى (المقدمة) إلى الخلط والوضع فى الروايات التاريخية.

(التاريخ لا يزيد فى ظاهره عن الأيام والدول والسوابق من القرن الأول .. وفى باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق .. وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابه عميق).

ويقول:

(إن فحول المؤرخين فى الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها .. وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتفى تلك الآثار، الكثير ممن جاءوا بعدهم واتبعوها ... فالتحقيق قليل .. والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل).

وعنده أن: «الناقد البصير قسطاس نفسه فى تزييفهم فيما ينقلون». فللعمران طبائع فى أحواله ترجع إليها الأخبار وتحمل عليها الروايات والآثار[1].

وأسباب الوضع فى التراث:

* الصراع بين الفرق الإسلامية.
* السخائم القبلية التى انتقلت معهم فى الإسلام.
* الشعوبية وهنا رتع حماد الراوية وخلف الأحمر.
* نزعات الدول الإسلامية خاصة الأموية والعباسية.
* القصاص والاخباريون ورغبتهم فى الاطراف بالتزيد والمبالغة ووشى الخيال.

ويضيف الدكتور طه حسين عاملاً آخر وهو:

(فساد الذمم والخلق مما جعل الاخباريين يزيفون الحقائق مقابل الأموال والرشاوى)[2].

ويقول فى كتابه «الفتنة الكبرى»:

(القدماء أنفسهم وضعوا قواعد التعديل والتجريح والتصديق والتكذيب وترجيح ما يمكن ترجيحه وإسقاط ما يمكن اسقاطه والشك فيما يجب الشك فيه، فليس عندنا بأس بأن

---

(١) مقدمة ابن خلدون.

(٢) كتاب (الفتنة الكبرى) للدكتور طه حسين، ص ٩٢-٩٣.

نسلك الطريق التى سلكوها، وأن نضيف إلى القواعد التى عرفوها، ما عرف المحدثون من القواعد الجديدة التى يستعينون بها على تحقيق النصوص وتحليلها وفقهها)(١).

وعاد إلى الموضوع نفسه فى كتابه: (الشيخان) ويقول الدكتور زكى نجيب محمود بعد أن وقف وقفة ليست بالقصيرة عند خطبة الحجاج المنفرة الباغية التى تتنافى مع قيم الإسلام شمائل الإنسان وطبائع الحى ... (إننا فى موقفنا من التراث ما ينبغى أن نتبين الخيط الأسود من الخيط الأبيض فندرسهم معاً، ولكن ندرس الأبيض ليحيا فى سلوكنا وندرس الأسود ليموت فى ظلمته)(٢).

ومن أهم موضوعات تنقية التراث **بل أخطرها جميعاً:**

الإسرائيليات:

وقد تنبه أسلافنا إليها فى القرن السابع الهجرى حين شغلت المحافل بالرد على الشكوك التى أثارها الفيلسوف اليهودى «ابن كمونة» فكتب «الشيرازى» رسالة فى تفنيدها .. وتجمع السخط على ابن كمونة فى كتب منها:

(الدر المنضود فى رد فيلسوف اليهود)

لمظفر الدين البغدادى المعروف بابن الساعاتى.

ومنها كتاب «الماردينى» الذى كتبه سنة ٧٥٣ (ومنه نسخة فى روما) والأمثلة كثيرة(٣).

وفى التراث قضايا آن لنا أن نواجهها .. منها: **قضية الإسلام والتصوير**: لماذا التركيز على نفرة الإسلام من التصوير؟

ولماذا يقرن الاسلام وحده بالنفرة من التصوير؟

لم يحارب الإسلام التصوير على إطلاقه .. وإنما حذر مما يقصد به، العبادة أو يصرف عنها. والعهد القديم يحرم صنع التماثيل لهذا الغرض (ملعون الإنسان الذى يصنع تمثالا منحوتا أو مسبوكا لدى الرب عمل يدى النحات ويضعه فى الخفاء).

---

(١) مرآة الاسلام جـ ١: ط ٨، ص ١٧٢.

(٢) مقال (إحياء التراث وكيف أفهمه) مجلة العربى عدد ديسمبر سنة ١٩٨٠.

(٣) أقرأ كتاب (تراثنا الفلسفى، حاجته إلى النقد والتمحيص) للأستاذ محمد رضا الشبيبى.

وجاء سفر الخروج (٨): (لا يكون لك آلهة أخرى أمامى).

لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة عما فى السماء من فوق.

وما فى الأرض من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك).

هذا حين لم يحرم القرآن التماثيل فى نص صريح.

يقول الدكتور ثروت عكاشة (وليس من منطق الأمور أن يحرم التصوير على اطلاقة مع أنه قد يكون عمادا فى حفظ حقوق شرعية، كما هو الشأن فى صور الغرقى والأموات من مجهولى الشخصية والتى تعرضها الدولة على الملأ ليتعرف إليها، وعليها، ذووهم، وتتجدد بذلك الحقوق والواجبات والأحكام الزوجية وحلول الديون والهبات والمواريث ونحو ذلك. وقد يكون التصوير كذلك سببا من أسباب تحذير الأمة من اللصوص والمحتالين والجواسيس والإرشاد عنهم. ومن الصور مرسومة أو منحوتة ما نعرف به أسرار جسم الإنسان والحيوان والنبات والصخور وغير ذلك مما هو لازم فى علوم الناس وفى تقدم البشرية وتطورها.

ومن القواعد الأصولية الشرقية، أن للوسائل أحكام الغايات والمقاصد، فاذا كانت الصور تتوقف عليها بعض أحكام شرعية أو معالجات طبيعية أو كشف وسائل علمية، كان اتخاذها مباحا، ولا تحريم لها إلا إذا اتخذت للتعظيم والعبادة والتبرك(١).

ويرى لاوجيوم أن تفسير اليهود كتابهم والقول بتحريم التصوير على اطلاقه قد واكب **فجر صياغة الفقه الإسلامى**(٢) وأنه انتقل إلى الفكر الإسلامى على يد من أسلم من رجال من اليهود واستطاعوا الوصول إلى مقام القرب من الرسول والصحابة بل غدوا من رواة الأحاديث مثل عبد الله بن سلام الذى كان أستاذا لابى هريرة ومثل كعب الأحبار الذى تتلمذ على يديه ابن عباس.

على أن معبد دورا اوريوس اليهودى على الفرات، حافل بالرسوم الدينية ذات الشخوص الآدمية والحيوانية، وكذلك كفارنا عوم بفلسطين.

وقد حطم المسيحيون الصور المسيحية فى مطلع القرن الثامن بل ذهب أبعد من هذا، اتباع **زفنجلر وكالفن** فى أوائل القرن السادس عشر، وكروموبل خلال ثورته فى القرن السابع عشر.

ليس الإسلام وحده.

(١) مقال التصوير الاسلامى بين الحظر والإباحة، مجلة عالم الفكر - المجلد السادس - العدد الثانى يوليو - اغسطس سبتمبر ١٩٧٥.

(٢) Isa Salman: Islamand figurative art-sumer Vol. XXV 1969.

التقييم الحضارى للتراث:

مرة أخرى أقول إنى أقصر البحث على التراث الإسلامى أى على حقبة واحدة من تراثنا العريض الذى يضرب فى أعماق القدم قبل الأديان بل قبل التاريخ نفسه.

والتقييم الحضارى لتراث أمة، له قاعدتان:

* عطاؤه الباقى وحجم هذا العطاء.
* مدى تأثيره فى حضارة الإنسان على أرضه أو خارجها.

ومادمنا بصدد الحديث عن التصوير فى الإسلام فإننى أمضى فى الحديث عن الفن الإسلامى.

العمارة الإسلامية:

إن الخاصية الرئيسية التى يوصف بها العالم الإسلامى من حيث الحضارة بعامة، هى أنه حقبة ثقافية فى تطور جماعات متعددة ومتميزة من حيث الجنس والظروف الجغرافية، وليس تعبيراً عن شعب واحد من الشعوب أو منطقة من المناطق(١).

ومن هذا المنطلق نجد العمارة الإسلامية ذات أثر بعيد فى العمائر المسيحية واليهودية خلال العصر الإسلامى فى الأندلس وبعده(٢).

لقد بلغ من إحساس المسلمين بالفن أن اعتبروه صورة للفضيلة وكان القاضى أحمد ابن ميرمنشى(٣) يقول: (صفاء الكتابة ينبع من صفاء القلوب) فى لمح للإمام على قبله الذى كان يقول (جمال الخط يزيد الحق وضوحاً).

---

(١) اقرأ (تراث الاسلام) ص ٢ ترجمة د. حسين مؤنس والأستاذ حسين صدقى العمد ومراجعة د. فؤاد زكريا.

(٢) اقرأ جروبيه E. Grube ،عناصر إسلامية فى عمارة البندقية فى العصور الوسطى،

Element Islami cinell architettura Veneta del mediaevo

بحث نشر فى مجلة المركز الدولى للدراسات المعمارية فى بلاد يو مجلد ٨ (١٩٦٦)

Bolletina del centra Internazionaledi stvdid' architettura

وبحث ج . مايلز G. Miles الدولة البيزنطية والعرب

Byzantium and the arabs

اقرأ د . أ . جيزار بهوى فى

التأثيرات الشرقية فى الفن الغربى

Oriental Influences in Western art

(٣) الخطاطون والمصورون

Calligraphers and Painters

كان الفن فى نظر المسلمين الكبار .. فضيلة وكانوا يصفون فنانيهم بأنهم أمثلة للتقى الوادع .. وعلى ذلك فإن المثل الاعلى للفنان أو الصانع الماهر المسلم لا صلة له كما يقول ريتشارد اتنجهانزن Richard Ettinghansen بالفنان البوهيمى الذى نعرفه من العصر الرومانسى.

وتمعن هذه النظرة فى السمو عند المتصوفة العلماء والأعلام فيقول الغزالى (إن الجمال ينقسم الى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس والى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم والثانى يدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا. وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال، فإن كان مدركا بالقلوب فهو محبوب القلب)[1].

ويقول جلال الدين الرومى: (إن الشخص العادى يرى فى العقل طينا متشكلا فقط، فى حين أن الآخرين ينظرون إلى الطين على أنه حافل بالمعرفة والأعمال)[2].

إن الفن الإسلامى كما يقول ريتشارد فى اتجاهه الى المحافظة على أسلوب مميز منسجم جعله لغة مشتركة يفهمها المسلمون (وكانت لهذا الفن جاذبية أوسع من جاذبية اللغة العربية نفسها أو حتى الحروف العربية ولم يكن يفوقه الا **الدين**. ومن هنا جاء تأثيره الشامل على جماعة تتميز بالتقشف العام فى حياتها ولكنها مع ذلك حساسة انفعاليا، وهى جماعة تحاول دائماً أن تجد طريقها إلى الخلاص من متاعب الدنيا دون تدخل من قديس أو وساطة من كهنوت).

حتى الرموز القديمة المنحدرة من المأثور الشعبى فى مناطق مختلفة طوعها الفنان المسلم حين ادخلها فى نسيج الفن الإسلامى حلى ووحدات جمالية حتى المفاهيم السابقة على الإسلام، كان الإسلام من القوة بحيث استطاع مواجهتها وإدماجها فى فنه.

حتى التكرار فى الفن الإسلامى، لغة خاصة شفافة هامسة نجحت كما يقول ريتشارد اتنجهاوزن فى أن تجعل الناس يصغون إليها ويتأملونها مشدوهين وكأنهم تحت تأثير منوم مغناطيسى، سواء فى داخل «دار الإسلام» أو فى خارجها. وهذه القدرة هى التى تعطى الفن الإسلامى طابعه الخاص الفريد.

---

(١) (إحياء علوم الدين) للغزالى جـ ٤ ص ٣٠٣.

(٢) المثنوى جـ ٦ بيت ١١٤٤.

كان الفن الإسلامى مرتبطا بالإنسان تأكيداً لنظرة الإسلام الكريمة إليه، واحترامه له عقلاً، وروحاً، وارادة، حى حمله الله الامانة التى اشفقت منها الجبال إنسانية الفن الإسلامى هذه **قيمة كبرى.**

فإذا انتقلنا من **التقييم** إلى **التأثير** وجدنا للفن الإسلامى بصمة على المنشآت الاوربية دينية أو دنيوية.

(لقد وجدت فى بلاد شمال أوربا اثنتان وخمسون ألف قطعة من العملات الإسلامية ما بين كاملة وناقصة وبعضها صنعت منه حلى).

واكتشف فى جزيرة جوتلاند Gotland السويدية وحدها (أكثر من ثلاثين ألف قطعة من العملات الإسلامية ضربها ملوك الدولة السامانية).

وغير العملة فالسجاجيد الشرقية، والزجاج المزخرف بالمينا.

ولعل خلو التصوير الإسلامى من الرسوم الآدمية أو الرموز كالأديان الأخرى، كان خيرا عليه وميزة له إذ عملت هذه الظاهرة على انتشاره فى الغرب المسيحى وساعدت عليه إذ أنها بهذه الخاصية لم تجرح إحساس العقلية المسيحية. حتى الكتابات العربية كانت تستعمل على نطاق واسع فنجدها فى الهالة التى تحيط برأس المادونا (أى صورة السيدة مريم العذراء) كما نجدها على أطراف الأثواب التى يلبسها القديسون فى الصور وعلى أبواب الكاتدرائيات.

لقد شق الفن الإسلامى طريقه إلى الغرب المسيحى **بالجمال ... بالفخامة ... بغنى بالألوان ... بالاتقان ... بالطرافة ... بارتباطه بالأرض المقدسة.**

ولعل أكثر الفنانين الأوربيين تأثراً بالفن الإسلامى: رمبرانت Rembrandt الذى كان يحاول فى كثير من الأحيان إيجاد جو شرقى عندما كان يرسم موضوعات تتعلق بالكتاب المقدس، مع أنه من العسير أن تعين أشكالا محددة فى تلك اللوحات بخلاف ما كان يرسمه فيها من عمامات وطيالسة تركية ضخمة. غير أن قطع النسيج الحريرية اللامعة تساعد على بعث الجو الشرقى، كما كان يساعد على ذلك تكوين الصورة على الطريقة المسماة فى الفن الغربى باسم «نور الظلام». أي تركيز النور فى بقعة من اللوحة وترك الأشياء الباقية فيها فى الظل.

الرسام الفرنسى «ديلاكروا» Delacroix فقد تأثر بالحضارة الإسلامية وخاصة فى طابعها المغربى فنحن عند النظر إلى لوحاته، (أمام عمل كامل تكون فيه الناحية الإسلاميقة جانبا هاما مندمجا كل الاندماج فى مخيلة فنان عربى).

كما نلمس تأثيرات عديدة للفن الإسلامى تكاد لا تحصى فى لوحات عصور النهضة والباروك والركوكو[١] .

وترك النسيج الإسلامى فى أوربا أثرا باقيا بل إن الفخار وهو سهل الكسر وجد منه أعداد فى أوربا نقلت إليها فى العصور الوسطى.

أما السجاجيد الشرقية فكان اقتناؤها علامة اليسر والترف والذوق الرفيع حتى أنها كانت تستخدم فى مناسبات التتويج.

وتأثرت أوربا بالتحف المعدنية الإسلامية حتى بلغ من بُهر أهلها بها أن انتحلوها فغدت تحمل توقيعين .. توقيع الصانع المسلم وتوقيع الأوربى المعجب. وكانت أوربا تسمى هذا اللون من الفنون الإسلامية «صنعة العجم» (الزمينا Azziminwork) .

حتى المنمنمات الإسلامية انتقلت إلى أوربا وأثرت فيها.

وذيوع الفن الإسلامى وسيرورته، لعبت مصر فيه الدور الأكبر. يقول ريتشارد اتنجهاوزن: (إن مناطق العالم الإسلامى التى كانت المنابع الأولى للاستيراد من الشرق واستلهام فنونه، كانت تقع فى منطقة البحر الأبيض المتوسط أى **مصر والشام والأندلس والمغرب ثم تركيا** بعد ذلك. أما بلاد مثل إيران والهند فقد لعبت دورا أقل. كما أن مناطق هامشية أخرى مثل القوقاز وآسيا الصغرى كان لها دور أقل من الأخيرة فى ذلك المجال.

التراث الأدبى:

ويقف على قمته، القرآن الكريم قمة شامخة لا تضاهى ولا تقارن مهما بلغت الكتابات وأصحابها.

لقد أحدث الأدب العربى أكثر من نقطة تحول فى الآداب الأوربية (**ألف ليلة وليلة**) منذ ترجمها أنطوان جالاند Antoine Galland (١٦٤٦_١٧١٥) ذاعت ذيوعا فوسفوريا أسطوريا فى أوربا، واستفاد دانتى من **رسالة الغفران** ووصف الجنة عنده بلمح أوصاف الجنة عند محيى الدين بن عربى.

---

(١) الركوكو Rococo طراز فنى يتميز بالإسراف فى المحسنات الزخرفية من أشكال آدمية وتوريقات واقمشة وتصوير ملائكة فى هيئة أطفال وقد شاع الطراز فى فرنسا وإيطاليا فى أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر.

كما تأثر جوته بالشاعر الفارسى حافظ الشيرازى بعد ان ترجم ديوانه ج . فون هامر بورجشتال J. Vanhammerpurgstall (١٧٧٤ - ١٨٥٦) ونشرت الترجمة بين عامى ١٨١٢-١٨١٣ فجاء ديوان جيته المسمى (الديوان الغربى الشرقى) عرفانا بالقيم الكبيرة لهذا الشعر.

ومن فارس أيضا **رباعيات الخيام** التى ترجمها فتزجيرالد Edward Fitzgerald وكان قبلها مغمورا فذاع له بها صيت كبير وعرف العالم الأوربى من خلالها عالما أكثر حرية وصفاء وإنسانية فإن التأثيرات الآتية من أدب المسلمين كما يقول «فرانز روزنتال» كانت تقدم إحساسا بالتباين وشعورا بوجود بديل آخر عن «الواقع»، ووسعت النظرة الغربية إلى العالم وجعلتها اكثر تنوعا. (وليس من شك في أن ذلك أغنى الأدب الغربى بدرجة لا حد لها، وكان أحد العوامل التى مكنت هذا الأدب من التطور فى اتجاه نوع من العالمية كان جديدا فى تاريخ الإنسانية).

التراث الموسيقى:

ويصف مصنف الفارابى الضخم فيها، «الموسيقى الكبير» هنرى جورج فارمر[1]، بأنه أعظم مؤلف فى الموسيقى صنف حتى عمره.

ويقول و. رايت O. Wrilht إن نظام الموسيقى الموزونة (المازوره) أخذه الغرب عن العرب وأن أوربا لم يصبح لها نظام للإيقاعات إلا بعد ما وقفت على الإيقاعات التى وجدت من قبل فى فن الموسيقى عند المسلمين.

ويتردد صدى المصادر الموسيقية العربية فى الكتابات الموسيقية العبرية التى وضعت فى العصور الوسطى وخاصة كتاب الفارابى «إحصاء العلوم» الذى تأثر به ابن عقنين (٥٥٥ ـ ٦٢٣هـ).

كما نقله إلى العبرية قالونيموس Kalonymus كما اقتبس الأديب اليهودى سعيد ابن يوسف الكاون من مقالات الكندى فى الموسيقى فى كتابه (كتاب الأمانات والعقائد). وخاصة ما يتعلق بالإيقاع.

---

(١) (الموسيقى عند المسلمين) H.G. Farmer, the Music of Islam

وهو بحث فى كتاب اكسفورد الجديد فى تاريخ الموسيقى جـ ١، ص ٤٦٠.

The New Oxford History of Music

وقد تأثرت بالآلات الموسيقية الإسلامية آسيا وإفريقيا وأوربا ولا يـزال الموسيقيون البارزون فى شمال الهند، إلى اليوم من المسلمين.

لقد كانت الآلات الموسيقية فى موسيقى المسلمين العسكرية شيئاً جديداً على الصليبيين حتى تحدث المؤرخ جوينفيل Joinville عن تأثير الأبواق العربية، وامتد هذا التأثير كأقوى ما يكون إلى الإعجاب بالموسيقى العسكرية التركية فى أواخر القرن الثامن عشر.

وأشد ما يكون التأثر بالموسيقى الإسلامية، فى الأندلس حيث شاعت فى اللغة الإسبانية الاصطلاحات والمسميات الموسيقية الإسلامية.

التراث الفلسفى:

لقد تأثر الغرب بابن سينا تأثراً ضخما تمثل فى تعريف ألبرت الأكبر للنفس، وفى نظريته فى النبوة كما تأثر به توما الاكوينى فى الوسائل والمصطلحات ودانس سكوتس Dans Scotus فى رأيه فيما وراء الطبيعة. كما شاعت شروح ابن رشد لارسطو فى الغرب حتى لقبوه بالشارح الأكبر. (The Commentator Par Excellence)

كما لقبوا **ابن طفيل** صاحب قصة (حى بن يقظان) بالفيلسوف المعلم نفسه وقد ترجمت قصته إلى **العبرية واللاتينية والإنجليزية وكان (كيث) يعتبرها تثبيتاً للإيمان**. وترجمت قصة ابن طفيل إلى الالمانية والإسبانية والفرنسية والروسية. والأخيرة قام بها كوزمين J. Kuzmin سنة ١٩٢٠.

وقد نقل وترجم بلاثيوس كثيراً عن الغزالى وابن عربى كما درس الصوفى الأندلسى ابن عباد الرندى.

وهكذا **شكلت الفلسفة الإسلامية وأعلامها مرحلة هامة فى تطور الفكر الانسانى**.

التراث العلمى:

يطول الحديث ويتشعب أمام تراث الإسلام العلمى فلأترك هذا الكتاب (تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه) للدكتور عبد الحليم منتصر ... وكتاب (أثر العرب فى الحضارة الأوربية) للأستاذ عباس محمود العقاد، وكتاب (تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك). للأستاذ قدرى حافظ طوقان.

فقط أقف عند اثنين من علمائنا العالميين، وهما:

١- **الرازى** الذى ظل الغرب يأخذ عنه حتى القرن السابع عشر.

٢- **البيرونى** ويعتبر مارنتن بلسنر كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) الكتاب الأول من نوعه فى الفكر العالمى وموردا لا يقدر للمعلومات المتعلقة بتاريخ الأديان ومأثورات الشعوب.

هذه الاشعاعات كلها كان وراءها الإسلام. هذا التراث الإنسانى كله كان وراءه الإسلام. لقد كان المغول يسكنون صحراء جوبى .. فلما امتدوا وخرجوا منها، خربوا ودمروا وسفكوا الدماء ولكن العرب **بفضل الإسلام** حين خرجوا من صحرائهم، عمروا ونشروا معانى الحق والعدل والخير والجمال والفن والعلم وهذه كلها أنفع لروح الإنسان من كل بناء عالى الصرح. ولا ينفى هذا وجود حاكم من العتاة غير مأمون أو وال من الطغاة مأمون ... ولكن هؤلاء لم يتمثلوا مبادئ الإسلام أو لم يتشربوها وإن دانوا به ... لهذا لا يحسبون عليه ... وإنما يحسب له ما أدى وأوفى وأضاف وأضفى وهو ليس – بالهين أو القليل الشأن ... بعد أن قام عليه الدليل وممن هم غير مسلمين.

نخلص من هذا إلى ضرورة ملحة فى واقعنا هى **دراسة تراثنا فى جميع مراحله التاريخية، ومن منابعه الأصلية والأصيلة**. وهنا تظهر أهمية البرديات التى سبق لى الحديث عنها.

أعرف أن للتراث والتاريخ مصادر أخرى:

* من عالم الطبيعة كالأحوال الجيلوجية والمناخية لتحديد العصور.
* من عالم الإنسان كالآثار المادية من عمارة وفنون تشكيلية بأنواعها.

وكل له قيمته فى تكييف التاريخ على الرغم من الصعوبة وتضارب التفسير حين تتشابه الأشياء بين بلد وآخر .... ولكن البرديات **شهادة مدونة ثابتة**، حين توجد، يكون لها المقام الأول فى تأصيل وتوثيق التاريخ، وتحديد دور الحضارات وبالتالى دور الأمم فى عطايا العقل، والعلم، والفن، والعقيدة والأخلاق.

وقد بدأنا نعنى بهذا الجانب أن التركيز على البرديات، **حركة حضارية** إذ هى من أهم وسائل البحث عن الحضارات الأولى التى قامت فى الشرق الأدنى بعامة، ومصر بخاصة.

ولشد ما تذكرني هذه الحركة العلمية التي يقف وراءها مركز البرديات بجامعة عين شمس في الثمانينيات بحركة جيمس هنري برستد في ١٩١٩ حين تم تأسيس المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو لدراسة الحضارات القديمة وأوجه النشاط البشري التي حققها، دراسة جامعة متكاملة.

وتشتد أهمية الدور الحضاري للأمم القديمة العريقة في هذا العصر بالذات الذي يجتمع عليها، فيه، حروب شتى منها:

التحديث ....

التغريب

دعاوى المعاصرة والتراث

الانتحال الصهيوني للحضارات القديمة للإيهام بأنهم أصل الأشياء .. وبالتالي يتقاضون الثمن علوا في الأرض واستكبارا، ونهبا واتجارا، بل قتلا ودمارا واستيلاء واعتداء ملوحين _ بنظرية الهنود الحمر، ونظرية البقاء للأصلح، ونظرية الأمن ... الخ النظريات المغرضة والمبغضنة والمفتعلة.

نحن الذين صنع أوائلنا النهار فلا ينقص صنيعهم أن يكون للآخرين حضارة أو لايكون .. فنفوسنا لا تحكمها عقد تاريخية أو قومية ننكر معها على ذي حق حقه ... ولكننا ننكر أن ينتحل الآخرون ما أنفقنا فيه ألوف السنين ... ومن هنا يكون التفاتنا إلى البرديات أكبر كثيرا.

لم نكن في يوم من الأيام أحوج منا، اليوم، إلى صحوة علمية .. إلى البرديات في عملية تأصيل علمي وتاريخي وحضاري يساندنا وضعا وموضعا .. إننا لا نريد أن ندخل مع غريمنا في جدل إنشائي، ولكننا، ومن ورائنا تاريخ طويل خصب العطاء، نريد أن نحتكم إلى المنهج العلمي .. أي الدليل المادي المحسوس الذي فيه بلاغ يحسم التأويل، ويقطع التضليل.

وغير اليهود فقد أثبتت البرديات أن كثيرا من التراث الذي يحسب لليونان، إنما هو مصري كتبه **مصريون بحروف يونانية** ... أضف إلى هذا أن هؤلاء كانوا يتخذون أسماء يونانية أو أسماء تحمل الإضافة OS في آخرها كالأسماء اليونانية في حركة «تقية» تلجأ إليها الأمم العريقة في محنتها في عملية البقاء والمداراة ثم أخذ دورٍ ولو تحت اسم مستعار.

إن مصر هى واضعة تذكرة الطب المشهورة/ باسم تذكره نيليوس كلوس وظلت الدنيا تستعمل عقاقير مصر القديمة إلى القرن الثانى عشر.

ووضعت مصر المسيحية غالبية المصطلحات الطبية وعليها تتلمذ جالينوس ولها شهد (نيتولتكس) فى كتابه الطب الشعبى المقارن.

إن البرديات أثبتت سبق مصر بفضل هيروفيلوس، العالم طًرا، فى دراسة الأمعاء الدقيقة كما سبقت إلى اصطناع البحث العلمى بفضل اقليدس صاحب (المبادئ)[1].

لقد ظل تاريخ الشرق القديم. إلى وقت قريب، يكتب وفقاً لقوالب محفوظة، فالإغريق يمثلون العقلانية، والتاريخ اليهودى كما تلح دعاياتهم يمثل التوحيد، أما مصر فهى أرض حضارة براجماتية لم تصل إلى مستوى الحضارتين الإغريقية واليهودية فى التجريد!! ونسوا أو تناسوا أن مصر قبل ظهور الأديان عرفت الله والتوحيد والبعث والحياة الأخرى والثواب والعقاب _ والقيم والأخلاق عرفت الضمير.

إن الدراسات الحديثة أثبتت أن التوحيد لم يوجد بشكل عميق ومؤثر كما وجد فى مصر، بل إن الفلاسفة اليونانيين دأبوا على الترحال إلى مصر رغبة فى التزود بالمعرفة والعلم اللذين نسبا إليهم فى النهاية!!

وتتميز رحلات أفلاطون إلى مصر بأهمية خاصة لأنها تشكل علاقة مباشرة بين نظريات _ أفلاطون الميتافيزيقية والفلسفة المصرية، ومن هنا يظهر بل يبرز التفسير الخاطئ للثيولوجية المسيحية فى الاسكندرية على أنها الأفلاطونية الحديثة، بينما الأكثر صحة أن تعرف الأفلاطونية على أنها المصرية الحديثة.

على أن (أفلوطين) رأس هذه المدرسة، مصرى صعيدى من أسيوط ولكن يبدو أن تقارب الأسماء بين (أفلاطون وأفلوطين) أوقع فى اللبس.

ويعتبر اكتشاف مكتبة نجع حمادى القبطية ذا أهمية لانهائية لعلماء المصريات لما تحويه من وثائق تمثل الفكر الفلسفى المصرى القديم دون انقطاع، وهى تعادل فى هذا، الدور الذى لعبته المدرسة الهلينية فى إحياء الفلسفة اليونانية القديمة[2].

---

(١) (شخصية مصر) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد.

(٢) يقرأ فى هذا بحث المصرى المغترب الدكتور رشاد شكرى الذى ألقاه فى مؤتمر تورينتو بكندا الذى عقد فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٨٢.

إن ورود لفظة (كـفيـتـو) فـى النصـوص المصـرية القديمة وهـى جـزر برايجـة، يفسـر وجـوه الشبـه بين فنون كريت وصناعاتها بأصولها الفنية فى مصـر. ومثل هذا يقال عن فينيقية التى أخذت عن مصر استعمال **النحاس والكتابة والحروف** الهجائية المصرية التى أخذتها عنهم عدة لغات منها الروسية.

وظلت أوربا ردحاً طويلا من الزمـن تعزو حضـارتها إلى اليونان مـتجاهلة أو جاهلة النبع البكر والمنبع الحقيقى .. مصر.

أما اليهود فهم يتعمدون عزو الحضارة الغربية إلى اليونان لشدة وطأة تفوق مصر القديمةعلى نفوسهم وإحساسهم بالتبعية لها حتى غدت عقدتهم الكبيرة، حضارة مصر! يعترف بهذا فرويد نفسه فى كتابه: (موسى .. مصريا).

على أن عزوهم الحضارة الغربية إلى اليونان له غرض آخر خبئ .. وهو حجب مبدأ نقلهم عن مصـر واحـبـاط ريادات مصـر التى لم ينج منهـا تاريخـهم عند المنصـفين من المؤرخين مـثل جيمس هنرى برستد الذى قارن طـويـلا بين المزامير وتسابيح اخناتون .. وبين حكم مينمو وسفر الأمثال ... وبين المعبد المصرى ومعبد سليمان.

أحبت مصر الكتابة حتى سجلت خواطرها على الورق، وعلى الجلد، وعلى الخشب، وعلى الحجر، نقوشا وعلى الفخار ... وفى المتحف المصرى شظايا وبقايا فخار يعتز به البحث العلمى؛ اذ يحمل من الموضوعات، مؤشرات إلى أنواع المعاملات والصكوك .. حتى يتساقط من أحجار البناء بعد تسويتها لاقامة المبانى ملأته مصر الشعبية، كتابة ... ليس هناك، هدر، فى الوقت أو المادة (وقد وجد من لخاف الأحجار المكتوبة، أو المرسومة أو المنقوشة، عدد كبير جداً فى معبد الكرنك، مردوما بالقرب من الجدران، وفى مقابر الملوك بطيبه حيث كان النقاشون يلهون وهم فى انتظار العمل، بجمع القطع المتناثرة من الأحجار ليرسموا _ عليها صورا ترافق أهواءهم، أو يكتبوا عليها أدبا من تأليفهم، أو شعرا من نظمهم.

وقد عولجت فى هذه القطع الحجرية المرسومة أو المنقوشة موضوعات متباينة كل التباين .. منها مناظر دينية، وصور للملوك، ومشاهد لرياضة الصيد وقتال الوحوش)(١).

وأوراق البردى بلغ طولها عشرات الأمتار بل اكتشفت فى طيبه (بردية أيبرس) سنة ١٨٧٣ وطولها نحو ٧٠ سبعين قدما وعرضها ثمانون سنتيمترا (وهى محفوظة الآن فى مكتبة ليبزج)، ويرجع تاريخها إلى ١٥٠٠ ق . م .. وهى مقسمة إلى ٢٩ جزءاً.

---

(١) كتاب (أوراق البردى) تأليف الأستاذ زكى سعد والأستاذ أحمد يوسف، ص ٣.

ولاغرو فمصر المتدينة والتى كانت حضارتها دينية، اقترن الدين عندها بالكتابة، والمعبد بالمكتبة.. وكانت هذه المكتبة مجلى الفخر عند الكهنة بما تضم من علوم وتشريع وحقائق.

وكما جعلت مصر للكتابة إلهة سمتها سشات وزوجتها من إله الحكمة فى احساس دقيق وعميق ... رقيق ووثيق بما بين الكتابة والحكمة من صلات وسمات وسشات هى صاحبة الدار الكبيرة للكتب بالعرابة المدفونة. وقد وجد على جدران معبد أدفو فهرست ببيان كتبها.

وبجوار معبد أدفو معبد دار كتب حورس. وكان يوجد فيها كتاب خاص بوصف البلاد _ المصرية.

فهل كان علماء الحملة الفرنسية على علم به أم هو توافق أسماء؟

أقول: البرديات هدف أكاديمى وهدف قومى:

* جمعها هدف
* دراستها هدف ... وتدريسها هدف.
* تحليلها هدف.
* فن قراءاتها هدف.
* تصويرها هدف.
* تخديمها هدف.

إن قيمة حضارة من الحضارات تتمثل فى:

كثرة منجزاتها.

قيمة هذه المنجزات

بقاء هذه المنجزات

تأثير هذه المنجزات فى الآخرين.

وهى مهمة وعرة لا يعين عليها إلا الوثائق التى لا تقبل الجدل أو الإنكار وفى مقدمتها: البرديات.

ويضاعف أهمية هذا، وخطره، أن البرديات ليست سبيلا إلى معرفة مصر القديمة فحسب، ولكنها سبيل إلى **معرفة المسيحية**،

وإلى معرفة **الحضارة الإسلامية.**

فقد كتب المصريون بأسلوبهم ورسائلهم أبرز ما فى التاريخ المسيحى وأبرز ما فى التاريخ الإسلامى مستخدمين: **البردى.**

فكما كانت البرديات وراء ما كتب عن الطب المصرى القديم والرياضيات والعلوم (بردية «لى») والدين (بردية «شستر بينى Chester Beany) والفلسفة والقصة (بردية Orbiney و Harris) والمسرحية (بردية Anastass) (التى تتضمن رائعة ايبور الحكيم).

وكما كانت البرديات وراء ما وصل إليه العلم من القانون عند قدماء المصريين ومنه استطعنا أن نقارن بين قانونهم وقانون حامورابى الذى يتفاوت فيه الحكم بين المتقاضين وفق المركز الاجتماعى لكليهما لا العدل المطلق كما عند مصر التى استطاع فيها الفلاح الفصيح أن يفصح عما يعتقد.

إن برديات تل العمارنة التى اكتشفت سنة ١٨٨٧ والتى كشفت العلاقة بين ملوك مصر وملوك آسيا الصغرى .. تلك العلاقة التى حددتها معاهدة رمسيس الثانى مع ملك (الخطاس) أكبر من شروط صلح. إن الأستاذ جورجى الراهب يعدها ذات أهمية عظيمة إذ أنها تبين لنا قواعد القانون الدولى العام والخاص فى ذلك الحين[١].

وهو أوج من الحضارة بلغته مصر وترجمته البرديات .. ليتنا نتدارسه انجازا مصريا كما نتدارس قوانين جاءت بعده لانشائه كالقانون الرومانى.

وفى المسرح توصل العلامة الفرنسى دريتون[٢] من الوصول إلى حقائق مثبتة حول وجود المسرح المصرى القديم، وذهب إلى أنه كان هناك نوعان من المسرحيات، بعضها شعرى وهو الذى كان يؤدى كجزء من الطقوس الدينية، والبعض الآخر عاش مستقلاً عن المعبد، وطقوسه وان كان يحمل الطابع الدينى. ودلل على وجود هذا النوع الثانى من المسرح ببردية برلين رقم ١٤٣٥، وبردية المتحف البريطانى رقم ١٠١٨٨.

---

(١) اقرأ بحث (القانون الدولى والاقتصاد السياسى عند قدماء المصريين) لجورجى نجيب الراهب فى مجموعة أبحاث كتاب (تراث مصر القديمة).

(٢) دريتون (المسرح المصرى القديم) ترجمة الدكتور ثروت عكاشة ص ٤٥-٤٦.

اقرأ (من المسرح المصرى القديم: انتصار حورس) نقلها عن الهيروغليفية هـ . و . فيرمان ترجمها الدكتور عادل سلامة.

كما كانت البرديات وراء إنجازات آلاف السنين من عمر مصر القديمة استمر دورها فى مصر المسيحية ثم مصر الإسلامية. ويوضح الدكتور على إبراهيم حسن، قيمتها الكبرى فى دراسة التاريخ الإسلامى، فعن طريقها، (أمكن معرفة سيرة كثير من ولاة مصر وخاصة فى عهد تبعية مصر للأمويين والعباسيين ونظام الدواوين وأحوال مصر الادارية ونظمها الاقتصادية والحالة الاجتماعية .. ومنها نعلم أثمان الأصناف الصناعية والحاجيات والماشية وأثمان الأراضى والعقارات وقيمة النقود النسبية .. أما الحياة الداخلية فقد وضحت أساليبها عن طريق هذه الأوراق التى كشفت عن أمور دقيقة ذات تأثير فى مجرى الحوادث الجارية)[1]. ويقول: (وهذه الأوراق _ أى البرديات _ **هى مصدر هام لتاريخ مصر الإسلامية!!** يستطيع مؤرخ وصف الحياة العامة فى مصر وصفا دقيقا، دون الرجوع إلى هذه الأوراق التى أخرجت من أرض مصر[2].

والتاريخ الإسلامى على اهتمامنا العلمى، وارتباطنا العاطفى، به، كثير منه:

مبدد غير مصون

مفرق غير مجموع .. كما أشرت

إن مركز البرديات تأخر مولده كثيرا بعد أن اهتم العالم المتقدم والمستشرقون بدراسة البرديات أمثال سلفستر دى ساسى وادولف جروهمان، وكاراباتشك اللذين كتبا عن أوراق البردى المحفوظة فى مجموعة الأرشيدوق راينر Rainer بالمكتبة الأهلية فى فيينا...... «ومرجوليث» الذى كتب سفرا ضخما عما فى مكتبة جون رايلاندز بمدينة مانشستر فى انجلترا، وبيكر Beeker الذى كتب عن مجموعة شوت راينهار Schott Reinhardt و H.J.Bell وكروم Crum اللذين كتبا عن مجموعة افروديت فى المتحف البريطانى.

وهؤلاء جميعاً طراز آخر غير لامانس Lmmenas الذى طالما حجب عنه، تعصبه، الحقائق الواضحة[3]

ومن أشهر البرديات:

بردية لانسنج Lancing بالمتحف البريطانى.

بردية كوللر Koller ببرلين.

(١، ٢) كتاب (استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ المصرى الوسيط) للدكتور على ابرهيم حسن، ص ٥٤.

(٣) اقرأ بحث (مصادر مهملة فى التاريخ الاسلامى) للدكتور زكى حسن، المقتطف عدد خاص سبتمبر ١٩٧٧.

بردية أبوت Abbott بلندن.

بردية أمهرست Amherest ببروكسل.

بردية ماير Mayer بليفربول.

ليست البردية شيئاً قليلاً.

فقد تحمل بردية واحدة أكثر من مؤشر وأكثر من علامة.

وقفة مستأنية أمام بردية بولاق Boulac Papyrus وبعض ما جاء فيها:

(صن لسانك عن مساوئ الناس، فإن اللسان سبب كل الشرور .. وتحرر محاسن الكلام. واجتنب القبائح. **فإنك ستسأل فى آخرتك عن كل لفظة**).

هنا إيمان بالحساب.

(بيت الله يدنسه الصخب)

هنا مستوى رفيع من الإحساس .. من الإدراك .. من الرؤية.

(لا تكن شرها. فان الانسان لم يخلق ليأكل دائماً، بل يأكل ليحيا حياة طيبة يجعلها **طريقة لحياة أبدية**).

هنا إيمان بالحياة الأخرى .. بعد إحساس حضارى بالتعفف.

(لا تستلم إلى اليأس مهما قام فى طريقك من عقبات وشدائد).

هنا إصرار، هو صفة مصرية.

(لا تكن جالسا إذا وقف امامك من كان أكبر منك سنا أو أرفع مقاما).

إنه «إتيكيت» مصر القديمة قبل عصر الصالونات فى أوربا

(اجتنب تعاطى الخمور خشية من سوء عواقبها .. لأن لشارب الخمر، فلتات يستقبح صدورها منه متى أفاق. وهو دائما مبتذل محتقر عند الناس حتى بين إخوانه الذين يشاركونه غروره وشروره).

إنها روح إسلامية.

وما أكثر لقاءات مصر الفكرية مع الإسلام. فقدحرمت مثله لحم الخنزير وحرمت الربا وحذرت من تعاطى الخمور. وتتسع المقارنة إلى مدى فسيح بين مصر و(اليهودية) ... ومصر و(المسيحية) ...

غير مغال برستد حين يقول: (ولأمر ما كانت الأديان السماوية الثلاثة فى المنطقة التى تحيط بمصر).

فإذا خلفنا بردية بولاق، إلى بردية لندن London Papyrus ثم أصغينا، _ تهدّى إلينا صوت من أعماق الزمن .. يقول على لسان مصر:

(إذا أذل الغنى فقيرا، أذله **الله** فى الدنيا، وأذاقه العذاب فى **الآخرة**)

هنا إيمان بوجود الله .. وايمان بالثواب والعقاب .. وإيمان بالآخرة.

(من أعطى الفقير، أعطى الله).

(أعدت الجنة لمن يضحى بحياته للفقير).

إيمان بالجنة.

(لا تفاخر بالغنى أمام الفقير، ولا تظهر الفرح أمام الحزين)

إلى هذا المدى كان عطف مصر ... وإلى هذا الشأن الرفيع كان لطف مصر.. رهافة حس من طول العهد بالحضارة.

وليست دلالة هذا بالشئ الهين من حيث القيمة ومن حيث التوقيت الزمنى الذى قيلت فيه.

وكم فى طوايا البرديات من أسرار ودلالات واشارات من حقها أن نفرد لها **معهدا خاصا** ليخرج فريقا يرعاها درسا وجمعا، وصوتا، وتسجيلا، وتصويرا، وتحليلا.

الإسلام فى السلم والحرب

احتفل الإسلام بدور المجتمع فى حياة الأمة الإسلامية فشخصية المجتمع فى الإسلام ضمنتها وتضمنتها آيات الشورى وآيات المجادلة الحسنة **مما يتحتم معها وجود رأى عام له رقابة نفسية واقعية.**

ومن وسائل الإسلام إلى إيجاد مجتمع فاضل **الحياء، والاستتار**، فالحياء فيه قيد اجتماعى نفسى، والاستتار حظر للشر. (قد تكون العقوبة، علنية ولكن الجريمة يجب ألا يعلم أمرها إلا مع عقوبتها لأن إعلانها يفسد الجو الخلقى للمجتمع. ولذلك اعتبر الإسلام من يرتكب جريمة ويعلنها قد ارتكب جريمتين: جريمة الارتكاب وجريمة الإعلان).

ركز الإسلام على الحياء لأنه يقظة ضمير. فالإنسان الحيى يراقب الله فى السر والعلن، فهو لا يظلم ولا يخون ... إنه يستحى من الله أن يراه خاطئاً أو مذنباً أو آثماً أو كاذباً أو مسيئاً إلى خلقه.

على أنه ليس من الحياء كتمان الشهادة والسكوت عن الحق.

لقد أرضى الإسلام: الفرد والجماعة.

فحرية الإنتاج، والحرية الشخصية بكل ضروبها، وحرية الملكية الفردية، كلها كفلها الإسلام للفرد على ألا يضار الغير وإلا قيد الحق تقييداً مدنياً.

ومع أن الإسلام احترم الملكية وكفل ثبوتها وحقوقها إلا أنه وسع هذه الحقوق فى الظروف القاهرة بما يقرب من تعميمها تحقيقاً للتكافل الاجتماعى الذى يستهدفه الإسلام فى أحكامه وعباداته على السواء، كما حدث فى (سنة الرمادة) فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقد احترم الإسلام، الأسرة، حين جعل الوراثة فيها مجتمعة مع أولوية بعضها على بعض. ثم ألزم الوارث بالنفقة. ومن إنسانية الإسلام (وجوب النفقة مع اختلاف الدين إذا كانت نفقة الأصول والفروع) المذهب الحنفى.

ومن أصالة الإسلام أن أوجب **النفقة على الأسرة أو الدولة لطالب العلم ذى الموهبة** كما ـ قدس العمل إلى حد الحنو على الخطأ (من عمل فأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران) وهى دعوة للمحاولة والاجتهاد مع جواز خطأ التجريب.

إن العمل أعلى درجات الاقتصاد بما هو اقتصاد طاقات الإنسان وسداد توجيهها.

والعمل خير مرب للإنسان حين يقوم على مشاعر الاحترام له والإيمان به، وحين يقوم على طاقات الصبر والتجويد والخبرة.

وقد أورد القرآن الكريم لفظ العمل ما بين اسم وفعل فى ثلاثمائة وخمسين موضعا ونيف.

وهو احتفال بالعمل ودوره فى حياة الإنسان والأديان.

هذا هو الإسلام.

ليس دينا فحسب ولكنه هدى وتشريع واجتماع وتحرير الإرادة الإنسانية من رق الاستغلال والاضرار والقهر والتبعية المادية أو النفسية.

إنه دين ودولة.

هذا فى السلم

وهو فى الحرب إنسانى الأحكام والتوجيه لأنه فى جوهره **سلام.**

سلام يوم أعاد بناء الإنسان على أرض الجزيرة العربية ... سلام يوم أعاد السلام إلى نفوس تفرقت أشتاتا وقبائل متناثرة متعادية متمزقة.

سلام يوم جعل تحيته وتحية أهله فيما بينهم كلمة (السلام)

سلام يوم سمى الجنة «دار السلام».

سلام يوم رفع الله السلام وجعله اسما لذاته العلية.

سلام يوم دعا إلى المسالمة فى المعاملة والمناقشة ... وحتى عند الخطأ من الآخرين.

سلام يوم دعا إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالسيف كما يزعمون.

لقد خرج هولاكو من بادية كما خرج العرب من بادية.

وفتح هولاكو بالسيف فلم تؤثر عنه حضارة، ولم يرتفع به ذكر، ولم يخلد به تاريخ. لقد دمر هولاكو مكتبة بغداد وأنشأ العرب مكتبة الأندلس الباذخة.

وفى أندونيسيا وأفغانستان وباكستان والهند والصين وروسيا نفسها، فى هذه البلاد _ مجتمعة ما يربو على ثمانمائة مليون من المسلمين ولم يفتحها الإسلام بالسيف.

إن الإسلام يتزايد فى أفريقيا يوما بعد يوم حتى أطلقوا عليها قارة الإسلام فى القرن الحادى والعشرين ... دون سيف.

إنها قوة تأثيره الذاتية وبساطته وسماحته وإنسانيته وقابليته أو قابلية الفطرة الإنسانية له.

لقد حارب الإسلام، ناشئاً، الفرس والروم بعد أن تهددتا وجوده، نفسه. ولكنه حين يشرع الحرب دفاعا عن النفس أو دفعا لظلم فإنه يحوطها بالتشريع ويضع لها من التقاليد والحرمات ما يفتقده القرن العشرون الذى يتشدق بحقوق الإنسان ومبادئ السلام.

الإسلام «حياة» وأعماق إنسانية وأبعاد حضارية

صورة مشرقة متكاملة

العجز عن فهمها والقصور عن معناها إساءة إلى الإسلام.

توهج الإسلام بحب الحياة فاعترف بمتاعها ومتعتها .. أقر زينتها وطيباتها وطيوبها فلا انطوائية ولا قوقعة ولا جمود ولا تشدد فهو يسر، أمر المسلم أن يوغل فيه برفق فإنه لا يشاد الدين أحد إلا غلبه .. إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ...

الإسلام أنيق يحب الجمال والزينة والنظافة .. أوجب طهارة الجسم كالروح وزكى الطيب والخضاب، وأباح التزين وأتاح المتعة فى غير حرام، وألزم بالوضوء والاغتسال فكان نظاما جامعا للدين والدنيا

إن الإسلام لا يرفض إلا الإلحاد. لقد اعترف الإسلام بالكتب السماوية قبله فى صورتها الأولى، كما أنزلت

إن الإسلام حين يقول [كنتم خير أمة أخرجت للناس] يشترط هذا أو ما يقرنه بقوله فى تمام الآية [تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر] ... كل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى عداد الخيرين الأخيار ...

[إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون]

٦٢ م البقرة.

ويقول الله تعالى: [ولقد كرمنا **بنى آدم** وحملناهم فى البر والبحر] أى كرم **الإنسان...** فى كل جيل وقبيل.

ويقول: [ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا، الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون]

المائدة ٨٢.

وكان صحابة الرسول عليه السلام: «بلال **الحبشى**» و«أبو رافع» **القبطى** أصلاً، و «سلمان **الفارسى**».

لقد عاش اليهود مرفوضين مضطهدين من جميع الأمم وفى كافة العصور فلم يحسن معاملتهم إلا المسلمون وفى أوج نفوذهم، فى الأندلس ولم يجدوا الأمان إلا فى دولة الإسلام وشهد بهذا د . ج . هـ . هرتس حاخام إنجلترا فى كتابه (فى الفكر اليهودى).

نهى الإسلام عن التكفير فحين أقبل أحد أعداء الرسول على مجلسه خشى أحد أتباعه عليه السلام وعلا الرجل بالسيف فغضب صلى الله عليه وسلم وقال قولته المنصفة والسمحة [هلا شققت عن قلبه؟]

كان وراءه، القرآن الكريم الذى يقول فيه جل شأنه:

[ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة]

ويقول سبحانه [لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى].

وهنا نتبين أن الإسلام **لم ينتشر بالسيف**. لقد كان فى موقف دفاع ... إن الدولتين الكبيرتين فى إبان ظهوره كانتا تتهددان وجوده إن ما عند الروم والفرس من السلاح أكثر ولكنها قوة المبادئ والروح.

لقد فتح هولاكو بالسيف فدمر فلم يدم له ذكر ولم يقتنع به عقل ولم يحبه قلب ولكن الإسلام حين فتح، عمّر وبنى ٢٥ مدينة منها «بغداد» فى العراق و«اللد» فى فلسطين.

وحين شرع الإسلام، الحرب للدفاع عن النفس، نهى عن الظلم والتدمير **وأحاطها بالتشريع** وحرم التمثيل بالميت وقتل النساء والأطفال وبقر البطون مما ترتكبه الحروب الحديثة على الرغم من ترديد حقوق الإنسان .. فلا مراء أن تناشد وثيقة الفاتيكان التى طبعت للمرة الثالثة سنة ١٩٧٠، [فتح الحوار بين المسيحيين والمسلمين معترفة بمظالم الماضى التى ارتكبها الغرب فى حق المسلمين ودعت إلى استبعاد تلك الصورة البالية التى ورثنا الماضى إياها _ نص الوثيقة _ أو شوهتها الإفتراءات والأحكام المسبقة.

Orientations pour un dialogue entre Chrétiens et Muslums.

إن **التوحيد سر البطولة فى الإسلام** ... فيه سمو على الأشياء وعلو على الصفات.

إن التوحيد الإسلامى هو المحور الثقافى.

توحيد **الذات** فلا انفصام ولا تشقق

توحيد **المجتمع** فيبرأ من الشيع والتطاحن

توحيد **العالم** نحو القيمة الكبرى أى الله

ومن هنا يأتى التدين فى الإسلام تفسيرا ت وجدانية ارتفعت على لغو الكلام وعقم الجدل وأترعت بسلام وطمأنينة هى حكمة قلب حقق عمليا معنى التوحيد ومعانى الرحمة والبناء وعز الاتقان ونعيم البر بالحرفة، وأبهة الخلق المنطلق والمطلق، وصمت الخاشع المستمع وهناءة المستمرئ السعيد.

الإيمان فى الإسلام هو ما استقر فى القلب وصدقه العمل، فلا يقول قائل (لا حول ولا قوة إلا بالله) ثم يخاف من إنسان حاكما أو محكوما ... ولا نقول (إياك نعبد وإياك نستعين) ثم نتخذ من دونه أربابا.

ومن هنا يكون **الإسلام كرامة واعتدادا** .. فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

إن كلمة (**الله أكبر**) فى الإسلام تصنع المعجزات قالها جنودنا مسلمين ومسيحيين عندما عبروا سنة ١٩٧٣ فانتصروا على عدوهم الذى ملكه الغرور وتحدى وتجبر بخط بارليف وادعى أنه لا يقهر.

الله أكبر

قارون غنى ... الله أكبر

هولاكو طاغية ... الله أكبر

سليمان ملك ... الله أكبر

لقمان حكيم ... الله أكبر

من إشراقات الإسلام استهلاله فاتحة الكتاب بأن الله «**الرحمن**» .. «**الرحيم**» من بين أسمائه الحسنى جميعا

إنه دين الرحمة ...

إنها رحمة أن يضاعف الإسلام الجزاء فى الحسنة ويقصره على «المثل» فى السيئة.

الرحمة فى الإسلام علاقة بين الإنسان وخالقه تظلل الإنسان بالطمأنينة من لدن الرحمن الرحيم .... بينما التوراة قلما ذكرت الرحمة .. حتى حين ذكرت الرحمة وردت فى سفر التثنية (السفر الخامس) الذى يعزو الدكتور فؤاد حسنين وضعه إلى محاولة إنقاذ مملكة يهوذا، أى أنه مستحدث لغرض، ولهذا يخالف الأسفار السابقة ... حتى الوصايا العشر عرضها (عرضا جديداً يخالف العرض الآخر الذى ورد فى سفر الخروج).

والرحمة فى المسيحية تُلتمس من الله، ولكنها فى الإسلام وعد من الله أى أمر محقق أو (حق) كما يقول الدكتور كامل حسين فى كتابه (الذكر الحكيم) .... أمل مطروح ومفتوح وهو شعور يزيد فى طمأنينة النفس المسلمة.

من ميزة الإسلام أنه **أسلوب حياة** ... نمط سلوك من أبسط الأشياء إلى أعلى الأشياء.

دين الاتقان تجويدا للقرآن.

وتجريداً للخط العربى حتى غدا تسعين قلما.

دين البساطة الخالية من التعقيد فالمسلم يتصل بالله بدون وساطة (إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به وإن أتيتكم بشئ من أمور دنياكم فأنتم بها أعلم) أو ما معناه

وهو درس فى احترام الإنسان وعقله وإرادته وحريته.

وقد توطد هذا الاحترام الجامع فى المساواة ...

حارب الإسلام، العلو، فى الأرض فالمساواة دعوته لا شريعة الغاب يوم أعطت الدول الكبرى (حق الفيتو) لمجرد أنها قوية أى مرخص لها بالبطش والافتراس .. ومن يعترض تستعمل (حق الفيتو) أو استثناء الفيتو بتعبير أدق.

من أدب الإسلام: **الترابط**

الزكاة ربط بين الغنى والفقير فى غير منّ أو أذى

والحج رباط بين المسلمين جميعا على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم أخوانا فى العقيدة والدين والإيمان والهدف والغاية يتعارفون ويتقاربون ويتشاورون ويقدرون مسئولياتهم المشتركة فهو مؤتمر إسلامى كبير.

قدس الإسلام العمل ومع هذا حثنا على الخطأ الذى يعنى المحاولة والتجريب.

إن الإعلام يركز على القيمة الاقتصادية للعمل وينسى دائماً القيمة الإنسانية التى تكتسب من الخلوص للعمل والخلوص نقطة لا ترى ... نقطة تلاقى الكيان الإنسانى بمذخوره، مجمعا، فى سن القلم أو الريشة عند ملامستها للصفحة أو اللوحة.

ومن هنا يكون الصمت فى العمل، سبيلا إلى التجويد الصمت فى العمل جمع للنفس وميلاد للقيمة

إن العمل فى الإسلام قرين الإيمان. إن الثقافة الدينية الحقيقية جزء منسى من تربية الإنسان فى هذا العصر ثم تعجب كيف ينحرف الشباب. إن إهمال التربية الدينية هو قص من جذور الشجرة ثم نتساءل عن سبب اصفرار الأوراق.

وحين احترم الإسلام، الإنسان، سحب الغرب أو العصر الحديث السجادة من تحت قدميه. سئل يونج عن سر أزمة أوربا فى كتابه The Undiscovered Self فقال (هى **ضياع الفرد)**

ولم يكن «يونج» وحده ممن نقدوا الحضارة الغربية: «برناردشو» فى كتابه (دليل المرأة الذكية)، وديوى فى كتابه عن الفردية القديمة والحديثة Individualism Old and New الذى أشار فيه إلى التشقق فى النفس الأمريكية و Alexes Karelle الفرنسى فى كتابه (الإنسان ذلك المجهول)

إن كمال الحضارة أن يكون كل فرد فى المجتمع له مكان لا يغنى غناءه أحد، فيه. ولكن الإنسان المقيد بالحشدية، إنسان نمطى كاليونفورم.

من قوة الإسلام ووثوقه فى نفسه، أن **دعا إلى التفكير والتأمل ...**

ليس فيه ضعف يخيفه ويخفيه بتحريمه المناقشة.

من قوة الإسلام ووثوقه اعترافه بالحضارات كالأديان لم يكن موقفه الرفض بل القبول وهو علامة قوة ووثوق وتفتح وانفتاح وسماحة وعمق ادراك.

أكب المسلمون على الاسكندرية ينقلون فلسفة أفلوطين أو كما يدعوه الشهرستانى، خطأ، (الشيخ اليونانى وهو مصرى صعيدى)

وكما نقل الإسلام الفلسفة نقل الجغرافيا والفلك والكيمياء والرياضة والطب والهندسة والطبيعة ...

والطبيعة الخصبة هى الصالحة للتلقى ... إذ تجمع لهم من التلقى والنقل والترجمة قدر طيب، أخذوا فى بناء حركتهم العلمية وحضارتهم الإسلامية التى بهرت أوربا حين قامت له دولة فى الأندلس ... حتى الكنائس الأوربية تأثرت بالكنائس الشرقية المتأثرة بدورها بالفن العربى فظهرت فى الكنائس الأوربية الزوايا والبروج المستديرة.

* **ابن الهيثم** فى الهندسة التحليلية... وهو أبو البصريات الحديثة وقد أثبت فى كتاب (المناظير) قوانين انكسار الضوء ودرس حركة الأجسام ووصف جراحات العيون وأطلق الأسماء على أجزاء العين مثل الشبكية والقرنية والسائل الزجاجى.
* **ابن سينا** عنه نقلت أوربا كتاب (القانون) فى الطب.
* **الزهراوى** وعنه نقلت أوربا مرجعها الأكبر فى الجراحة وتجبير العظام وهو كتاب (التعريف لمن عجز عن التصريف) وقد طبع باللغة اللاتينية. وقال العالم الطبيعى «هاللر» فى رواية جوستاف لوبون إن كتب أبى القاسم كانت المراجع للجراحين جميعا بعد القرن الرابع عشر للميلاد.
* **الرازى** (٨٥٠ – ٩١٢) كان جراحا عظيما كما كان أول من فرق بين مرض الجدرى والحصبة وألف عنهما ومن مؤلفاته كتاب (الحاوى) ويعتبر دائرة معارف طبية من ٢٤ مجلدا.
* **ابن النفيس** أول من وصف الدورة الدموية فى الأوعية الصغيرة وصفا صحيحا.
* **ابن البيطار** فى الصيدلة صاحب كتاب (الجامع فى الأدوية المفردة).
* **جابر بن حيان** ترجم الغربيون له سبعين كتابا كما ترجموا له كتاب (تركيب الكيمياء) إلى اللغة اللاتينية.

أما **مدرسة الإسكندرية** فتقف علامة ومنارة للحضارة الأوربية سعت إليها ونقلت عنها وترجمت لها الكثير والغزير.

يقول الكاتب الإسبانى الكبير (أبانيز) فى كتابه (ظلال الكنيسة) عن غزو العرب لإسبانيا كما أسلفت:

[لم تكن غزوة فتح وتدويخ بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة. ولم يتخل أبناء هذه الحضارة زمنا عن فضيلة حرية الضمير وهى الدعامة التى تقوم عليها كل عظمة حقة للشعوب. فقبلوا فى المدن التى ملكوها كنائس النصارى وبيع اليهود .. ولم يخش المسجد، معابد الأديان التى سبقته فعرف لها حقها واستقر إلى جانبها غير حاسد ولا راغب فى السيادة عليها .. ونمت على هذا بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر **أجمل الحضارات وأغناها فى القرون الوسطى**].

وشهد شاهد من أهلها.

بقيت كلمة: إن «امريجو» أحد أعضاء رحلة كولمبس إلى أمريكا «امريجو» هذا الذى سميت باسمه أمريكا بما له من يد طولى فى اكتشافها .. كان متأثراً بالمسلمين فى الأندلس تأثرا عميقا حتى أنه بعد عودته من رحلته، أعلن إسلامه على الرغم من وجود محاكم التفتيش.

هذا هو الإسلام عقيدة .. وشريعة .. وتاريخا .. وحضارة وارفة الظلال.

الإسلام حضارة ورسالة

كان مبعث الرسول عليه السلام، إيذانا بالحضارة الإسلامية إذ كان نهاية عهد وبداية عهد .. فلم تكن رسالته حين بعث مجرد طقوس ولكنها كانت شعائر وشرائع أى دينا ودولة .. أى إنسانيات وسياسات ونظما وسلوكا فى الحياة وطابع شخصيته.

حيث توجد (أخلاق)، توجد حضارة راشدة أى ضمير حضارى ... وحياته قبل الرسالة كانت هذا الضمير ...

لم يكن له مال وهو فى الذؤابة من قريش .. ومع هذا سلمت نفسه من الشح والجشع والرغبة المحمومة فى الإثراء السريع أو البطىء فكان عفاً شفاً، شاعت بين القوم عفته فلقبوه بالأمين.. واشتهرت بينهم رجاحته فحكموه حين اختلفوا على وضع الحجر الأسود وارتضوا رأيه فى التحكيم.

واتصلت سيرته كما تتصل الملاحم الكبرى فى التاريخ .. تتعاقب الأيام والسنون ولا تبلى بل تروع وتتجدد وتضوع .. فله على كل قلم ذكر، وله فى كل قلب مؤمن، مكان .. وله على كل لسان، سلام، ما جلجلت فوق سامقات المآذن كلمة «الله اكبر».

أدى محمد الرسول، رسالة، ونشر دينا، وكون من الشتات، أمة، وخلق من البداوة، حضارة طلعت شمسا على الغرب والشرق.. وهذا عندى معجزة فى ذاتها .. معجزته الكبرى فاستحالة أن يأتوا بسورة من القرآن، معجزة عصر ولكن أن يؤلف من القبائل المتنازعة .. ومن «الأيام» المروعة، ومن العادات المفزعة، أمة ومن العرف، دولة، ومن الجاهلية، حضارة .. ومن الضعف، قوة وعزة وغلبة .. أن يصنع هذا كله أعزل أميا، معجزة الدنيا .. والإنسان فى أى مكان .. وفى كل زمان سواء لدينا من آمن به، ومن ناوءه.

هيأ الله للعرب، الإسلام، بسماويته، والرسول بقدوته فصنع الدين والقوة رجالا من طراز آخر واعد .. رجالا كانوا إرهاصا لحضارة جديدة من حضارات الإنسان فعمر ابن

الخطاب فى الجاهلية، كان سيدا سيادته قوة وفتوة فحسب .. ولكن عمر بن الخطاب هذا، صنع منه الإسلام مثالا **عزيزا عاليا للعدل، والحق، والرأى، والفتوى، والتشريع، والسياسة والحكم.**

استطاع الإسلام أن يتغلغل فى نفسه ويكيف تفكيره، واستطاعت شخصية الرسول أن تأسره وتكيف بالقوة، سلوكه .. فارتفع فى الفعل والقول والرأى، والتدبير والحكم حتى غدا كتابه فى القضاء وكتابه فى قيادة الجيوش، قيما إسلامية حضارية وهما فى الوقت نفسه دستوران فى بابهما لم يعف عليهما الدهر.

(بسم الله الرحمن والرحيم .. من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس سلام عليك .. أما بعد، فإن للقضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آسى بين الناس فى:

وجهك وعدلك .. ومجلسك

حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك .. البينة على من أدعى، واليمين على من أنكر.. والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا..

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع الى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل.

الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله، وأشبهها بالحق .. واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، والا استحللت عليه القضية: فإنه أنفى للشك، وأجلى للعمى.

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد، ومجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا فى ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر، ودرأ بالبينات والإيمان.

إياك والضجر، والتأذى بالخصوم، والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر.

الفهم الفهم فيما تلجج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ...

(ومن هنا كان الاجتهاد روح الثقافة الإسلامية).

(لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق).

ومن هذا المنطلق الكريم والشجاع، كان سلطان العلماء العز بن عبد السلام. لم يكن هذا كله محصلة عمر بن الخطاب «الفرد» على عظم حظه من نوابغ الصفات وأخلاق الرجال، ولكنه محصلة الدين الجديد والرسول الجديد.

ولد فى الإسلام، الذين صاروا بسماحته أحرارا.

وولد فى الإسلام، المتنابذون، الذين أصبحوا بنعمته إخوانا.

ومن أعطاف رسول الإسلام خرجت القدوة فكانت نبراسا وعلامة طريق. لقد شغل الدنيا، والناس، والاقلام، حتى المستشرقين.

ألهم وهو النبى الأمى، الكاتبين من المسلمين وغير المسلمين، عشرات الكتب وألوف الصفحات .. بعضهم أطرى مناقبه، والبعض الآخر، كابر، إذ، له، غرض خبئ ولكنه على الحالين، كالشمس فى متوع الضحى لا يزيدها سطوعا، رؤية عين، ولا يغض منها ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر .. لقد شغل فى الحالين، الحياة والناس .. شغل التاريخ والمؤرخين .. دخل قلوب المؤمنين وعقول المفكرين .. قامت باسمه الدول وارتفعت أعلام .. اهتزت عروش وظهرت عروش .. ولدت امبراطوريات ودالت امبراطوريات .. تغير التاريخ فى الشرق والغرب.

فعل محمد هذا كله لأن الدين الذى أتى به كان سلاحا فى الروح وسلاما على الأرض وهو سلام فى الروح يستقر ايمانا فى القلب، ويتبدى صدقاً فى العمل، ويتهدى ارتفاعا فى السلوك .. فلا يقول قائل (إياك نعبد وإياك نستعين) ثم يتخذ من دونه أربابا.

كانت الرسالات قبله دينية بحتة، ولكن رسالته كانت دينا وشريعة شرعت للناس فى أمور حياتهم ما قامت عليه القوانين فى الشرق العربى ولم تزد عليه القوانين فى الغرب.

وضع الإسلام النظم للحرب والسلم، كما شرع الإسلام التحكيم الدولى، وشرع حرية البحار، ورسم ماهية العلاقات بين الدول .. وعرف الملكية، وحدد المسئوليات الجنائية منها والمدنية.

هذا كله فى إنسانية عميقة تعلى سلطان الضمير، حتى لا يفلت الجانى من حسابه، ولو أفلت من القوانين الوضعية والسلطات الحاكمة.

إن الإسلام بعد أربعة عشر قرنا يفرض وجوده بصلاحية شريعته بأبعادها وأعماقها المختلفة، على المؤتمرات العالمية، حتى ليعلن نقيب المحامين فى باريس بلد القوانين والدساتير أن (الشريعة الإسلامية لها من العمق، والأصالة، والدقة، وكثرة التفريع والصلاحية، ما يقابل جميع الأحداث).

أليس غريبا أن يضطلع بهذا كله نبى أمى وحده، حين كانت الرسل قبله، تنوء بدعوة محدودة فى عدد محدود فكان الله يرسل اثنين فى زمن واحد، بل ويرسل ثلاثة أحياناً: (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث).

أليس غريبا أن يفجر نبى أمى بدعوته، كل هذه النظم والقوانين، والعلوم الدينية والمدنية؟

أن يصف المسلمون نبى الله بما هو أهل له، ليس بغريب .. ولكن أن يقف غير المسلمين إزاءه، فى دهشة لا تخفى يحللون ويفسرون، فذلك هو العجب العجاب .. هذا «مونتجومرى وات» يؤلف كتابا عنه بعنوان (محمد النبى ورجل الدولة) جاء فيه:

(إنه صاحب الامبراطورية المترامية الأطراف والتى ظهرت على مسرح الوجود بعد وفاته).

«ومونتجومرى وات» يعزوها إلى بعد نظره السياسى .. إلى حكمته وحصافة نظره وصدق رأيه فى الرجال .. إلى البناء المحكم الذى وضع قواعده بحيث يثبت على العواصف حتى أن هذا البناء تخطى محنة موت الرسول بسرعة ومضى فى طريقه قدما، مزدهرا محققا من الإنجازات ما يثير العجب والإعجاب معا.

أقول إن قوة الوثوق بالرسول عليه السلام علامة كبيرة فى تاريخ الإنسان لم توف بعد حقها من الكتابة. لقد لاحظ «ديورانت» فى (قصة الحضارة) صلاحية الإسلام الذى جاء به محمد عليه السلام لمجتمع دائم، صلاحية تجمع بين الواقع والمثال ..

وقد لاحظ العلماء المحدثون منذ «سنوك هوجرونير» ارتباط القانون بالدين فى بلاد الإسلام، حتى ليربط الأستاذ أ . فيظى: بين النظام القضائى فى الهند فى العصور الوسطى وبين الإسلام عندما كانت الهند العليا تحت سلطان الملوك المسلمين.

ويقول د . أ . ح . قريشى وزير المعارف فى باكستان: (إن تجانس الشعوب الإسلامية كلها من أعظم مظاهر تأثير الإسلام ومجالى نفوذه وأدعاها إلى الدهشة .. إن

تماثل كل الشعوب الإسلامية وإطرادها أروع وأعجب من اختلافها .. وهذا صحيح إلى حد بعيد، وينطبق على مسلمى شبه القارة «الهندية الباكستانية» أيضاً.

إن أثر الإسلام فيهم عميق وحقيقى.

وهذا القول استقيته من بحثه «أسس الثقافة الباكستانية» في مؤتمر برنستون.

وفى مجال انبهار غير العرب بانتشار الإسلام ورسوخه يقول أرنولد فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) عند الحديث عن انتشار الإسلام بين مسيحيى إفريقية وهو بصدد مصر: (ليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن دخولهم فى الإسلام على نطاق واسع، كان راجعا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم، بل لقد تحول كثير من القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت الاسكندرية، حاضرة مصر وقتئذ، لاتزال تقاوم الفاتحين). ص ٩٣.

يقول روبرت بريفانت فى كتابه (تكوين الإنسانية): (لم يكن العلم فقط باعث الحياة فى أوربا، بل الآثار العديدة الأخرى من الحضارة الإسلامية التى أفاضت إشراقها الأول على حياة تلك القارة).

أقول إن ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام، كان مولد أمة ودولة وحضارة وأن عظمته الحقيقية فيما جاء به من الشرائع والشعائر، وما طابق القول العمل من سيرته وشخصيته، حت يخلق بالقوة العالية أكثر من نقطة تحول، على مستوى الفرد والجماعة .. جعلت من الإسلام ثورة إنسانية تتمثل فى النقلة التى حدثت لأبى ذر الغفارى الذى تحول مما كان عليه، إلى العدل والإحسان.

إن الإسلام دين الفكر حتى ليسمى أهل الرأى: «أصحاب النظر» كان الرسول صلى الله عليه وسلم صادقا أمينا فملك الدنيا حاضرا وراحلا لا يغيب. كان زاهدا لأنه يعرف أن غنى الإنسان بما يحويه لا بما يقتنيه، وقد ضم جوانحه على كنوز من القيم والمعانى والسلوك.

الإسلام فى أفقه الأعلى حضارة

الإسلام والرمز

حين يختار الرسول الكريم، فى مرضه الأخير، أبا بكر ليؤم الناس فى الصلاة، فإنما هو رمز سيضاف إلى رأيه فيه، وموضعه منه، ونيابته عنه ولكنه لم يتجاوز الإيحاء إلى الإملاء والفرض بل يظل حق الناس الكامل فى الاختيار وقد استعمل هذا الحق الشرعى، الأنصار، عقب وفاة الرسول عليه السلام. وكاد الخلاف يحتدم فى سقيفة بنى ساعدة، لولا أن عمر رضى الله عنه حسم الموقف اذ تقدم لمبايعة أبى بكر فتبعه الناس.

وهى دلالة ومؤشر.

فالرسول عليه السلام نبى له مكانة عند الله ومكانته عند الناس وأبو بكر ثانى اثنين فى الغار وأول من أسلم من الرجال ولكن هذا كله لم **يحجب حق الناس فى الاختيار**.

والدلالة الأخرى أن الرسول عليه السلام، لم يضع فى هذا المكان الرمزى واحدا من عشيرته الأدنين أو أثيرا من الأقربين، لا تحمل (الخلافة) **معنى الحصر فى أسرة أو فئة**.

كان الرسول بهذا، يضع دستورا يقضى بأن يكون أمر المسلمين بينهم احتراما لارادتهم وإعلاء لمشيئتهم واستجابة دائمة لا تغيب للأية الكريمة (لست عليهم بمسيطر) والآية الكريمة (وأمرهم شورى بينهم).

يفعل هذا وهو النبى الرسول.

يفعل هذا وهو الذى قال فيه ربه (وما ينطق عن الهوى). يفعل هذا وقد اجتمعت قلوبهم على محبته، ورجاحته، وحكمته، ورسالته، وأفضليته.

وكلها دلالات ومؤشرات يقترن النجاح بها.

وحين أصبحت الخلافة ميراثا يأخذها «معاوية» غصبا ليزيد على ما فيه، توالت الأحداث فسقطت الدولة الأموية قبل تمام سنة (١٣٢ هـ).

وفى الدولة العباسية تحارب الأمين والمأمون وقتل المستنصر، أباه وسخر الشاعر البحترى من محاولة الإمساك بالجانى فقال:

(الموتور بالدم واتره).

رمز أن يقول الرسول الكريم (إذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم واحدا).

رمز إلى أن الرياسة شكل تنظيمى وهو يعنى التنظيم لا الأمر. إنه عليه السلام يعنى بهذا أن الرياسة، اختيار نابع من إرادة الأمة، لا تعيين.

رمز، اسم الإسلام نفسه، فحين تنتسب الأديان قبله إلى أصحاب الدعوات فيها ينتسب الإسلام إلى الله وحده. وينتسب المسلمون إليه ... إنهم مسلمون لا محمديون.

اسم الدين الحنيف (الإسلام) رمز. من السلام الذى هو اسم من أسماء الله. وأسماء الله أكبر وأجل الأسماء. وهذا رمز إلى شموليته فهو دعوة تشمل الناس جميعا. ورسول عليه السلام يقول (بعثت إلى الناس كافة).

إنه دين الله إله الناس والأنبياء.

إنه إسلام أى تسليم سلامى لله (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى). لقمان ٢٢

غار حراء فى سيرة الرسول، رمز.

إن خلوده إلى غار حراء من أجل التفكير، فى الحقيقة، يعلمنا أهل العزلة للتصفية .. للقاء الذات .. لإعادة حساباتها .. لعلنا إن لم نصل إلى الحقيقة فلا أقل من أن نشارفها.

الحقيقة رؤية، كما كتبت مرة، عندما يتطلع إليها الإنسان يعطى عطاءه فالفنان يبدع الرائعة الفنية، والفيلسوف يضع النظام الفلسفى، والعالم يضع النظرية، والحقيقة ذاتها من الكثرة والوفرة بحيث تعبر الفلسفة والعلم والفن والقصة والمسرحية وسائر الألوان ثم يتبقى منها غزير لا يدركه الإدراك. وهناك ندرك قول «اينشتين» بأهمية الخيال .. فالخيال شوق إلى الحقيقة .. وبالطبع أقصد خيال الرؤى لا خيال التوهمات.

وقد انتشر الإسلام بإيقاظ النفس إلى الحقيقة .. إلى الجوهر.

(أينما تولوا فثم وجه الله).

فرؤية القرآن لله، رؤية محيطة فالإسلام يستحضر ملكوت الله فى داخل النفس وخارجها وماوراء المحسوس .. وحين تمثل الفن الإسلامى هذا المعنى، خرج خلاصة مقطرة للحيوية والحياة.

لماذا يركز الإسلام على العمل؟ إنه إيمان .. ونحن حين نتهم الشباب بقلة الانتاج، ننسى أن السبب أولا عدم الوعى الدينى وفن العمل .. العمل الذى يحبه صاحبه لا الذى يعين فيه .. إنه هنا فن توليد الحب.

الشهادة فى الإسلام رمز الإقرار. التوحيد رؤية رائعة.

إن التوحيد فى الإسلام، رمز رفيع ومنيع فحين جعل العبادة لله وحده، أطلق حرية الإنسان مادام لا إله الا الله .. فمم نخاف؟ إن التوحيد سر البطولة ولولا هذا لتهيبوا الإمبراطوريات ولخافوا الأباطرة.

الله أكبر هزمت الروم والفرس فى القديم.

والله أكبر هزمت إسرائيل وأعوانها فى الحديث.

التوحيد ذروة من الإدراك الوجدانى والذهنى فهو فى العلم إجماع وتوثيق وهو فى الصحة النفسية يعنى تكامل الشخصية وهو فى الوطن يعنى أن الكل فى واحد .. وهو عند الشعراء والفنانين يعنى وحدة العمل الفنى إن الوحدة علامة القيمة ولكننا بمواضعات عصرنا وواقع سلوكنا، بعيدون عن التوحيد .. كل منا له هوى وكل منا يتخذ إلهه، هواه وهى وثنية .. الجاه وثن، والمنصب وثن، والهوى وثن .. والشهرة وثن .. والتعصب وثن، ونحن نعيش فى هذه الأوثان على الرغم من الأديان حين يقول اندريه مالروا إن **المستقبل للدين.**

إن الإنسان الوافر هو الذى يمكنه أن يجمع فى تكامل ما تراه العين المزودة بالعلم من مدركات، وما يراه الفن المترع بالموهبة من جمال .. وما يراه الدين المنزل من السماء من قداسة وتبتل وكشف.

(ألم نشرح لك صدرك)

ليس بالسرور ولكن انفتاح القلب للحقيقة.

الصلاة فى الإسلام .. فى معناها الرفيع، خلوص .. خضوع .. تنقية للنفس.

تخجل معها من الفحشاء والمنكر لأن الصلاة الصحيحة تنهى عنها.

ومن الخلوص فى الصلاة، الاستغراق الكامل .. كم مصليا الآن يقف على عتبة هذا الاستغراق؟

ليس من الصلاة إذاً الجهر والصياح والتظاهر بالتقوى رئاء الناس واشتهاء المدح كما كان يحدث.

الصلاة صلة بين الله والإنسان وهى فى الإسلام تطهير للذات وانفتاح بها للنور .. رفع اليدين فى الصلاة استشراف إلى العالى .. إلى السامى فى عطية مجاهدة وخلوص وهذا يفسر الآية الكريمة (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لماذا؟ بفضل هذا النور.

قولنا فى الركوع (سبحان ربى العظيم) رمز يفسره قولنا فى السجود (سبحان ربى الأعلى) لأننا فى السجود يتواضع الإنسان لله حتى يصير (الأدنى) للأعلى. سجود القلب حين يتجرد من الصلف لا وضع الجبهة على الأرض.

الوضوء فى الإسلام رمز .. إنه تطهير للحواس كلها مما تكون قد أتته من مشاهدة الباطل أو قول الزور أو من المحرم .. غسل للنفس كلها قبل الوجه أو اليدين أو المرفقين.

إنه وضاءة روح

كثيرون يشتغلون (بنقض الوضوء) مع أن هذه المشكلة الخطيرة يحلها كوب من الماء وإلا لماذا يغنى التيمم عن الوضوء أحياناً؟ إن المسألة الاستعداد النفسى.

الزكاة فى الإسلام، رمز .. فالتكافل الاجتماعى حق معلوم وبهذا يحفظ الإسلام كرامة الفقير .. إن رعايته أحد الأركان الخمسة التى بنى عليها.

إن الصوم فى الإسلام، رمز فهموم الدنيا تتلخص فى:

- الانشغال بالطعام والشراب.
- الحرب أو رد الإيذاء.
- صغائر الحواس الخمسة.

والصيام الحق، ارتفاع فوق هذا كله وهو معنى أكبر كثيرا من الجوع والعطش. إنه وحدة واتفاق .. إنه نظام وانتظام .. إنه التقاء ومحبة يجمعها سلوكيات رمضان.

الحج فى الإسلام رمز

الإحرام: تجرد من التباهى بنفاسة الثياب.

رمى الجمرات رمز إلى رغبة النفس فى طرح الشر والانصراف عن وسوسة كل أمار بالسوء.

تقبيل الحجر الأسود تحية وحب عبر عنه العظيم عمر بن الخطاب حين قال (والله إنى لأعلم أنك حجر لا يضر ولا ينفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك).

التكبير رمز: إن أعظم كلمة فى الإسلام كما يقول الدكتور كامل حسين كلمة (الله أكبر) فحين يغتر إنسان بقوته أو ماله أو سلطانه فالله أكبر. يقولها المسلم فى الحرب فتعينه على العدو .. ويقولها المسلم فتعينه على الصعاب فيقتحم العقبة.

رمز من رموز الإسلام حين يقول المولى عز وجل عن القرآن الكريم:

(لا يمسه إلا المطهرون) المقصود ليس اللمس ولكن اللمسة التى تشعل الروح، وتسعد القلب، وتفتح للنفس آفاقا بعادا .. وهذه اللمسة لا تتحقق إلا بالصفاء فينكشف لصاحبها المكنون فإذا به قد أبصر بعد أن رأى وما أبعد الفرق بين النظر والبصر.

رمز، قول الله سبحانه وتعالى لموسى (فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى)[(١)] إنها دعوة إلى نظافة الروح والبدن حتى يستطيع المرء أن يقترب من الرحبات العليا.

رمز، قول الله جل شأنه (ولهم آذان لا يسمعون بها) إذن السمع ليس الجهاز السمعى ولكن النفاذ إلى دبيب الصمت .. كما أن النظر دون البصر أى البصيرة وهى رؤية ثاقبة وذلك فى الآية قبلها (ولهم أعين لا يبصرون بها).

رمز، الأوصاف المادية للجنة فى القرآن الكريم .. تفسير .. فالنخل والرمان وكأس كان مزاجها كافورا لتقريب الصورة للبسطاء بدليل قوله تعالى: (فواكه وهم مكرمون) أى غير محتاجين لحفظ الجسم أو إشباع جوع بل هو تكريم وتنعيم .. حتى الزواج فيه رفقة علوية (أزواج مطهرة) وزوجات (قاصرات الطرف عين).

حتى ليقول ابن عباس وهو من أصوب المفسرين رأيا بين صحابة النبى عليه السلام (ليس فى الدنيا من الجنة شئ إلا الأسماء).

الصفات المادية للجنة، رمز، لأنه سبحانه وتعالى عندما وصف الجنة بأكرم وأجمل وأطيب الصفات، قال فى النهاية: (ورضوان من الله أكبر).

إن الرمز قوة من قوى الإسلام يزيد النفس، به، تعلقا، حين يفتح لها آفاقا بعيدة المدى بعيدة الرؤى .. تنتعها من الحضيض إلى ذروة، وترفعها من الوهاد إلى قمة.

---

(١) الآية الكريمة ك ١٢ طه ٢٠.

موقف الإسلام من الرق والرقيق

موقف يشرف به الإسلام والمسلمون أقول هذا ليس من منطلق كونى مسلمة فحسب، ولكن لأنى إنسانة والإسلام للناس كافة بما هو دين الفطرة.

والإسلام عندى ليس الحلال والحرام فحسب، فسوف نقابل هذا الجانب منه كثيرا فى الخطب والمواعظ .. ولكنى أتحدث قريرة عن جانب آخر يأسرنى فى هذا الدين يأسرنى بدماثته ... برحابته ... بإنسانيته.

وقد أعلى الإسلام كرامة الإنسان بما فى كتابه من تكريم له وتكليف هو لون من التكريم فما يكلف غير جدير ...

سؤال سئلته يوما: ما موقف الإسلام من الرق؟ ولماذا لم يلغه؟ كما ألغى وحرم أوضاعا أخرى، وكان جوابى:

إن الإسلام لم يشرع الرق.

وما من آية به تبيح الاسترقاق.

والأديان التى سبقته لم تعالج هذا الألم الإنسانى ... حين وقف عنده الإسلام وقفة كبيرة ونبيلة سأفصلها.

على أن السائل نسى أن الرق عند مجئ الإسلام كان أساسا لنظام الحياة الاقتصادية والاجتماعية لهذا لم يستطع الإسلام المواجهة العاصفة والسريعة حتى لا تكون رجة اقتصادية واجتماعية تؤلب عليه فئة شوكتها قوية فى وقت كان يتحدث فيه عن المؤلفة قلوبهم.

ولكنه مع هذا حمل الأمانة واستوعب الرسالة فطب لهذا الجرح وتحايل على المشكلة واقترب منها مرات فى أسلوبه الذكى والإنسانى الذى يبدأ من الواقعية وينتهى إلى المثالية ليفتح الباب أمام بشرية الإنسان بقدر ما تطيق ويطيق.

دعا الإسلام إلى العتق وإطلاق سراح الرقيق حتى أسرى الحرب

والأسر في الحرب سائد حتى الآن ... وقف الإسلام إلى جانبهم فدعا إلى فك أسرهم بلا مقابل وإما قبول الفدية مع حسن معاملتهم في الحالين وهو مالا يحلم به المحارب في القرن العشرين خاصة في الحروب العنصرية واللاإنسانية التي لم يستوجبها دفع أذى أو حفظ ذمار وطن بل أشعلها البغي وشهوة التوسع وسعار الجشع ونزعة الاعتداء.

دعا الإسلام إلى العتق في صور شتى لو نفذت مجتمعة أو متفرقة لما بقي على ظهرها مستعبد أو رقيق.

فتح الإسلام للعتق أبوابا وكأنه يتلمس سببا ... فكفارة اليمين وكفارة الظهار .. وكفارة القتل الخطأ .. وكفارة الإفطار المتعمد في رمضان وضرب العبد أو لطمه.

جعل الإسلام عتق الرقبة، كفارة للحنث في اليمين في قوله تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذلك كفارةأيمانكم إذا حلفتم).

الآية ٨٩ من سورة المائدة.

وكفارة الظهار، تحرير رقبة (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا، ذلكم توعظون به، والله بما تعملون خبير، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا).

الآية ٣، ٤ من سورة المجادلة.

ودلالة أخرى في هذه الآية، إعزاز المرأة نفسا وروحا ومشاعر.

وكفارة القتل الخطأ، تحرير رقبة

(وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين)

الآية ٩٢ من سورة النساء

وكفارة الإفطار المتعمد في رمضان، تحرير رقبة

وضرب العبد أو لطمه يوجب تحريره. كفارة ضرب العبد، تحرير رقبته وإمعانا فى تكريم الإنسان مهما صغرت منزلته الاجتماعية إمعاناً فى العتق وانتصارا للحرية.

هذه الحرية جعلها الإسلام **مصرفا من مصارف الزكاة** وغاية تستهدفها وهدفا تتغياه. **إنها فريضة من الله** فى الآية النبيلة (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم **وفى الرقاب** والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم).

الآية ٦٠ من سورة التوبة.

وفى آية أخرى تجلو الجوهر الحقيقى للدين: [ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين **وفى الرقاب**].

بل قدم الكتاب الكريم، فك الرقبة على الطعام ومتى؟ فى يوم ذى مسغبة أى فى جائحة جوع ... ومن؟ اليتيم ذى القربى أو المسكين الفقير: [فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة فك رقبة، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة، يتيما ذا مقربة، أو مسكينا ذا متربة].

كما فتح الإسلام باب (**المكاتبة**) أى اتفاق العتق بين العبد وسيده نظير مبلغ من المال.

ولا يكتفى الإسلام بهذا بل يطلب إلى سيده بعد الاستجابة، التخفيف عن العبد فى المال الذى يدفعه بل رفده وإعطاءه [والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم]

الآية ٣٣ من سورة النور.

وحرم الإسلام ملك القريب والزوج والزوجة حفاظا على علائق من حقها الإعزاز والتكريم وليس الاسترقاق.

لقد بلغ من تلهف الإسلام على الحرية والميل إلى جانبها أن توسع فى الوصية إذا كانت لعتق رقبة.. أى إذا تجاوز مقابل العتق، ثلث مال العتق، وهو الحد الأقصى للوصية.

فعلى خلاف المتبع فى الوصية فى جميع حالاتها يستثنى العتق أو يؤثر بزيادة ليست لغيره من أغراضها.

* فالمالك لا يجوز له الرجوع فى الوصية.
* لو تجاوزت قيمة العبد ثلث التركة فإن العتق ينفذ أيضاً.

بل تلهف الإسلام على العتق وتلمس له أوهى الأسباب فالمالك إذا قال مازحاً أو عارضاً بعتق عبده، أصبح العبد حراً ... مع أن الإسلام يحتفل كثيرا بالقصد والنية فى أمور المسلمين إلا أنه فى حال العتق يعفى العبد من هذا الشرط توسلا إلى خلاصة، وسبيلا إلى حريته.

وكم للرسول الإنسان من أقوال دمثة تخفف غلواء الرق وتتعاطف مع الرقيق ... بعض هذا قوله البادى الشفقة والاحساس:

(الله الله فيما ملكت أيمانكم) وقوله (ما خففت عن خادمك من عمله، كان لك أجرا فى موازينك) وقوله (للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل مالا يطيق) وقوله (هم أخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتوهم فأعينوهم عليه).

وكان له عليه السلام، بنات .. والشفقة عليهن فى الحياة وعند الوفاة مشغلة لا تغيب عن وجدان الأب الحانى العطوف ولكن حين حضرته الوفاة أوصى باثنين لا ثالث لهما:
* المرأة
* والرقيق

وفى رحمة آسرة يتمتم وقد بلغت الروح، التراقى (الصلاة وما ملكت أيمانكم) يقول چوستاڤ لوبون فى كتابه الذى تناول فيه حضارة العرب:

(إن الذى أراه صادقا هو أن الرق عند المسلمين خير منه عند غيرهم، وأن حال الأرقاء فى الشرق، أفضل من حال الخدم فى أوربا وأن الأرقاء فى الشرق يكونون جزءاً من الأسرة... وأن الموالى الذين يرغبون فى التحرر ينالونه بإبداء رغبتهم ومع هذا لا يلجأون إلى استعمال هذا الحق).

إلى هذا الأوج أعلى الإسلام كرامة الإنسان حتى ولو كان مملوكا أو أسيراً!!

يقارن من يشاء، هذا، بما حولنا فى زمننا، فى القرن العشرين بعد أربعة عشر قرنا من ظهور الإسلام ليعلم علم اليقين أن شرف الانتساب إلى الإسلام حق لمن يتفهمه ويتمثله ... وهنا يصبح جديرا بشرف الانتساب باليقين العقلى والقلبى معا وليس فقط بشهادة الميلاد.

الحقوق الشخصية فى الإسلام

احترم الإسلام، الإنسان: عقله - بشريته - حقوقه الشخصية.

* حرص الإسلام على الصون والأسرار فانعكس هذا على طراز عمارة البيت الإسلامى الذى يفتح على الداخل لا الخارج والذى تشكل نوافذه، مشربيات حاجبة حتى حديقته ونافورته تقوم فى الداخل ليستقل أصحابه بما حوى.

وفى القرن العشرين نجد أجهزة التجسس العلمية عند من يسمون أنفسهم، العالم الأول، تحرم الإنسان من حياة خاصة يحياها، وتحرمه من متعة الستر والسر.. ولقد بلغ الأمر بهؤلاء أن انتهكوا حرمة الأفراد حتى النخاع حتى ليسمى (باركارد) المجتمع الأمريكى: المجتمع العارى فى كتابه: **The Naked Society**

* حمى الإسلام الحقوق الشخصية حتى للعدو فحرم فى الحروب. هدم المنازل أو بيوت العبادة.. لقد خرج هولاكو والتتار من صحراء فخربوا وألقوا بمكتبة بغداد فى النهر لتكون موطئا لخيولهم! وخرج العرب، بعد هَدْى الإسلام، من صحراء فعمروا فى الشرق والغرب.

وليس معنى هذا أنه لم يحدث هدم فى دولة العرب فالملوك، كما يقول الجاحظ فى كتابه (الحيوان): [من شأنهم أن يطمسوا آثار من قبلهم والعمل على إماتة ذكر أعدائهم فقد هدموا لهذا السبب، المدن والحصون.]

لقد أجرى الخليفة المأمون (٢١٦هـ - ٨٣١م) عمارة بقبة الصخرة المطلة على القدس فاتخذها سببا أو مناسبة لمحو اسم منشئها عبد الملك بن مروان ووضع اسمه مكانه.. وفات أنصاره تغيير التاريخ الأول وهو ٧٢ هـ - ٦٩١م فانكشف أمرهم.

ولكن هؤلاء غلبت بشريتهم الأرضية، سماوية العقيدة، ومثالية الدين. جاء فى سُنن أبى داود أن النبى عليه السلام أمر بأن ينادى فى معسكره بأن من ضيق منزلا أو قطع

طريقا فلاجهاد، له... وذلك حين لاحظ تضييق صفوف الأخبية فى ميادين القتال. (كتاب التراتيب الإدارية).

ومن هنا تناول المشرع الإسلامى قوانين سعة الشوارع والطرق وتناولها فى أحكامه واتفقوا على أن الطريق النافذ مباح المرور فيه لكل إنسان فليس لأحد أن يبنى فيه أو يخالف خط جاره (خط التنظيم) فلايبرز عنه.

وحرص الإسلام على الحقوق الشخصية للإنسان حتى قبل أن يولد بمعنى أنه جعل من حق الطفل على والديه، اختيار كل منهما الآخر اختيارا، مشرفا وخاصة الأم فقال صلى الله عليه وسلم: (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس). ثم اختيار الاسم الحسن له.

ولد سبطه الحسن فسماه والده (حربا) فسماه الرسول: الحسن وهو الذى سمى (الحسين) فقد كان يطرب للاسم الجميل ويتفاءل به. دخل المدينة حين هاجر من مكة ونزل عند رجل من الأنصار فنادى ولديه: ياسالم ويايسار، فاطمأن وقد وجد فى الاسمين روحا واستروحا وقال: (سلمت لنا الدار فى يسر).

... ...

حرص الاسلام على **كرامة الأرقاء** فسوى الإسلام بين الأرقاء ومخدوميهم فى الطعام والشراب واللباس والتعليم والتهذيب وفى معظم الحقوق المدنية اللهم إلا فى الولاية.

وقدم الإسلام (**العتق**) على سائر أعمال الخير التى حض عليها. هذا بينما يرى الرومان، أرقاء:

– أبناء الأرقاء حين ينص الإسلام على ألا تزر وازرة وزر أخرى.

– المدينين فالعجز عن الوفاء بالدين يستوجب الرق عند الرومان! ومثلهم اليهود. وقد أفضت فى هذا فى موضوع (موقف الإسلام من الرق والرقيق).

حرص الإسلام على حق «**الاجارة**» و«**الاستجارة**» فجاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: [وإن أحد من **المشركين** استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم **أبلغه مأمنه**.]

حرص الإسلام على حرية التفكير بلا إملاء أى شعارات. يقول جل شأنه لرسوله الكريم (لست عليهم بمسيطر) وهو خير الناس جميعا ولكنه مؤشر إلى أسلوب قيادة الأمم.

كتب الأستاذ العقاد، كتابه ضافية عن التفكير فى الاسلام فى كتابه: (التفكير فريضة إسلامية).

حرص الإسلام بعد حرية القول، على حرية التجريب وحنا على خطأ التجرية (من عمل فأخطأ فله أجر.. ومن أصاب فله أجران).

حرص الإسلام على حق الإنسان فى المساواة المعنوية فارتفع فى القضاء إلى قمة لايشائيها أحد ففى كتاب عمر رضى الله عنه يقول لقاضيه:

[سوّ بين الناس فى **وجهك.. وعدلك.. ومجلسك**.]

فلم يكتف بالعدل فى الحكم بل طلب إليه العدل فى الوجه ثم المجلس أى فى التعبير ولو بغير حروف وفى الاستقبال.

وانعكس تأكيد الإسلام البالغ، على المساواه فى العمارة الإسلامية فمالت إلى (الأفقية) التى تحمل معنى المساواة حين تعين (الرأسية) على التفاوت و(ترفع) الارتفاع. ولهذا يقوم نظام النسب فى الإسلام كما يقول العالم الأثرى الأسبانى «دون مانويل جوث موريثو» على أساس الوضع الأفقى وكأنه تحية لروعة الخلق الإلهى فى البحر والسهل)

أقول وكأنه تأكيد لصفوف المؤمنين فى المسجد حين الصلاة حتى مايخرج عن (الأفقية) من الأشكال يطّوعه الفنان المسلم لها.

حرص الإسلام على حق الإنسان فى **التنعم والتجمل والمتعة فى غير حرام** لبناء مجتمع صحيح خالٍ من العقد.. فكان الإمام أبو حنيفة يلبس أفخر الثياب عند صلاة الجمعة ويسألونه فيقول: أنتم تفعلون هذا عند مقابلة الخليفة ولكنى أفعل لأقابل الله خالق الخلفاء.

وكذا كان يفعل الإمام الليث والإمام مالك.

ومن التنعم **حق الانسان فى الطعام الهنىء إذا ملك القدرة عليه** ومن هنا القاعدة الشرعية فى حق المحكوم على الحاكم (توفير الكفاية لا الكفاف) والكفاف هو ضروريات الحياة ولكن الكفاية هى الحياة الراضية الكريمة.

وحق الإنسان فى الركوب الموطأ الأكناف كما جاء فى سورة الأنعام والقياس متروك لكل عصر.

حق الانسان فى **الموسيقى الراقية** وقد روى الأستاذ أمين الخولى فى كتابه عن الإمام مالك كيف أدى، لحنا، حين ضاق بالخطأ، فيه، ممن يؤديه.

كما كان الامام أحمد بن حنبل، يصلح الأوتار، حرصا على سلامة الأداء.

حرص الإسلام **على حق الإنسان فى صفة الإيمان** فقال الرسول عليه السلام لمن كفر إنسانا أمامه (هلا شققت عن قلبه؟) وفى القرآن الكريم [ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا] ٩٤م النساء ٤

كان الإمام أحمد بن حنبل الذى أشاع عنه خصومه السياسيون، التشدد، يتورع عن النطق بكلمة الكفر.

حرص الإسلام على **حق الدور** للإنسان فمن دخل المسجد أولا، وقف فى الصف الأول ولو كان خفيرا... ومن وصل آخرا وقف فى الصف الأخير ولو كان أميرا... وهو مالم تبلغه العصور الحديثة التى تفتخر بالديمقراطية.

حرص الاسلام على استهداء **روح النص** فى سماحة وسعة أفق فقال الرسول الكريم لمن تردد عليه مرات يسأل عن الحلال والحرام:

- استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك.

وقد جمد عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، حد السرقة فى عام الرمادة كما أسقط عطاء المؤلفة قلوبهم عندما قوى الإسلام ولم يعد فى حاجة إليهم.

ورجع الإمام عبد الله بن المبارك عن الحج عندما وجد طفلين يأكلان من القمامة فأمر تابعه أن يحجز نفقات العودة وأعطاهم كل ما ادخره للحج بعد هذا.

* * *

أما المرأة المسلمة فقد أعطاها الإسلام من الحقوق مالم تنله المرأة الغربية إلى اليوم:

أعطاها حق الانتخاب قبل أربعة عشر قرنا وحق التصرف فى مالها والاحتفاظ باسمها واسم أسرتها وحق التعليم وحق اختيار الزوج، وحق الإجارة.

أعطى الإسلام، المرأة، حق **التعلم**، وحق **التعليم** فقد جاء فى طبقات ابن سعد أن النساء اللاتى روين الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بلغ نيفا وسبعمائة سيدة روى عنهن أعلام فى الدين.

وعلى رأس من روين الحديث، أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها، وقد اعتد علماء الحديث بما روته. ويراها (العينى) و(الذهبى) و(الزركشى) من جملة الستة الذين هم أكثر الصحابة علما.

بل شاركت المرأة، فى صدر الإسلام، فى الجهاد وحضرت الصحابية الجليلة نسيبة بنت كعب الأنصارية موقعة أحد، وصدت عن رسول الله فى موقف زلزل بعض الرجال... كما شهدت بعض النساء واقعة اليرموك وكان لهن حظ فى الغنائم.

كان الإمام الشافعى يفخر بأنه تلقى العلم على السيدة نفيسة وكانت السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما تعقد المجالس للشعراء ولها رأى فى الأشعار بما هى صاحبة ذوق وأدب.

بل أثنى الإسلام على ملكة سبأ وسجل لها صقل الخطاب وسجل للمرأة ضمنا صلاحيتها لاعتلاء أرقى المناصب.

لقد ولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، «الشفاء» بنت عبد الله المخزومية، قضاء الحسبة... وأجاز الإمام أبو حنيفة أن تلى المرأة، القضاء فيما تقبل فيه، شهادتها.. وزكّى ولايتها القضاء، بعد هذا، الامام ابن حزم بل سجل الحافظ الذهبى فى تاريخه ثمانية وثمانين اسما ممن تصدرن للعلم والإفتاء كما ذكر الخطيب البغدادى فى (تاريخ بغداد) عددا كبيرا من النساء العالمات.

والقوامة فى الإسلام، مسئولية الخارج.. ومن هنا جعلها للرجل ليعفيها من شقاء الكفاح فى الحياة والاحتكاك بمختلف الأنماط البشرية.. حين أعطاها مسئولية البيت أى القوامة فى الداخل... والرجل هنا أول من ينضوى تحت لوائها... فالقوامة مقابل الحماية والصون ووجوب النفقة على الرجل لا إلى زيادة فى العقل أو الذكاء وصفات النفس.

أما الطلاق فهو أبغض الحلال عند الله ومع هذا شرعه الله دواء للضرورة القصوى... وأنكى من الطلاق والتعدد، ألق مرة، **الانفصال** أو **الهجر والإهمال** مع التحول إلى الخليلات وهو شائع فى الغرب المتمدين...

إن المرأة المسلمة تحس كرامتها مضاعفة حين امتناع زوجها عن الزواج مع الترخيص (فى حالات العقم والحروب والمرض العضال...)

على أن التعدد فى مصر لاتتجاوز نسبته ٦,٨ ٪.

أما الطلاق فنسبته وفقا لتقرير الجهاز المركزى للتعبئة العامة والأحصاء، ۰,۰۲ ٪ أى أقل من عشر واحد صحيح بينما نسبة الطلاق فى أمريكا ٤٨ ٪.

لقد حمى الإسلام، الأسرة بما يفوق قوانين الأحوال الشخصية كلها.

لقد أفتى الإمام مالك بأن تكون حضانة البنت حتى سن الزواج... وأفتى الإمام ابن تيمية أن تكون حضانة الولد حتى سن ركوب الخيل.

أعود فأقف وقفة عند تعدد الزوجات.

لقد جاء الإسلام فى بيئة تفشى فيها التسرى بالعشرات والتعدد والإسلام فى قضايا هذه البيئة يبدأ بالواقعية وينتهى إلى المثالية... فعل هذا فى تحريم الخمر خطوة خطوة.

ففى البداية (لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى)

ثم (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه)

وما أعظم العبادة (اجتنبوه) كم فيها من احترام الانسان... وكم فيها من ثواب الامتناع مع عدم استعمال لفظ التحريم وكم فيها من حكمة لأن بعض الأمراض يدخل فى دوائها الكحول..

والدواء ضرورة

والضرورات يبحن المحظورات.

كما بدأ الإسلام بالواقعية وانتهى إلى المثالية فى **قضية الرقيق والرق** الذى كان نظاما اقتصاديا فلم يمر، به، كما فعلت الأديان الأخرى بل طرقه فسوى بين الرقيق وسيده فى المعاملة والطعام والملبس والحقوق والواجبات، إلا ولاية الأمر.

كما حمل المسلمين على العتق لأوهن الأسباب فالحنث فى اليمين والكفارة وغير هذا مما فصلته فى [موقف الإسلام من الرق والرقيق]

بل تجاوز قاعدة اعتبار الثلث فى الوصية إذا كانت ثمنا للرقيق ولو كانت المال كله.

هذه القاعدة (التدرج من الواقعية إلى المثالية) اتبعها الإسلام فى التعدد فاشترط العدل ثم أكد استحالته على طبيعة النفس البشرية.

(ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) ۱۲۹م النساء ٤

أما مايثار عن الميراث:

فبداية أقول إن إنجلترا تجعل الميراث للابن الأكبر وحده ولكن الإسلام أعطى للبنت النصف لأنه أعفاها من الإنفاق فجعل نفقتها على الرجل حماية لها وصونا وإعزازا فالرجل سواء أكان أبا أو زوجا أو أخا ملزم شرعا بالإنفاق ولو كانت غنية كما جعل نفقة الأولاد على أبيهم كما جعل نفقة الأقارب للفقراء على الرجل دونها.

فهى بالنصف المعفى من الالتزامات أوفر حظا، من أخيها بالنصيب الكامل المحمل بالتبعات القريبة والبعيدة.

لقد كرم الإسلام المرأة فأعفاها من الإرضاع إلا اختيارا.

ومن خدمة بيتها إلا طواعية.

ومن الانفاق من مالها إلا تفضلا وتبرعا.

وتاريخ الإسلام فى إبان ظهوره، حافل بمواقف خالدة للمرأة فى نصرته فقد شاركت فى الدعوة أو شاركت فى الهجرة، وشاركت فى الابتلاء، وشاركت فى الرأى وشاركت فى الجهاد، وشاركت فى العلم، وشاركت فى الرواية وشاركت فى الاجتهاد، وكانت فى كلٍ، ذات دور فعال مرموق.

وخصها الإسلام بتكريم يوم جعل الحديث الشريف، الجنة تحت أقدام الأمهات

وحين يفصل القرآن الكريم الآيات فى معانى ومجالى المسئولية والحساب والتبعة والتكاليف يعبر (بالنفس)

[كل نفس بما كسبت رهينة]

[ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيئا]

والتعبير بالنفس هنا أوسع من التعبير بالرجل أو المرأة إنه يشملهما فكلاهما نفس ولهذا تجرى التسوية فى القصاص وأن الرجل يقتل بالمرأة النفس بالنفس.

كلاهما مكلف مسئول مستقل الإرادة والتصرف حتى يكون خليقا بالثواب، أو حقيقا بالعقاب.

وأباح الإسلام للمرأة أن **تضمن غيرها** على نحو ما أبيح للرجال.

وهكذا وقف الإسلام من المرأة، إنسانا.. موقفا متحضرا واسع الأفق، إنسانى النزعة والفكر والشعور.

بقى موضوع (**الشهادة**)

يقول فضيلة الشيخ محمود شلتوت الإمام الأكبر:

نص الفقهاء على أن من القضايا ماتقبل فيه شهادة المرأة وحدها وهى القضايا التى لم تجر العادة باطلاع الرجل على موضوعاتها **كالولادة والبكارة وعيوب النساء فى المواضع الباطنة**.

وعلى أن من الشهادة ماتقبل فيه شهادة الرجل وحده وهى القضايا التى تثير موضوعاتها عاطفة المرأة ولاتقوى على تحملها بما أودع الله فيها من عاطفتى الرحمة والحياء وذلك **كالحدود والقصاص**.. ومع ذلك فقد رأوا قبول شهادتها فى الدماء حيث تعينت طريقا لثبوت الحق وذلك فيما إذا وقعت الجريمة فى مكان ليس به إلا النساء... وعلى أن ماتقبل فيه شهادتهما معا وهى القضايا التى ليس موضوعها من أحد النوعين السابقين.

(بحثه المنشور بالمركز الدولى الإسلامى للدراسات والبحوث السكانية)

ومن الآيات [واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى].

وهذا لمشاغل المرأة الطبيعية التى تعرضها للنسيان ثم إن المرأة خيالية فهى عرضة للانفعال.. وهذا الانفعال يلون تصويرها للوقائع.

[ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة]

هذه الدرجة فسرها القاسمى فى الجزء الأول بأنها (زيادة فى الحق وفضيلة) ولكنى، كما سبق أن قلت فى كتاب آخر، ألتقى فى تفسيرها مع الأستاذ سيد قطب فى (ظلال القرآن)[1] حيث يقول: [أحسب أنها مقيدة فى هذا السياق بحق الرجال فى ردهن إلى عصمتهم فى فترة العدة.. وقد جعل هذا الحق فى يد الرجل لأنه هو الذى طلق، وليس من المعقول أن يطلِّق هو، فيعطى حق المراجعة لها هى! فتذهب إليه وترده إلى عصمتها!

---

(١) كتاب (فى ظلال القرآن) جـ٢ ص ٢٤٦-٢٤٧.

فهو حق تفرضه طبيعة الموقف.. وهى درجة مقيدة فى هذا الموضع، وليست مطلقة الدلالة كما يفهمها الكثيرون، ويستشهدون بها فى غير موضعها.]

ومن الطريف أن المرحوم الأستاذ سيد قطب يعقب على استشهاد البعض بهذه الآية فى غير موضعها بقوله: (وما أبرئ نفسى فقد وقعت فى هذا التأويل الذى أرجح عدم صحته، فى بعض ماكتبت] .

وهو صدق مع النفس، وصدق مع الكتابة يُحمد، له.

وهكذا سن الإسلام القوانين التى تكفل الحقوق للإنسان رجلا كان أو امرأة بما فاق ماوضعه الآخرون ممن يتصيدون للإسلام ثغرة...

كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

لقد ضمن الإسلام، الحقوق الشخصية للإنسان رجلا أو امرأة بما لم ينله الذين يطلقون على أنفسهم العالم الأول.

لقد حمى الإسلام، كما أسلفت، الحقوق الشخصية للعدو.

وحسبة هذا عدلا وصدقا وأمنا وسلاما.

دور مصر فى الحضارة الإسلامية

الحضارة الإسلامية كما يوحى اسمها حضارة المسلمين فى مختلف ديارهم وأوطانهم. أسهم فيها الجميع على تفاوت فى التقبل والعطاء. **ولمصر فى هذه الحضارة إضافات جذرية تتمثل فى:**

* العلوم الإسلامية
* التصوف
* البيئة الحضارية
* جمع الحديث — دور مصر فى الدين
* الفقه
* علم القراءات
* تفسير القرآن
* الأزهر
* الفن الإسلامى
* الادب العربى بشقيه – الفصيح
  – الشعبى
* الوقفة الحاسمة فى المعارك الحاسمة – الصوارى
  – عين جالوت
  – حطين

علامات كبيرة مضيئة لمصر الإسلامية، فى تاريخ الإسلام.

ومع أن الموضوع كبير واسع متعدد الجوانب إلا أنه يحتاج إلى طواف رابط للخطوط العريضة فى حياة مصر وتاريخ الإسلام فى محاولة تعميق وتفسير العطاء المتبادل بينهما

تصح به النتائج حين ترفدها وتؤصلها مقدمات دارسة تتعمق الأسباب ولاتكتفى بظواهرها حتى ولو قام عليها دليل.

عندما جاء الإسلام، شربته مصر ونمت به ونمته فلم يمح شخصيتها بل أضاف إليها عمقا جديداً، وأضاف لها فضلا جديدا يوم حملت مسئوليته فى السلم والحرب فدافعت عنه فى مواقعه الكبرى، وحمت حضارته التى تهددها هولاكو والصليبيون، فوق ماعملته على أرضها برصيدها الكبير فى صناعة الحضارة.

إن إيمان مصر المبكر بالدين ممثلا فى تسابيح إخناتون بل قبل إخناتون بألوف السنين قالت مصر بعودة الروح والحساب والعقاب والجنة والنار وفى معبد الدير البحرى لحتشبسوت صورة للجنة كتب تحتها (مكان لا أعداء فيه)

وكثير من قيمها عاش فى الإسلام مع غناه الثرى بالمثل الرفيعة والآداب العالية.

اعتزت مصر بالأسرة وأوصى بها الإسلام خيرا حتى أبى عليها التفكك ولو أشركت. يقول عن الأبوين فى الحض على برهما فى جميع الحالات [وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلاتطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً.](١)

إن من يتأمل حضارتنا على مسار التاريخ يلمح احتفالها الكبير **بالباب**.. احتفلت به مصر فى قديمها واسلاميتها من إحساسها بما فى الباب من جمع الشمل.. بما فى الباب من (أسرية). وبعض الفرق الإسلامية تسمى العالم، الباب. فهو يفتح للطالب دنيا العلم.

لقد كرمت حضارتنا الباب بنقشه وتحليته. والزخرفة خبرة ملونة، ومحبة منمنمة.

أكرمت مصر الأم ورفعها الإسلام إلى ذرا عالية. (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصير).

ومن مأثورات مصر:

(لقد أعطيتك لأمك التى حبلت بك، وقد تكبدت فى حملك ثقلا عظيما وضعته بغير عون منى. وظلت ثلاثة أعوام ترضعك، فلما أرسلت إلى المدرسة. كانت تحمل الخبز والنبيذ من بيتها لأستاذك كل يوم.. لقد شببت الآن واتخذت لنفسك زوجا وبيتا، فارع طفلك وربه كما ربتك أمك، واحذر أن تفعل شيئا يؤذيها حتى لاترفع يديها إلى الإله فيسمع شكواها).

---

(١) لقمان ١٥

وكرمت مصر الزوجة وجعلها الإسلام سكنا وأمنا. (إذا كنت عاقلا فاجعل لنفسك بيتا. أحب زوجتك كثيرا. وفر لها الطعام والثياب والمظهر. قدم لها الدهانات والعطور، فإن علاج أعضائها الدهانات، أسعدها ماعشت فانها حرث مثمر. لاتكن قاسيا فى البيت فهى أسهل قيادا بالاقناع من العنف. أرض حاجاتها... فان ذلك ما سوف يبقيها فى بيتها).

وأوصى الإسلام باليتيم والفقير وقال الأب المصرى: (كن مرضعا للمريض وأبا لليتيم).

ومن الآداب المرعية فى مصر القديمة ألا يتقدم المرء من لا ولد له عند ركوب المركب، تأدباً.

أنها رعاية مصر القديمة للأبوة فى الحياة، وبعد الحياة.

لقد بنت مصر المساجد على طريقتها فى بناء المعابد. فالصحن فى المسجد، يقابل بهو الأعمدة فى المعبد. والميضة فى المسجد تقابل بحيرة الاغتسال فى المعبد.. اغتسال وتطهر. فى الحالين.

والإسلام رؤيته للإيمان أنه بنيان مرصوص فى عملية ربط بين النفس والبناء.. بين العمارة والعمار فجاء توثيقا وتحقيقا لرأيها فيه، كما وثق وحقق رأيها فى كثير مما يتعلق بالروح.

ومن الطريف أن مصر قبل الاسلام حرمت لحم الخنزير منذ اتخذ (سيت) هيئة خنزير وفقأ عين (حورس) فحرمت الديانة المصرية أكل لحم الخنزير.

وكان المصريون القدماء يعنون بفحص طهارة الذبائح ومطابقتها لمقتضيات الطقوس الدينية.

والطهارة فى مصر القديمة كما جاء فى كتاب (الحضارة الطبية فى مصر القديمة)، (أمر ليس بالغريب خاصة وأنه نابع عقائديا).

كما يقول هذا الكتاب: إن (النظافة كانت عندهم عقيدة قبل أن تكون سبيلا للصحة القومية).

وهكذا كان الإسلام فيه الكثير من مألوف مصر. أو هكذا توصلت مصر بالفطرة السليمة والدفع الحضارى معا إلى كثير من القيم الإسلام فلم يك غريبا أن شرح الله صدرها للإسلام.

لقد وجد الاسلام فى مصر جوا مهيباً. **ولأمر ما تأصل الإسلام فى مصر تأصلا لم يبلغه فى مكان أخر** حتى أن مصر هى التى دافعت عنه فى مواقعه الكبرى وقامت له فيها أقدم وأكبر جامعة إسلامية.

لماذا لم ينتشر الإسلام فى أوربا؟.. لأنه واقف على غير أرضه.. ليس له فى أوربا جذور خلقية ومعنوية تمده بالنماء بل أن (الفكرة الإسلامية) فى أطراف بعض البلاد الإسلامية تخرج عن جوهرها الأصلى(إلى شيعة وزيدية) – كما ذكر الدكتور جمال حمدان – لعامل البعد واختلاف الرواسب الحضارية والفكرية.

إن مصر التى شعرت قبل غيرها بوازع خلقى، هى أول من بحث عن (الحق والباطل) فى تاريخ الإنسان مما تشهد به مسرحية (منف) فى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

وقد طلب الفلاح الفصيح إلى الحاكم أن يفصل بين الحق والباطل بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لاتخطئ. وخدم كلمة الموازين كثيرا فى معانى الحق والعدل.

وكانت المرة الأولى التى تذكر فيها الموازين فى تاريخ الاخلاق، وقد بقيت صورتها وهى منصوبة فى يد العدالة العمياء رمزا للعدل، إلى يومنا هذا.

وفى القرآن الكريم ترد لفظة الميزان والموازين فى الحديث عن الحق والحساب والعقاب والعدل.

(الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) ١٧ ك. الشورى ٤٢

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) ٤٧ ك. الأنبياء ٢١

(والسماء رفعها ووضع الميزان) ٨ م الرحمن ٥٥

وليس معنى هذا أن الإسلام اقتبس من مصر فكرة الموازين. فالقرآن الكريم كتاب منزل وهو فى الوقت نفسه كتاب يهدى الإنسان فى دينه ودنياه ويروى ظمأ الإنسان إلى العدل والخير فى اسلوب يبدأ بالواقعية وينتهى إلى المثالية.

وقد عرف الصفوة فى أزمنة مختلفة، بالفطرة السليمة ألوانا من معانى الخير والعدل. ومن هنا كان سبقهم إلى الإيمان بالأديان لأنها تعبير عما فى نفوسهم وأفكارهم. وقد سمى الرسول صلى الله عليه وسلم الذين لم يعبدوا الأصنام فى الجاهلية: الحنفاء.

على أن الأديان بعد هذا ليست غايتها الاختراع والابتكار، وإنما غايتها الهداية وإشاعة الخير والعدل والرحمة.

ومن شرف الإنسان أو المكان أن يهتدى فى تطلعه إلى السماء.. إلى معان تأتى الأديان فتعززها.

مصر فى الاسلام:

دخل العرب مصر فى فجر الإسلام فراعتهم مصر. كانت مصر فى عين العرب دار الطراز وجزيرة الصناعة (**صناعة السفن**) التى كانوا يندبون لها عمالا مصريين فى كل ناحية من نواحى المملكة الإسلامية يستوى فى هذا العباسيون والفاطميون والأيوبيون.

وعلى أكتاف مصر قام للإسلام أسطول، وبأسطول مصر انتقلت إلى الإسلام سيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض يوم أعانته، كدأبها أبدا، فى معركته البحرية مع البيزنطيين فخرجت القوة الحاسمة منها لتهزم أعداءه فى موقعة (الصوارى) وفى رأيى أن موقعة الصوارى أخطر المعارك فى تاريخ الإسلام... **لأنها أشد خطرا من (حطين) و(عين جالوت)** على فداحتهما. وتفسير هذا عندى... أن حطين وعين جالوت دارتا والإسلام راسخ مكين ولو خسرهما، لعوض خسارته بعد أمد طويل أو قصير.. وبالطبع كانت هذه الخسارة ستعوق مسيرته وتثقل كاهله ولكنها فى النهاية خسارة يمكن امتصاصها ثم الاستعلاء عليها ثم النصر فى النهاية بامكاناته الوفيرة فى مجموع بلاده وأقطاره.

ولكن **موقعة الصوارى كان الإسلام حديث عهد بالظهور حديث عهد بالدولة والحكم فلو أنه خسرها لانقض عليه أعداؤه من الروم وغيرهم وأجهزوا عليه**. وقد عرفوا كيف يصيبون مقتلا يوم اختاروا البحر مسرحا للمعركة. فالعرب فى ذلك التوقيت لاخبرة البته عندهم بالبحر وركوبه بله الحرب فيه. وهنا يتجسد البعد الخطير لوقفة مصر فى موقعة الصوارى.

ولهذا السبب بدأت بها البحث لأنها فى رأيى لولاها ماتمت الإنجازات الأخرى.

وفى سنة ٦٥٨هـ وقفت مصر وقفتها فى (عين جالوت) للتتار الذين اجتاحوا بغداد / وحران / والرها / ودياربكر: ثم جاوزوا الفرات واستولوا على حلب / وعاثوا فيها (وجرت الدماء فى الأزقة) كما يقول المؤرخون.

قاتلت مصر التتار **دفاعا عن المنطقة كلها** وأوقفت زحفهم بل استولت على ذخائرهم وسحقتهم **فحفظت بهذا الحضارة الإسلامية** كما أنقذت الحضارة بعد هذا فى حطين.

وفى القرن الرابع عشر الهجرى أو العشرين الميلادى واجهت مصر النار والدمار والحروب والتتار الجدد من كل لون وجنس ولكنها انتصرت **وهو نصر للعرب والإسلام.**

وكما خرجت السفن من مصر لنجدة العرب فى موقعة (الصوارى) خرجت السفن المصرية للرد على الصليبيين إذ أرادوا قطع الطرق التجارية عن الشرق العربى، كما خرجت الجيوش المصرية لدحرهم فى حطين.

مصر والعلوم الإسلامية

مدرسة مصر

وبعد أن استقر الفتح العربى، أكب المسلمون على مدينة الاسكندرية إذ بهرتهم بدورها **فلسفة** «الشيخ اليونانى» كما يدعوه الشهرستانى، أى أفلوطين المصرى الصعيدى وليس اليونانى كما ظنوا ينقلون وينقلون.

وفى الجغرافية والفلك والكيمياء التى كانوا يسمونها «علم الصنعة».. **والرياضة والطب** عكفوا على الاسكندرية ينقلون وينقلون حتى لتعد كتب جالينوس فى الطب وكتاب المجسطى لبطليموس مما ترجمت مدرسة حنين بن اسحق من دعائم **النهضة العلمية فى العالم الإسلامى**.. ولكنهم أمام «أنطونيس» حاروا، وأمام ديسكوريدس النباتى المصرى المعروف، فوجدوا المخرج من حيرتهم ان يقتنصوا كتاب (خواص العقاقير) ليصوروه فى العراق.

وكم عمرت خزائن بغداد بنفائس الاسكندرية (ابن أبجر الكنانى) و(سرجيوس الرسعنى) ثم حنين بن اسحق العبادى وإن كان نسطوريا. وقد نقل لهم فيما نقل عنا، علومنا فى **الهندسة والطبيعة.**

وكتاب الخوارزمى «السند هند» خلاصة لآراء كلوديوس بطليموس الاسكندرى كما كانت جهود بطليموس و(اراتو) الاسكندريين أساسا لكل مباحث العرب فى علمى **الفلك والهيئة.** وعنهم ترجم إلى اللاتينية والإغريقية حيث كان ركيزة لعلم الفلك الحديث. وتجمع للعرب من التلقى والنقل والترجمة مادة على أساسها بنوا حركتهم العلمية.

مصر والتصوف:

ومن مصر استمد العرب روح التصوف والروحانية وعليها اعتمد كتاب (الشفا) لابن سينا. فقد كانت مصر بأفلوطين وراء التصوف الإسلامى، وهو منبع ثرى من منابع الأدب العربى، تماما كما كانت وراء (الميتافيزيقا) المسيحية. كانت نظرية أفلوطين فى قدم الله وصدور العالم عنه وراء نظرية المسلمين المشهورة (العقول العشرة) أو (الوسائط العشرة) كما كان أسلوبه فى الامتزاج بالله وراء نظريتهم فى الاتصال بالخالق وان اختلفت الوسيلة.

ومن عمل الشخصية المصرية فى التصوف، إرساء قواعده وبلورتها، إذ نهج له ذو النون المصرى وصيره مذهبا بما استحدث فيه من تحليل وتعليل وتأويل وتصنيف للأحوال والمقامات وما نزع إليه من منازع روحية ومعارف ذوقية مما سنفصله بعد قليل ولو بعض تفصيل.

إن الطرق الصوفية لم تؤسس إلا فى مصر، سواء ولد أصحابها بها أم دخلوها للاستقرار والعيش المادى والأدبى.. **حتى الطرق التى ولدت خارج مصر ترعرعت بها هى وتبلورت وتكيفت بجوها العقدى حتى غدت بها خلقا جديداً** والمثل عندى (الطريقة الرفاعية) التى اتسمت فى مصر بمجاهدة النفس وأداء الطقوس، والترنم بالصلوات ثم الرجوع إلى (الشيخ) شيخ الطريقة كأنه الكاهن الأكبر.

لقد نشأت هذه الطريقة فى العراق ولكنها عرفت فى مصر، وعلى نحو يختلف عما عرفت عليه فى العراق. وهذا يسلمنا إلى طابع مصر الذى تجلى فى التصوف كغيره من ألوان التفكير والتعبير وهو حب **الوضوح والاستقامة والبساطة والتعاليم الواضحة.**

ومما يثير الدهشة، ويدعو إلى التعجب ماذكره صاحب درة الأسرار فى هذا الصدد عن السبب المباشر فى ارتحال الشاذلى من تونس إلى الشرق. وإليك ماذكره فى هذا الشأن نصا قال:

(رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى ياعلى: انتقل إلى الديار المصرية ترى فيها أربعين صديقا. وكان فى زمن الصيف وشدة الحر فقلت: ياسيدى يارسول الله الحر شديد فقال لى أن الغمام يظللك فقلت: أخاف العطش فقال لى: إن السماء تمطركم فى كل يوم امامكم فقال: فأمر أصحابه بالحركة وسافر متوجها للديار المصرية) .

إنها مصر ظل ورى وصديق.. إنها مصر حلم المتصوفة المبارك.

وعلى بن محمد الغرناطى انتهى به المطاف إلى المقام فى الاسكندرية...

وعن أبى الحسن الصباغ المصرى القوصى أخذ ابن عربى نظرية وحدة الوجود... وكان الصباغ أستاذا تتحلق حوله الندوة.. وقد اشتهر بالعمق فى التصوف والريادة فيه امتدادا لأستاذ آخر مصرى كان فى القرن السادس الهجرى أشهر رجال التصوف وأعلاهم قدرا.. ذلك عبد الرحمن القناوى..

ومصر هى صاحبة فن (الحقيقة المحمدية) فى الأدب الصوفى وهو فن -كما يقول الدكتور على صافى حسين- (لم يكن له قبل القرن السابع الهجرى وجود كما أننا لم نظفر رغم طول البحث وكثرة التنقيب بقصيدة أو مقطوعة وردت فى هذا المعنى على لسان شاعر شرقى أو غربى، ممن كانوا يعيشون فى القرن السابع الهجرى، وأما الذين نظموا بعض قصائدهم فى هذا الفن من غير المصريين فإنهم لم ينشئوا قصائدهم تلك إلا بعد أن جاءوا أرض مصر واستقروا بها مدة جعلتهم يتأثرون بشعراء هذا الفن من صوفية المصريين وبالتالى ينظمون فيه على غرارهم عددا من قصائدهم...).

* * *

وضعت مصر للتصوف الإسلامى أسسا، كما أشرنا، على يد ذى النون الذى تقول عنه المصادر الإسلامية ومن بينها الرسالة للقشيرى، والطبقات للشعرانى، والكواكب الدرية للمناوى، وحلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى واللّمَع للسراج الطوسى وكشف الحجب للهجويرى وكذلك الرازى والترمذى.. إنه وحيد دهره علما وعبادة وحالا، ومعرفة وأدبا.

وإنه: هو رأس هذه الفرقة - الصوفية - فالكل قد أخذ عنه، وانتسب إليه، وقد كان المشايخ قبله. ولكنه أول من فسر إشارات الصوفية وتكلم فى هذا الطريق.

ويقول الباحثون المحدثون ومن بينهم ماسينيون وبركلمان عن هذا المصرى هو أحق رجال الصوفية - على الاطلاق - **بأن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف ويعدونه بحق واضع الحجر الأساسى فى صرح التصوف التيوزوفى الاسلامى.**

وتأثيرات (ذى النون) فى التصوف كانت جذورها تضرب فى بيئة مصر، فقد كان يقول الأستاذ الخولى كثير الملازمة لبربا أخميم لأنها بيت من بيوت الحكمة القديمة –فيما يقول القدماء– كما يقولون أيضا: إنه قد فتح على هذا الاخميمى علم ما فيها من كتابات.

وسواء أصح هذا أم لم يصح فإن الوارثات المصرية فى الفكر والعقيدة قد لعبت دورها فى حياة ذى النون وفى أسلوب تفكيره.

وذو النون كانت عبادته لله حبا خالصا لا رهبة ولا رغبة بل محبة وشوقا وهيمانا وكأنه اخناتون فى سبحاته. وذو النون (**أول من أنشد شعر الحب الإلهى وأول من وردت فى شعره مصطلحات الصوفية كما أنه أول من تحدث فى الأحوال والمقامات**).

كل هذا فى سلاسة وعذوبة تسرى إلى النفس فتأسرها حين كان شعر أبى على الروزيادى يشق فهمه ويتطلب الوقوف على مصطلحات الصوفية لإدراكه.

ويذكر الدكتور محمد كامل حسين أنهم **ينسبون إلى ذى النون أنه (أول من وسع الكلام عن الولاية، وبحث، من أيهم أفضل النبى أم الولى، وينسبون إليه كذلك أنه أول من استخدم اصطلاح الابدال، وأنه أول من فصل مسألة المعرفة، إلى غير ذلك من الآراء الصوفية فى العصور الوسطى حتى يومنا هذا)**.

* * *

وبعد ذى النون أعطت مصر للتصوف الإسلامى (**ابن الفارض**) الذى جعله نيكلسون لايقل عظمة فى شعره عن شعراء هذا اللون فى العربية هو والتسترى مقابلين فى الفارسية الجلال الرومى والعطار.

وعلى طريقة ذى النون فى الحب الالهى.. وعلى طريقة مصر فى الخلود الى الصحارى والتجرد والذكر والتأمل والوصول إلى الحقيقة وصل ابن الفارض وكانت القطبانية أو الولاية قبله تؤخذ بالعهد أو الاجازة أو لبس الخرقة.

وابن الفارض فيه من مصر رقة الإحساس وشفافيته، وهو بهذه الصفة سلطان العاشقين ومصر بهذه الصفة فيه صاحبة فن فى التصوف ورفه حضارى، ولم

يعرف عن غير ابن الفارض أنه احتشد للغناء وألوان الفن حتى لينشد أشعاره إنشادا من ولعه بالنغم والتطريب.

ولم يعرف عن غير ابن الفارض أنه غنته الجوارى فطرب حتى رقص على دقات الدفوف وأنات الشبابه.

وكان ابن الفارض كالنموذج العام للمصرى، مطبوعا على الجمال ذواقة له، فقد ذكر المناوى فيما ذكر عنه أنه كان يخرج وقت الأصيل إلى الروضة يتأمل انعكاسات الأشعة على صفحة النيل الجميل الذى كان يهوى الخلود إليه فى المساء.

حتى **أسلوبه نابع من مصر**.. من مدرسة البهاء زهير ثم مدرسة الشعب بأزجاله ولغته الجارية.

وأسلوب ابن الفارض فى الشعر اتسم بالرقة والظرف والصفاء وحيوية العاطفة والومض. وقد **شغلت (تائيته) الشراح حتى المخالفين له فى الرأى فكثرت شروحها وتشعبت..**

وابن الفارض أستاذ الفن التائى فى الشعر العربى وعلى نهجه سار شيوخ التصوف فى التعبير عن آرائهم بقصائد تائية كإبراهيم الدسوقى وقطب الدين القسطلانى والسيد أحمد البدوى.

وعلى هدى مصر لم يتزمت ابن الفارض فنظم إلى جانب الفصيح من الشعر، الزجل بأنواعه وخاصة الشعبى منه فقد ذكر ابن خلكان أن (ابن الفارض قال المواليا وهو شعر يتألف من كلام العامة أو اللغة الدارجة وإن استخدام الألفاظ العربية الفصحى فإنه لايلتزم فيها الإعراب بل كثيرا ما يقع فيها اللحن تمشيا مع منطق وأسلوب اللغة الدارجة التى يستخدمها عامة الشعب فى التخاطب والتحادث وفى نظم الأزجال والبليق والمواليا وكان كان) وكما استمد ذو النون تصوفه من حكمة مصر القديمة، فان **ابن الفارض استمد تطلقه من أفلاطونية مصر ثم مسيحيتها**. فقد كان ابن الفارض يعتقد أن الانسان الواصل تتحد روحه بذات الله حتى لقد صرح فى شعره (بإمكان رؤية الله فى هذه الدار.) أى أن الواصل تغلب «لاهوتيته»، «ناسوتيته» وهذا رأى مسيحيى مصر فى المسيح من أصحاب (الطبيعة الواحدة).

كما تأثر العرب بالأفلاطونية فى زيها المسيحى ممثلة فى كتاب «ديونيسيوس» Dionysius الذى يتناول أسرار الألوهية وعالم الملكوت مما قبس منه الكثير (إخوان الصفا).

ويلمح بعض الثقات وجه شبه بين كتاب الغزالى (المنقذ من الضلال) وبين كتاب القديس أوغسطين المعروف «بالاعترافات»، فإن بين الكتابين (موازاة تكاد تكون تامة فيما يحكيه كل من الرجلين عن تاريخ حياته) كما جاء فى كتاب ارنولد نيكلسون.

كما تأثر ابن عربى بأفلوطين تأثرا بعيد المدى يعكس هذا كتاب «ابن عربى» حتى ليشك اسين بلاثيوس مترجم حياته فى صدق تجاريه الذوقية لحرصه على إدراج هذه التجارب فى التعريفات التقليدية للأفلاطونية.

وهكذا قام للنهضة العلمية العربية بناء على دعامة من مدينة الاسكندرية. واستارت أوربا سيرتهم فى العصور الوسطى **فكانت الافلاطونية ركيزة لفلسفة العصور الوسطى وهى الفلسفة المدرسية** Scholastic Philosophy وتركت طابعها على الفلاسفة المدرسيين.

مصر ومذهب الاعتزال:

وتأثر العرب بالاسكندرية مرة أخرى بالواسطة أى عن طريق النساطرة الذين كانت الاسكندرية مرباهم العلمى. وقد نقل العرب عن هؤلاء منطق أرسطو **الذى كان من أثره فيهم نشوء مذهب الاعتزال** كما نهج العرب نهجهم فى أسلوب التعليق على أرسطو بما يشكل شروحا فضفاضة للعبارة الواحدة وبلغ من اقتناع العرب بهذه الطريقة أن اتبعوها فى تفسير القرآن وشرح الحديث.

لقد علل الأستاذ العقاد فى كتابه «ابن رشد» الحركات الثقافية فى المغرب عامة –خلافا للمستشرقين– بظهور الدعوة الفاطمية فى افريقية الشمالية. ورأى أن ظهور هذه الدعوة فى المغرب غيرت فيه كثيرا من وجهات الثقافة والسياسة. كما كان له الأثر المباشر فيما شغل الأوربيين بعد ذلك خلال القرون الوسطى من موضوعات الفلسفة الدينية، وأهمها موضوعات النفس وخلودها وموضوعات العقل وعلاقته بالخلق والخالق.

ثم يرى العقاد أن الدعوة الفاطمية هى الدعوة الإسماعيلية بعينها لما كان الفاطميون ينتسبون إلى فاطمة الزهراء أو إلى إسماعيل بن جعفر الصادق تمييزا لهم عن سائر العلويين.

وينتهى من هذا إلى أن أولئك الإسماعيليين كانوا يشتغلون بالفلسفة «**ويرجحون مذهب الأفلاطونية الحديثة**».

ومن أتباع الإسماعليين الذين نشروا هذا المذهب **إخوان الصفا** أصحاب الرسائل المنسوبة إليهم، ومنهم مسلم بن محمد الأندلسى الذى نقل مذهبهم إلى البلاد الأندلسية.

وقد شاع مذهب الإسماعيلية شرقا وغربا فى العالم الإسلامى من جبال أطلس إلى تخوم الهند وآسيا الوسطى، وكان ابن سينا يقول «كان أبى ممن أجاب داعى المصريين، ويعد من الإسماعيلية».

ويقول توينبى: «فى الفترة القصيرة التى عمر فيها المجتمع العربى **كانت مصر هى البلد الذى اشتد فيه نبض هذا المجتمع الذى كان ضعيفا خافتا فى غيرها من البلاد**. وقد قدمت مصر لهذا المجتمع حافزا هو التربة الجديدة».

* * *

البيئة الحضارية:

لقد أسهم الفرس فى الحضارة الإسلامية بنصيب وافر بالرجال العلماء **ولكن مصر هى التى أعطت العرب والإسلام تربة جديدة ذات طبيعة قوية قادرة ومباءة ذات سالفة فى الحضارة والتفهم والتعمق والانشاء**.. تربة قادرة قام عليها بناؤه كما قام عليها من قبل حياة الحضارة الإغريقية التى لم تجد تربة أخصب من مصر لتتبلور فيها.

مصر والدين

***جمع الحديث**

إن مفخرة العرب الكبرى (الإسلام) وفى الإسلام تميزت شخصية مصر فى العطاء والوفاء. فما كادت مصر تدخل فى الإسلام وتتفتح له حتى سابقت الى **جمع الحديث**

وتسجيله على ورق البردى الذى عرفت به، وجهدها فى هذا كما يقول الدكتور كامل حسين فى كتابه (أدب مصر الإسلامية)، (**يعد من أقدم المخطوطات العربية فى جميع مكاتب ومتاحف العالم**).

وتتجلى شخصية مصر المحققة ذات العلمية فى هذا المضمار فى صنيعها مع **ابن مالك** فحين اختارته أعملت فيه شخصيتها فلم تقبل الروايات كما هى فى الموطأ بل كان عبد الله بن وهب يدقق فى اختيار الأحاديث وهذا المصرى كثيرا ما كان ابن مالك يفتى بآرائه فإذا قال مالك (حدثنى من أرضى) فإنما هو عبد الله بن وهب.

وإلى مصر رحل جمع من الصحابة حملة الحديث عد منهم محمد بن الربيع الجيزى فى كتابه، مائة ونيفا وأربعين صحابيا وزاد عليه **السيوطى** وسعد فى طبقاته. يقول الدكتور أحمد أمين فى ضحى الاسلام (عد هؤلاء الصحابة مصريين لنزولهم فى مصر واستيطانهم بها ولذلك يلقبهم المحدثون، «المصريين»).

وإلى مصر رحل البخارى ومسلم والنسائى لاستقاء الأحاديث من ثقاتها. وطوف الحافظ السلفى ما طوف فى أكثر بلاد العالم الإسلامى وراء الحديث ثم استقر به الأمر فى الأسكندرية إذ بنى له الوزير المصرى ابن السلار مدرسة للحديث سنة ٥٤٦ هـ وفوض أمره إليه فصارت مدرسته كعبة يحج إليها طلاب الحديث.

إن الفقيه المالكى عبد الوهاب بن على الذى وصفه صاحب تاريخ بغداد انه لم يُرَ فى المالكية أفقه منه ضاقت حاله فى بغداد فتطلع إلى مصر الملاذ. واذ أكرمه المصريون «وعاش»، بقى فى مصر فلما حضرته الوفاة سنة ٤٢٢ هـ كان يقول: (لا إله إلا الله عندما عشنا متنا..).

ونبغ من المدرسة المصرية فى الحديث سليم بن عتر التجيبى وعبد الرحمن بن حجيرة أبو عبد الله الخولانى (وقد روى له مسلم فى صحيحه ووثقه النسائى) ونافع شيخ مالك وفقيه الحجاز، ويزيد بن أبى حبيب الأزدى والليث بن سعد.

ومن عطاء مصر فى الإسلام: الرجال

كان الشيخ عز الدين عبد السلام يقول (ديار مصر تفتخر برجلين فى طرفيها ابن منير بالاسكندرية وابن دقيق العيد فى قوص).

وكان الشافعى يقول للربيع بن سليمان: ياربيع أدع لى سرجا. يريد سرج الغول وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولايقول أحد شيئا فى الشعر إلا عرضه عليه -فيأتى به، فيذاكره ويناظره ثم يقوم سرج الغول فيقول للشافعى: ياربيع نحتاج أن نستأنف طلب **العلم**. كما كان الشافعى يقول عن فقيه مصر قبله، **الليث بن سعد**: (الليث أفقه من مالك غير أن أصحابه ضيعوه).

*** الفقه**

وكان لمصر شخصيتها فى الفقه: حين كيفت آراء الشافعى وحورت وبدلت فيها حتى اضطر أن يكتب رسالته من جديد فيها عدولا منه عن رسالته القديمة التى كتبها بالعراق متأثرا فى الرسالة الجديدة بالبيئة المصرى وبما خالط وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهه.

ومثل هذا فعله **بمذهبه**. ففى مصر كتب مذهبه الجديد وما أوسع الفرق بينه وبين مذهبه القديم الذى كتبه بالعراق. وكتابه (الأم) به شواهد كثيرة على تأثره بالبيئة المصرية كحديثه فى القراطيس. وشهادة الشعراء وصيغ الوقف.

أصبحت كتب الشافعى هى الكتب المصرية وحدها منذ القرن الرابع. وربما دل ذلك على أن ماتضمنه الحجة أو المبسوط تضمنته الأم. وربما دل **على أن الكتب المصرية وحدها كانت هى المعتمدة منذ النصف الأول للقرن الثالث**، قول أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١) لمحمد بن وارة إذ قدم إلى بغداد من مصر: هل كتب كتب الشافعى؟ قال لا: قال ابن حنبل: فرطت. فرجع الى مصر فتنسخ الكتب.. ولقد رووا أن ابن حنبل قال: (عليك بالكتب التى وضعتها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها، ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك). كما جاء فى كتاب الأستاذ عبد الحليم الجندى عن الإمام الشافعى.

وكان الشافعى نفسه يقول فيما روى البعض عنه (لا أجعل فى حل من روى عن كتابى البغدادى) وفى هذا ما فيه من **اعتماده كتابه المصرى واعتداده به وحده.**

لقد كان الشافعى تلميذا لمالك. يهاجم فى العراق مدرسة الرأى أى مذهب أبى حنيفة فما ان جاء مصر وتأثر بالحياة المصرية حتى مال عن مالك وكون مذهبه الجديد.

ومن الحديث (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) عن أبى هريرة رواه أبو داوود فى سننه والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى المعرفة.

هؤلاء المجددون الذين اقترنت باسمائهم حركات البعث التجديدى فى تاريخ الإسلام فى البضعة عشر قرنا، مصريون معظمهم بالمولد أو المربى أو الولاء.

ففى حياة هذه الفكرة التجديدية كما يقول الأستاذ الخولى (تجد مصر -كدأبها- مشاركة بحيويتها حاضرة بانبعاثها الذى يحدده تدينها المتفلسف وتفلسفها المتدين وعملها العتيد فى البعث ومن أجل البعث).

*** مصر وعلم القراءات:**

وكما اتخذت مصر الإسلامية دورا هاما فى علم الحديث اتخذت **دورا ذائعا فى علم القراءات. فمن (ورش) المصرى أخذ علماء المغرب عن تلميذه (أبى يعقوب)** الأزرق بن عمرو بن يسار المصرى وأخذ الأندلس عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصرى.

وفى القراءات **موسقت مصر الدين بطبعها الفنان.**

كتب الشيخ البشرى مقالا عن (تقاليد مصر فى الفن) جاء فيه أن متقدمى القراء فى مصر (لا يَبْدَءونَ قراءتهم إلا من البياتى، وبه دائما يختمون).

ويقول (على أننى لا أدرى من أين جاء مصر هذا التقليد، ولا متى كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد (ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا البياتى هو نغمة البلد الأصلية، أو هو من أصل النغم التى تتقلب فيها حناجر المصريين. ففى الحق أن هذه النغمة، فوق سعة أفقها، وتقبلها لكثرة التصرف والتلوى، فإن المصرى يجد من الاستراحة إليها والأنس بها، ما لايجد لكثير.

أو لعله يرجع إلى هدوء فى طبيعتها، يلين للحناجر قبل أن تصقل وتجلى، ثم يتلطف لها بعد ما نهكها الجهد الشديد).

وفى يقينى أن ترتيل القرآن يسهم فى محو الأمية بتركيب الموسيقى القرآنية فى شعور الإنسان السامع.

وبعد القرآن يأتى الأذان. وعمل مصر فيه يحدث عن التناسق والهارمونى فى ذوقها.

فإن جميع مؤذنى المساجد فى القاهرة كانوا كما يروى الشيخ البشرى فى كتابه «قطوف» (إذا ظهروا المآذن للهتاف بالأولى أو «الأولة» –ومن أولة الأذان هذه، ابتدع بيرم، فيما أرجح، حين تشرب الروح المصرية، ألوان الأولة فى الغناء– وقفوا وقد أرهفوا آذانهم، وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصدر إليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج لليلتهم. فإذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنغمة الرصد مثلا، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالصياح بها، وأخذ أخذهم مجاورهم ومن تقع للاسماع أصواتهم، وهكذا فلا تمضى دقائق إلا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة الرصد، وإذا بدأ بالبياتى، أو بالحجاز، أو بالسيكاه.. الخ. فهكذا وماشاء الله كان!).

وهذا اذا دل من ناحية على القصد فى ضبط المؤذنين لأصواتهم، وتحكمهم فى نبراتهم وعدم تأثرهم بالأنغام الأخرى، وإلا اضطروا إلى الخطأ، ودفعوا برغمهم إلى النشوذ (النشاز) إذا دل هذا على شيء فإنه فى الموقف نفسه دليل على أن أهل مصر أو سكان القاهرة على الاقل، **كانوا أصحاب فن، وأهل ذوق، وعشاق تطريب!).**

مصر وتفسير القرآن:

وأسهمت مصر فى تفسير القرآن حتى قصدتها الرحلة فى طلبه. حتى البخارى نقل فى تفسيره وتاريخه من «الصحيفة المصرية» فى التفسير كما نقل عنها ابن جرير الطبرى الشطر الأكبر من تفسيره ونقل عنها معاوية بن صالح قاضى قرطبة، **وشاد بها جمع من العلماء** حتى ليقول أحمد بن حنبل فى مسنده –(بمصر صحيفة فى التفسير لو رحل فيها إلى مصر قاصدا ماكان كثيرا).

وعلى الصحيفة المصرية ارتكزت التفسيرات فى سائر الاقطار الاسلامية بما شملت من تفسير مفردات غريب القرآن بل تفسير الآيات تفسيرا تاما مع ذكر ناسخها ومنسوخها.

وفى القرن الرابع الهجرى كانت مصر تمثل قمة الثقافة الدينية فقد كان فقيهها أبو بكر بن الحداد عالما فى وقت معا بالقرآن والحديث، والاسماء والكنى، والنحو واللغة وسير الجاهلية، والشعر والنسب، واختلاف الفقهاء وكان أعلم أهل وقته.. وكان يدرس فى جامع عمرو وأخذ عنه أعلام الجيل الذى بعده.

وقد تكلم المشارقة فى إعجاز القرآن ولهم فى هذا الموضوع كتب مشهورة ولكنه حديث الدراسة للمصطلحات البلاغية وفنونها ولكن **الدرس الشامل المستقصى.. الدرس الذوقى الفنى للآيات القرآنية** وفنونها الجمالية وتخديم الشعر والنثر لها إنما قامت به مصر بحسها الشاعر الشفاف.

يقول الأستاذ الخولى (ان كل مانملكه من المصنفات –المفردة فى بلاغة القرآن إنما يرجع فيه الفضل إلى المدرسة الأدبية المصرية، التى كانت ظاهرة الأثر فيما حولها من الشرق القريب).

وكم فى العصر العباسى من علماء الدين ممن أنجبت مصر بل ممن **كانوا أقباطا** أمثال ابن القطاس سعيد بن زياد صاحب الحلقة فى المسجد، وسعيد بن تليد كاتب القضاء، ويحيى بن بكير الفقيه المؤرخ.

ومن الظاهرات ذات الدلالة على شخصية مصر فى الإسلام أنها وقفت من العقيدة موقفا يتفق مع طبيعة الإسلام البسيطة السمحة.. ومع طبيعة مصر الصافية السهلة بلا كلفة أو تعقيد. **رفضت مصر أن تتبع الآراء والأهواء التى عرفت فى بعض البلاد الإسلامية من الشيعة والخوارج والمعتزلة**. لم تمل لهم مصر ولم تتجاوب معهم بل لاذت بالمعنى الجامع والكلمة الشاملة.

وفى القرن السابع الهجرى عندما كثرت فيه الفرق والنحل واستشرى الخلاف بينها. وإذ حزب الأمر تطلع الإسلام والمسلمون إلى مصر لتحسم الموقف كدأبها فى الأزمات الكبرى. فاتفق رأى العلماء على رجلنا الشيخ تقى الدين السبكى ليوفق بين المذاهب الأربعة ويخرج منها بالنفاذ المصرى واللمح المصرى، والوجدان المصرى مذهبا ينقاد الناس له، ويرتاحون إليه، ويقرون عنده.

وإذا لم يكن هذا الميل إلى التوفيق مصريا فقط فى هذا الشاهد فانا لنجد كما يقول الأستاذ الخولى: (هذا الميل المصرى للتوفيق بل الدعوة إليه يتجه إليها صوفى مصرى بلدى السبكى هو الشعرانى، وهو أصيل فى الفقه فوق كونه صوفيا من الطراز الأول. وقد حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة كمحاولة التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال. ويقول الباحثون الغربيون أنه مصلح يكاد الإسلام لايعرف له نظيرا. وحسبنا تزكيه لميل البيئة المصرية إلى هذا التوفيق الفقهى الذى لاتسمع فيه لهذا العصر صوتا أجهر من هذا الصوت).

مصر والفن الإسلامى:

لقد تلقى الفنان المصرى التشكيلى اللغة العربية فاستخدم موسيقاها فى فنه. فان من يتأمل الألوان فى رخام أرضية السلطان حسن يجده لونا (بديعا) فيه تقابل الألوان وتجانسها على مثال الطباق والجناس فى الأدب وأحيانا يسجع الفنان المصرى المسلم بالخطوط والتشكيلات.

واستلم الفنان المصرى فى العصر الإسلامى نظام الأحجار المتداخلة فى البناء **ولكنه زاد عليه (التقسيم) بالألوان**. كان مأخوذا بالنظام والموسيقى من أثر التاريخ الطويل، فخلق من (التقاسيم) فى الفن الإسلامى، أفراحا تغنى.

وتأتى القبلة (فتنشد) بالألوان وتقاسيم الخطوط فى (الحنى) تواشيح.

لقد موسقت مصر الدين حين رددت آياته، ورتلتها ترتيلا، لأنها تعرف بالحس الحضارى أن القلب البشرى يحن إلى النغم والتناغى فإذا اقترن المعنى الشريف بالنغم الجميل تلقت النفس سيالا من الحنان.

والفن الإسلامى فى مصر حين يطعم ويرصع، يستجمع خبرات المكان الذى أنطق الحجر. ولعب بالذهب، ومهر فى التشكيل والتصوير.. وهنا تخرج المشكاوات المصرية وكأنها صيغت من ضياء الجواهر النادرة فيما بين القصرين مما أغدقته، على الفاطميين، القاهرة.

ففى العصر الإسلامى غلبت شخصية مصر على الصناعة والفن فساد فى الزخرفة استعمال الحفر والتلوين والتطعيم بل اقتنى الحكام المسلمون التماثيل، هواية مصر المحبوبة منذ القدم مع توهم كثير من المسلمين تحريم الدين لها، وما حرم الدين إلا المعبود منها أو ماقصد به العبادة. ومتى؟ فى حداثة العهد بالاسلام.

لقد كثرت التماثيل فى العصر الفاطمى حتى كانت تهدى إلى قاضى القضاة وحين نسب المقريزى إلى صائم الدهر تكسير أنف أبى الهول وكسر التماثيل فى عصر الاضمحلال، علق على هذا بأنه **عمل ينافى الدين**.

يقول الأثرى الإسلامى الكبير الأستاذ حسن عبد الوهاب فى بحثه الذى ألقاه فى مؤتمر الآثار فى البلاد العربية المنعقد فى دمشق سنة ١٩٤٧ :

إن العمارة الإسلامية فى القاهرة امتازت بميزتين: الأولى أنها **احتفظت بالكثير من التفاصيل المعمارية** التى انعدمت أو قلت من الأقطار الأخرى التى كانت تشترك معها فيها، والثانية أنها **انفردت بمميزات اقتصرت عليها**، مثل القباب والمنارات ودقة أعمال النجارة والجس والرخام، ميزتها على كثير من سائر البلاد الإسلامية).

ولما كانت (المساواة) قيمة كبرى من قيم الإسلام، فقد انعكست هذه (القيمة) على العمارة الإسلامية من إيثار الإسلام لها، وإحتفاله بها، وتأكيده عليها...

مالت العمارة الإسلامية إلى الأفقية التى تحمل معنى المساواة حين تعين «الرأسية» على التفاوت، و«ترفع» الارتفاع وشموخه. ولهذا يقوم نظام النسب فى الإسلام كما يقول العالم الأثرى الاسبانى «دون مانويل جومث مورينو» على أساس الوضع الأفقى وكأنه تحية لروعة الخلق الإلهى فى البحر والسهل.. وكأنه تأكيد لصفوف المؤمنين فى المسجد حين الصلاة. ولايستثنى من الأفقية الإسلامية المحببة إلى الفنان المسلم، إلا المئذنة لحاجة الدين إلى انتشار دعوة الآذان على مساحة واسعة لإقامة الصلاة أحد أركان الدين الخمسة ولايتحقق الانتشار المنشود إلا إذا انطلق الصوت طليقا على ارتفاع.

حتى مايخرج عن «الأفقية» من الأشكال، يطوعه الفنان المسلم لها فيؤثر الزاوية المنفرجة على القائمة بارتفاعها.(١)

وتتمثل الأفقية المنعكسة عن المساواة الإسلامية فى ميل المعمارى المسلم إلى السقوف المنخفضة بدءاً بجامع المدينة ثم جامع عمرو بل جامع قرطبة وجامع ابن طولون.

ولكن مصر مالبثت أن عملت على تصعيد الارتفاع بوراثاتها القديمة التى رفعت المسلة والهرم.

ويتجلى ميل مصر إلى السمو فى الأعمدة والأسقف فى جامع السلطان حسن حتى ليسميه أساتذة العمارة من المستشرقين هرما إسلاميا.

* * *

---

(١) اقرأ (كتاب القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية) للدكتور عبد العزيز سالم.

وأضافت مصر الإسلامية إلى قديم فنها فى الحفر، الغائر منه والبارز، والتخريم والترصيع بالمينا.. **فن التكفيت**. ومن مصر خرج هذا الفن، وباسمها سار، وعنها أخذته أوروبا فقلدت أيطاليا دون أن تضاهى فلم تبلغ أوج مصر ولم.. تشائيها.. ومضت (بيزا) بفخر اقتناء أروع تمثال برنزى يجمع بين جسم الأسد ورأس النسر، آية من مصر.

وأبرز ماتجلت شخصية مصر القديمة فى العصر الفاطمى الذى تم فيه تعريبها وتأصيل إسلامها.

ففى العصر الفاطمى الذى يعتبره المؤرخون نقطة تحول فى تاريخ مصر من الناحية الدينية.. فى العصر الفاطمى هذا أطلت مصر القديمة كالمعتمدة على الحياة المصرية ذات القيمة ففرضت أسلوبها على الفن فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التى ألفها أجدادنا وتجلت كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق (فى صورة رائعة نشاهدها فى حجاب كنيسة الست بربارة بالمتحف القبطى. وفى المنبر الموجود فى مسجد قوص وفى محراب السيدة رقية وألواح القصر الفاطمى الصغير فى المتحف الإسلامى).

يقول الأستاذ حسن عبد الوهاب فى كتابه «من روائع العمارة الإسلامية فى القاهرة) إن الدولة الفاطمية (أحضرت معها فى مستهل حكمها بالقاهرة بعض أساليب العمارة التونسية، ولم تلبث طويلا حتى تخلصت من تلك المؤثرات وأصبحت لها طابع قاهرى بحت فى جميع تفاصيلها).

ويقول الفنان الأستاذ حامد سعيد فى حديثه عن الجمال الرياضى المصرى: (أن الأعمال المصرية لها جوها الخاص الذى يميزها حتى عن الأعمال التى خرجت مثلها من ثقافة واحدة إلا أنها فى بيئة أخرى كما هو الحال فى الفن الإسلامى فى الهند وايران والعراق وتركيا وبلاد المغرب وأسبانيا حيث تشترك جميعها مع الفن المصرى الإسلامى فى وحدة ثقافية كبرى ولكن الفن المصرى الإسلامى يشيع فيه ذلك الجمال الرياضى الذى هو طابع الفن المصرى خلال العصور).

ومهرت مصر بفنها وزخارفها الهندسية والنجمية أشهر الآثار الإسلامية فى العالم مما يشهد به تابوت الإمام الشافعى بقبته وتابوت الإمام الحسين ومنبر مسجد ابن طولون.

وفن الزخرفة فن مصرى قديم وولع مصر به تحكيه آثارها فيه ونقوشها التى تدل على مساحاتها الكبيرة على أن الزخرفة المصرية كما تقول Pavla Fortova-Samalova

فى كتابها Egyptiian Ornament (لم تكن تنبع فقط من رغبة حميمة فى التعبير عن الإيقاعات العميقة للحياة فى أسلوب منظور، وتنبع من حاجة الإنسان إلى رسم ممتلكاته الخاصة بشكل ما.

كما تعكس هذه الآثار إحساس مصر باللون وقدرتها على التنويع باستعمالها عددا محدودا من الألوان لتخلق منه عددا عظيما منوعا).

وأعطت مصر فيما أعطت طرقا جديدة لم تكن معروفة من قبل وذاعت بفضلها فى شرق العالم وغربه كطريقة التعشيق وطريقة التجميع وطريقة الخرط مما كسبه العرب من مصر فيما كسبوا. وإذ عرفته أوروبا عن طريقهم في الاندلس، سمته «الأرابيسك» وعاشت تسميتها «الأرابيسك» **وما هو إلا فن مصرى قديم** تشهد به آثار توت عنخ آمون والمتحف القبطى والآثار القبطية التى تعد نماذجها فيه امتدادات لروائع مصر القديمة. وأنا لا أحيل القارئ على المعابد المصرية المنتشرة على صفحة الوادى فتلك مهمة متعذرة فى زحمة الحياة، إلا على الدارسين والمفتونين ولكنى أطلب الى القارئ أن يطالع كتاب: Egyptian Ornament ليرى فنون الزخرفة المصرية ثم أدعه يقابل ويحكم بنفسه. ولكن العرب عندما أخذوا مايسمى الآن «الأرابيسك» طوروه حتى وصل فى الحمراء إلى ٦٤٠ شكلا.

وأعطت مصر للفن الإسلامى، الجامع الأقمر بواجهته التى تعتبر قطعة من الفن الجميل والتى نشاهد فيها لأول مرة الزخرفة المعروفة بالمقرنص Stalactite والتى أصبحت من أخص مميزات الفن الإسلامى كما يقول الدكتور عبد العزيز مرزوق كما نشاهد فيها الأحجار التى تفنن البناء فى قطعها وتعشيقها وهى -ظاهرة معمارية ظهرت لأول مرة فى مصر فى عصر البطالمة فى مقابر كوم أبويله ثم اختفت لتظهر من جديد فى هذه الواجهة. كما نشاهد أيضا كثيرا من العناصر الزخرفية التى كانت مألوفة فى العصر القبطى قد رسمت هنا بطريقة متقنة تدل على نضوج الملكة الفنية عند رأسهما. والواقع أننا نلمس فى زخارف هذا المسجد و«جامع الحاكم» الروح الفنية المصرية وندرك أنها أخذت تبرز من جديد قوية واضحة بعد أن تخلصت من الفن الأجنبى الذى فرض على البلاد فى العصر الطولونى.

حتى الزخرفة بالاشكال الهندسية من مثلثات ومربعات ودوائر وخطوط متلاقية ومتقاطعة مما اشتهر به الفن الإسلامى تعود إلى الفن القبطى الذى لجأ إلى هذا الأسلوب

فى مرحلة من مراحله خدم فيها الرمز فى التعبير وتعمد البعد عن تصوير طبيعة الإنسان حتى لايتورط فى رسوم لايرضى عنها رجال الدين.

ولما لم يكن رجال الدين فى الإسلام أقل تحرزا فإن الفنان المسلم لم تطل حيرته إذ وجد فى مصر **الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعانى الرمزية** التى تبعد عن تصوير الأشخاص فقبس منها. وهكذا نجد كما يقول الدكتور مراد كامل (صفات مصرية أصيلة راسخة فى الفن المصرى المسيحى الذى سلمه بدوره إلى الفن المصرى الإسلامى).

ومن أجل هذا وغيره يعتبر الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق، الفن القبطى «حلقة اتصال بين الفنون المصرية القديمة السابقة على الإسلام وبين الفن الإسلامى».. فمن النقوش الموجودة على المعابد الفرعونية ومن آثار البطالمة، ومن الفسيفساء الرومانية، ومن التحف الساسانية والبيزنطية التى وصلت إلى مصر عن طريق التجارة أو الإهداء.. من هذه الأشياء استمد الفنان المصرى القبطى عناصره الزخرفية التى كون بها فنه الجديد ركيزة استمد منها بدوره الفنان المصرى المسلم فنه الجديد.. القديم.

وأعطت مصر الفن الاسلامى مدرسة السلطان حسن التى تعد من أعظم الآثار الإسلامية فى العالم وأروعها فى مصر.

ومصر هى التى استعملت لأول مرة الفسيفساء المذهبة حين زين بها البناء المصرى محراب قبة الملك الصالح نجم الدين أيوب التى أنشأتها زوجه شجرة الدر.

مصر أول من استعمل القبو فى التسقيف عندما بنت مشهد الجيوشى حين افتن الفنان المصرى فى محرابه فكان آية...

ومصر هى التى طورت (القبة) التى غدت من معالم الفن الإسلامى وبلغت بها ذروتها فى عهد المماليك حين أهدى الفن المصرى، قلاوون، قبته ومحرابه، مستمدة القدرة مما أسلفت فى فن العمارة والنقش والزخرفة حتى لتعد زخارف الفنان المصرى فى واجهات المساجد والمآذن امتدادات لفن مصر القديمة بما حوت من عناصر زخرفية...

وإذ عاد من جديد النشاط إلى المحاجر والنقش على الحجر.. ابتسم القدر وتذكر الزمن.

وكما أعطت مصر الفرعونية للدنيا القديمة أوانى الفخار الجميلة وابتكرت الخزف وحذقت صناعته وعلمته غيرها من البلاد، **أضافت مصر الإسلامية، الخزف ذا البريق المعدنى ثم ابتكرت مصر صناعة القراميد.**

حتى الفخرانى المصرى البسيط تفنن فى تشكيل القلل وزخرفة شبابيكها زخرفة تظفر بإعجاب الرائى.

وابتكرت مصر فى عهدها الإسلامى الزجاج ذا البريق المعدنى «كما ابتكرت مصر الزجاج المموه بالمينا». والمشكاوات التى أثرت عن مصر فى العصر المملوكى تشهد بعلو كعبها فى صناعة هذا اللون الحضارى. وتطلعت إيطاليا إلى مصر مرة أخرى فقلدتها.

إن الزجاج المصرى عنوان شفاف للحضارة المصرية. وقد وصل الزجاج قمته فى مصر الفاطمية. يوم أعطته مصر فيما أعطت البللور الشفاف. لقد انشرح صدر مصر للعطاء.

أطلت مصر القديمة على الحياة الفنية فلعبت دور الطراز التى عرفت بها مصر دورها فى قصور الخلفاء والأمراء والحكام فى أنحاء العالم الإسلامى. وكانت الكعبة أبرز ما اقترن باسم مصر من أصحابها حتى صار تقليدا مصريا أن تصنع مصر كسوة الكعبة سنويا.

وأحب العرب من مصر المطارف والقباطى والبدنة والقصب وكم سفر لمصر فى الخارج نسيجها وحريرها وطنافسها.. نعم طنافسها فقد اثبتت حفائر الفسطاط سبق مصر فى صناعة السجاد ومنافستها لإيران فى هذا المضمار الذى يحسبه البعض وقفا عليها. وفى متاحف أوروبا بعامة وڤيينا بخاصة يقوم الدليل.

يقول اريرى (إن مصر تقوم وسط العالم الاسلامى فى الصميم ومن ثم كانت لها صلاحية الدور القيادى فى الحركات الإسلامية بما هى مهيأة له.. تماما كما فعلت فى العصور الإغريقية والمسيحية إذ كانت بمثابة مستودع تبتقى فيه أفكار وثقافات الشرق والغرب وحتى اليوم يعجب المرء من أن مصر لاتزال تمثل هذا الدور. تقدم الغرب إلى الشرق الإسلامى وتقرب بنفس القدر والاهمية الشرق الإسلامى إلى الغرب.. كان هذا ولايزال عمل مصر الأرفع. وفى هذا العمل لعبت مصر دورا لاينكر ولايجحد فى مقدرات الإسلام).

مصر فى العربية:

لقد أخذت مصر فى بداية عهدها باللغة العربية علوم العربية عن العراقيين.. والحجازيين بالطبع بدراسات أدبية ونحوية ولغوية ونبغ من أبنائها الكثيرون ثم رحل إليها من

.الاندلس الباجى الاشبيلى وابن لبابه وغيرهم. وقامت مساجد مصر بدور كبير فى١٦٩
الثقافة الإسلامية حتى لقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء. مائة وعشرين مجلسا من مجالس العلم. فكانت مطمح طلاب العلم وأساتذته على السواء وفيها تخرج أعلام وتلقى مشهورون. أدى عن مصر هذا الدور الحاسم، جامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص بل سوق الوراقين حيث كانت تدار فى دكاكين الكتب المناظرات ثم، الجامع الأزهر فيما بعد حيث كانت مصر تشع العلم وتجرى الرزق.

قامت مصر مقام مدارس بغداد فى المشرق، ومدارس قرطبة فى المغرب فقد ورثها جميعا بعد أفول الدولتين الأموية والعباسية، الجامع الازهر الذى انفرد (بامامة العلم فى بلاد الإسلام).

تلك الإمامة التى شهد بها حتى الترك – وما أكثر مابين مصر وبينهم – فقد كان الوزير العثمانى (أحمد باشا) يقول عن مصر إنها (معدن العلوم والمعارف).

اختص الأزهر كما يقول الاستاذ عبد الحليم الجندى (أول مرة بتدريس فقه الشيعة. فظلت للشافعية والمالكية حلقاتهم بالجامع العتيق عمرو ثم صار الأزهر لكل المذاهب. وقصده الغرباء وألقى فيه الدروس مشيخة العلم، طوال القرون الماضية مثل عبد اللطيف البغدادى وابن خلدون.

ولما عفت معاهد بغداد وقرطبة، أقبل المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها على الأزهر، فكان ملاذ الشعب والدولة – حتى إذا كان الاحتلال العثمانى (٩٢١ هـ – ١٥١٧م) بقى الأزهر يحمل المشعل، فحفظ للامة تراثها من القرآن والسنة واللغة والعلوم.

وفى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى نهض الأزهر، بأعظم كفاح لطرد الغزاة الفرنسيين، وها هو ذا اليوم يحمل تبعاته فى نهضة الأمة الإسلامية كجامعة كبرى لعلوم الدين والدنيا، من كليات أصول الدين والشريعة والقانون واللغة. إلى كليات الطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها).

وفى خارج مصر حدث بناء المدارس فى القرن الخامس. كالمدرسة البيهقية والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية لدراسة الدين والفقه.

ولكن لم يبق على الزمن إلا الأزهر يصدر العلم إلى بلاد المسلمين ويوفر العلماء. يقول الأخ السورى الدكتور أسعد طلس، فى حديثه عن العهد العثمانى بالشام، (ولولا الأزهر فى مصر لانطفأت شعلة العلم فى الشام).

ويقول أيضا فى كتابه: «مصر والشام فى الغابر والحاضر» (استطاع –أى الأزهر– خلال المحنة الشاملة أن يستبقى شيئا من مكانته فيغدوا ملاذا أخيرا لعلوم الدين واللغة ويغدو بنوع خاص معقلا حصينا للغة العربية تحتفظ فى أروقته بكثير من قوتها وحيويتها ويدرأ عنها التدهور النهائى ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها.. وربما كانت هذه المهمة السامية التى ألقى القدر زمامها إلى الجامع الأزهر فى تلك الأوقات العصيبة من حياة الأمة المصرية والعالم الإسلامى بأسره هى أعظم ما أدى الأزهر من رسالته وأعظم ما وفق لإسدائه إلى علوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل).

الأزهر:

الأزهر من العالم الإسلامى واسطة العقد فهو يؤمه وضعا، ويتوسطه موضعا. يقوم على ارض الحضارات والعلوم والفنون منذ القدم مما يمده بالبقاء والأصالة والاقتدار... وهو لايبعد عن الحجاز مهبط الوحى ومهد الرسالة وموطن الرسول.

وهو فى الشمال من إفريقيا.
وفى الغرب من آسيا.
وفى الجنوب من أوربا.
وكلها تسعى إليه وتلتقى عنده.

ولعل نظام الاروقة الذى يسود به خير شاهد غلى هذا. بالأزهر ٣٦ رواقا يؤمها المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها. يتدارسون فيها علوم الدين وشعائره.

والأزهر هو ملتقى المسلمين من آسيا وافريقيا وأوروبا وجميع أنحاء العالم، الأزهر هذا ومن ورائه مدينة البعوث الإسلامية ينهض برسالة شاملة اليوم كالأمس. رسالة دينية واجتماعية وسياسية.

به اتصلت حياة الأحرار وأصحاب الدعوات كالكواكبى حين جاء من سوريا، بل من الأزهر سافر الشيخ محمد عبده إلى الشام فالتف حوله السوريون سنة ١٨٨٥م (يتلقون عنه دروس العلم والحكمة والخير) كما يقول الدكتور اسعد طلس.

كما ترك الشيخ محمد عبده فى بيروت أثرا عظيما.

بل إن بعض الدعوات الاجتماعية فى بعض بلاد الشرق، نهض بها أبناؤها ممن تلقوا العلم فى الأزهر. وليس إلى الشك من سبيل أن جزءا كبيرا من تاريخ باكستان المعاصر قد كتب فى رحاب الازهر وفى رحابه كتبت فصول من قصة تحرير اندونسيا.

بل كذلك تونس والمغرب وليبيا والجزائر وكثير من بلاد افريقيا وآسيا.

إن الأزهر حلم الملايين فى القارتين.

وفى الأزهر قامت الدعوة إلى الإصلاح الدينى على يد الشيخ محمد عبده والشيخ المراغى.

كما يمثل الأزهر الساهر على الثقافة الإسلامية.

إن أضبط مصحف كتابة، ورسما، وشكلا من عمل الأزهر.

والمصحف المرتل.

والمصحف المجود.

إن الأزهر على مسار ألف عام، **يقوم علامة مضيئة بارزة فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ مصر على السواء وفى تاريخ الأمة الإسلامية.**

لقد اشترك الأزهر فى صنع الأحداث بمصر والمنطقة العربية بل والعالم الإسلامى. ففى رحباته قام الخطباء والزعماء والمصلحون وأهل الفكر من أنحاء العالم الإسلامى بالدعوة إلى إصلاح الدين والدنيا بما يعنيه الإسلام من شعائر وشرائع.

ومن رجال الأزهر رفاعة الطهطاوى وسعد زغلول وعلى مبارك والشيخ محمد عبده والشيخ المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ شلتوت والشيخ عبد الحليم محمود.

حتى النهضة الحديثة تدين للأزهر بروادها كتابا وأدباء ومفكرين وعلماء حتى أولئك الذين انسلخوا منه فى فورة الشباب وثورة الطموح أمثال الدكتور طه حسين وصاحب الرسالة الأستاذ أحمد حسن الزيات والأستاذ الزناتى ولكنهم لم ينسوا الأزهر فى حياتهم أو فى كتاباتهم... أيامهم به وآمالهم فيه.

حين ترجم الأستاذ الدكتور أحمد أمين لحياته وقف وقفة طويلة عند الأزهر...

بل إن الذين تخرجوا من القضاء الشرعى إنما يمتدون بجذورهم العلمية الى الأزهر فقد كانت تجهيزية الأزهر وسيلتهم إلى مدرسة القضاء وأحد هؤلاء الأعلام الأستاذ أمين الخولى.

وفى الأزهر تحلقت حول جمال الدين الأفغانى الندوة.. وإلى الأزهر اشرأب الملوك والسلاطين والأباطرة يجسون نبض شعوبهم على وقع كلمات الإصلاح تنادى بها السلطة الحقيقية وهى السلطة الروحية ممثلة فى علماء الأزهر ورجال الفكر والعلم حتى لقد طلب

الشاه وساطة سلطان تركيا عند جمال الدين الأفغانى أن يوقف الحملة عليه فقال العالم فى عزة المؤمنين الذين قرنهم الله برسوله فى الآية (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) قال الأفغانى ردا على رسالة سلطان تركيا: (قد عفوت عن شاه العجم...).

وكم للأزهر ورجاله من مواقف فى حياة العالم الإسلامى، وكم للأزهر ورجاله من منازف فى قلوب الملسمين فى مختلف ديارهم.

* * *

وتعددت مراكز الحياة الفكرية فى مصر وفيها نبغ عدد من العلماء ذكرهم الحافظ السلفى فى معجمه. وكانت أسوان وقوص وأسيوط من مراكز العلم فى مصر وحواضره وكانت الاسكندرية.

وقد اشتهرت الاسكندرية فى القرن السادس الهجرى بمدرستين كبيرتين.. للثقافة الإسلامية بعامة والحديث بخاصة وهما: المدرسة العوفية نسبة إلى ابن عوف أحد فقهاء الاسكندرية ومفتيها فى مذهب مالك، والمدرسة السلفية وشيخها الحافظ بن طاهر السلفى.

وبعد غارات المغول والتتار فى الشرق وحركات الافرنج فى الغرب (اسبانيا) كثرت الرحلة إلى مصر وتجمعت الحركة الفكرية فى القاهرة. وكما حفظت مصر من الضياع آداب اليونان وعلومهم والتى اعتمد عليها العرب فى تكوين شخصية حضارية لهم، **حفظت فى هذه الهزات تراث العرب الأدبى والفنى بل ونشرته بينهم فى مختلف بلادهم.**

وبعض دور مصر فى العلم، **العلماء** وما علموا. ومن أبناء مصر الذين عاشت على كتبهم الثقافية الإسلامية حتى عصرنا الحاضر:

على بن منجب الصيرفى الذى نقل عنه صاحب جريدة القصر، **وابن برى النحوى** الذى أخذ عنه أبو موسى الجزولى صاحب المقدمة فى النحو. قدمت مصر أيضا **جمال الدين بن هشام** صاحب اللبيب الذى أشاد به ابن خلدون فى مقدمته، **والقفطى** النحوى اللغوى العروضى الأديب صاحب المواقف الأبية عند السلاطين والأمراء الذين كانوا فى إجلالهم له يخدمونه.

والقفطى (على بن يوسف) صاحب التواريخ.

والسخاوى صاحب الشروح.

والبوصيرى صاحب البردة.

وابن ظافر الأزدى صاحب بدائع البداثة.

والليث بن سعد، وابن الوزير التجيبى، وعبد الحميد بن الوليد المصرى، والشاعر المصرى الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر، والشاعر سعيد بن عفير الذى كان الوالى عبد الله أبن طاهر يقول (رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء النيل والهرمين وابن عفير).

الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء كما كانوا يدعونه.

ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين وملوى وأول من ألف بالعربية فى الأقباط. وكتابه «تاريخ البطاركة» **موسوعة** استمد منها المقريزى الكثير من خططه كما نقل عنه القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى».

وممن احتضنتهم مصر:

عبد اللطيف البغدادى العلامة والرحالة.

والسرقوسى عثمان بن على بن عمر النحوى الصقلى.

وابن خلكان، ونجم الدين المغربى القصرى.

والخطيب التبريزى البغدادى.

والشاطبى صاحب القصيدة المشهورة فى القراءات (الشاطبية) وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتا.

وممن سمعوا على مصر:

الهمزانى صاحب التصانيف الفائقة.

وابن الجلاجلى...

وابن سعدون القرطبى.

وابن ظفر الصقلى.

وابن الحاجب وهو ممن نشأتهم مصر اذ ولد بها. وهو صاحب كتابى الكافية والشافية فى النحو وله المؤلفات الثقة فى العروض وعلم الأصول والجدل وعلم الفقه.

وممن صنعتهم مصر على عينها القاضى الفاضل الذى تعلم فن الكتابة عن الخلال المصرى. والقاضى الفاضل يعتبر أحد أربعة معالم رئيسية فى تاريخ الادب العربى أو أربع طبقات: ابن المقفع، الجاحظ – ابن العميد – والطبقة الرابعة على رأسها القاضى الفاضل.

ومع الرجال النساء

فقد كان بمصر من النساء المشهورات بالعلم والأدب جماعة ذكرهن السلفى فى معجمه وابن خلكان فى الوفيات، من بينهم:

تقية بنت غيث بن على الأرمنازى وخديجة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى المدعوة مليحة والجديدة بنت المبشر بن فاتك الدمشقى.

وست الأكياس المصرية التى نوه بها السيوطى فى حسن المحاضرة.

ومن معطيات مصر فى العربية الموسوعات كصبح الأعشى للقلقشندى المصرى.. **والقواميس** كالذى وضعه ابن منظور الذى يعد أعظم موسوعة لغوية فى اللغة العربية. (وهكذا وضعت مصر لسان العرب).

ولم تكتف مصر بالتفوق فى العلوم العربية البحتة بل ابتدعت من وحى طبيعتها علوما وفنونا أهدتها إلى اللغة العربية فيما أهدت. **فابتدعت مصر فن «الخطط والأخائذ»** على يد أبن عبد الحكم يقول الدكتور كامل حسين: إن هذا النوع من التاريخ لم يكتب فيه أحد قبل المصريين مما أخذه عنهم مؤرخو مصر الإسلامية كابن زولاق – والكندى والقضاعى وأبن دقماق والمقريزى من أصحاب الخطط. كما يبدو أثر مصر واضحا فى كتاب «المغازى» لابن إسحق.

ونبغت مصر فى فن السير لسابقتها فى تدوين التاريخ وتسجيل الحوادث فملىء الادب الشعبى المصرى بفن السير. فالمصريون هم الذين وضعوا سيرة «عنترة بن شداد» و«سيرة البدوية» ثم «سيرة الهلالية» وسنفرد للأدب الشعبى فصلا يفصل ما أوجزته هذه الاشارة.

وفى مصر دون باقى بلاد العالم الإسلامى عرفت الكتب العربية التقسيم والتبويب والموضوعية حين جرى علماء العراق على طريقة الأخذ من كل شيء بطرف.

ولعل أسلوب مصر الحضارى فى التأليف يمت الى عراقتها فى المعرفة. وقد غلب أسلوبها كشخصيتها حتى أن الفارابى عندما دخل مصر ومعه كتابه «المدينة الفاضلة» سأله المصريون أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

أما عطاء مصر فى البلاغة. **فقد كانت مصر مدرسة بلاغية أدبية** تقابل مدرسة **المشرق** البلاغية الكلامية. ولمدرسة مصر، فضلا عن المسامته، آثار فى المدرسة الفلسفية بالمشاركة القوية والتوجيه الخاص فقد نقدت مصر، نقدا عليه مسحة من التهكم مدرسة البلاغة الكلامية ورجالها وعلى رأسها الرازى والتفتازانى.

كانت مصر فى تصنيفها للبلاغة تستبعد بروحها الفنية، الفلسفة الكلامية. **استبعادا فيه بغض لها حتى ليسمى رجلنا السبكى**، هذا الاستبعاد، تطهيرا.

وعمل مصر فى البلاغة من خلال صاحب كتاب (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح) يتميز بتبرئتها من جمود الفلسفة وجفافها والاتجاه بها اتجاها عمليا.

كما تتميز بالموضوعية فى البحث، والتعمق، والمقارنة، والربط، والتحقيق والتصحيح، والاستنتاج، واللمح، والأناقة الحضارية، واللياقة والرهافة، والذوق الشاعرى وما يملك من رفيف وتفويف.. والدقة وسعة الأفق. والبسطة والرحابة وطول النفس بلا عسف ولاتزمت مما يغلب على كتب البلاغة الشرقية فى ذلك العصر.

هذه مصر فى البلاغة وهى فى (علم البديع) أبدع. فقد وصل المشارقة وعلى رأسهم السكاكى الى تسعة وعشرين نوعا من البديع ووصلت على يد بن أبى الإصبع إلى بضعة وعشرين فوق المائة! منها عشرين من ابتكارها بشهادة النقاد فى ذلك العصر مع مافى هذه الشهادة من غبن المنافسة الطبيعية بين النظراء وإلا فلماذا لم يلتفت غيرها إلى عشرات الأنواع التى لمحتها مصر بالذكاء والتوقد والبراعة ولطف الحس؟

وبعض ما ابتكرت مصر أو نفذت إليه مصر الذوق الحضارى:

النزاهة: نزاهة الهجاء عن الفحش.

والتدبيج: وهو فن التعبير عن المعانى بالألوان.

والتصرف: وهو اللعب بالكلام فى براعة وغندرة.

والتهكم والتندر: ومصر بخفة الظل لاتجارى فيه.

وطبيعى أن تهتدى مصر إلى هذه الألوان بوحى من طبيعتها وبمدد من ماضيها. ومثل هذا الصنيع فعلته مصر حين **أذاعت فى الأدب العربى شعره ونثره فن التورية.**

وبعض عطاء مصر فى البلاغة والبديع كتب كثيرة منها:

* (تنقيح البلاغة) لابى سعد محمد بن أحمد العميرى، النحوى، اللغوى.

* (رسالة البلاغة) للقاضى الفاضل.

* (الطريق إلى الفصاحة) للشيخ الرئيس علاء الدين.

النفيس المصرى..

* (معالم الكتابة ومغانم الإصابة) لعبد الرحيم بن على بن شيث يخالف فيه اصطلاحات البلاغة المأثورة عن المشارقة.

* (سر الفصاحة) لأبى محمد عبد الله بن محمد الشهير بابن سينا الخفاجى (ت ٤٦٦ هـ).

* (الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز) لسلطان العلماء أبى محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام المصرى (ت ٦٦٠ هـ).

* (بديع القرآن) للاديب الشاعر المصرى زكى الدين عبد العظيم، بين فيه مافى القرآن من فنون البديع فأحصى من ذلك مائة باب وثمانية أبواب.

* (تحرير التحبير فى علم البديع) للأديب الشاعر المصرى ابن أبى الأصبع.

ومن رجال مصر فى هذه الحلبة ممن ألفوا الشروح والحواشى والتقارير والأصول، والمتون ممن حاول الأستاذ الخولى لهم عدا:

الأنصارى – والعزى – والأخضرى – والخفاجى – والعليمى – والطبلاوى – والبهوتى فى القرن الحادى عشر.

والحفنى والملوى والدمنهورى والسندوبى فى القرن الثانى عشر.

والأجهورى، والأمير، والصاوى، والباجورى، والعطار، والخضرى، والمرصفى، والدسوقى، والبدانى فى القرن الثالث عشر.

والإبيارى، والإنبابى، والشربينى، والطهطاوى فى القرن الرابع عشر.

هؤلاء بعض أعلام مصر فى البلاغة وأن استيفاءهم لكثير.

وبعد البلاغة، **الشعر.**

فى مصر اختفى من الشعر العربى آثار البداوة. فالشعر العربى فى مصر حتى ماكان منه من نظم القبائل العربية المهاجرة إليها، تسمح وجرى سهلا واختار البحور القصيرة التفاعيل وشاعت فيه الفكاهة المصرية التقليدية والسخرية اللاذعة.

كان من أثر مصر أن سرى فى الشعر العربى السمات المصرية معانى، وفكاهة وسهولة.. كل هذا بفعل البيئة المصرية والطبيعة المصرية المتبسطة فى مساهلة وعذوبة تنفر من التعقيد.

كما ظهرت الحوادث المصرية وصورة البيئة المصرية التى فرضت على الشعراء عدم ذكر الأطلال والديار والرسوم.

وظهرت العاطفة الجياشة فى الشعر المصرى فأضفت على الأشعار المصرية قوة ترتاح النفوس إليها كأبيات المعلى الطائى فى أولاده التى غلبت على أبى تمام حين جمع مختاراته المعروفة بالحماسة فضمنها هذه المقطوعة التى تعبر عن كل أب:

لولا بنيات كزغب القطا	جمعن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسع	فى الأرض ذات الطول والعرض
وانما أولادنا بيننا	أكبادنا تمشى على الأرض...
إن هبت الريح على بعضهم	أشفقت العين من الغمض

أما الفكاهة فتتمثل فى قصة الشاعر الملقب بالجمل الأكبر مع أحمد بن المدبر:

أردنا فى أبى حسن مديحا	كما بالمدح ينتجع الولاة
فقالوا أكرم الثقلين طرا	ومن جدواه دجلة والفرات
وقالوا يقبل المدحات لكن	جوائزه عليهن الصلاة
فقلت لهم وما تغنى صلاتى	عيالى إنما تغنى الزكاة
فأما إذا أبى الإ صلاتى	وعاقتنى الهموم الشاغلات
فيأمر لى بكسر الصاد منها	فتصبح لى الصلاة هى الصلات
فيصلح لى على هذا حياتى	ويصلح لى على هذا الممات

لقد ظهر الشعر المصرى ظهورا واضحا فى القرن الثالث للهجرة وقد تكلم ابن خلكان عن شعراء مصر، والثعالبى.

ومن الشعراء من تأثر بالبيئة المصرية الخالصة كالشاعر كشاجم الذى كان كلما رحل عن مصر، عاد به الحنين.

ووفد أبو تمام على مصر طفلا فروته من النيل ورويه من الشعر. فأنشد بها أول إنشاده كما يذهب بعض المؤرخين حتى ليعده الكندى وابن زولاق والسيوطى «مصريا» ودعوه شاعر مصر الأكبر.

وهكذا، ينمى إلى مصر شعراء فحول بالمربى والتعليم بل إن شعراء مصر فى العصرين الفاطمى والأيوبى كانوا فحول الشعر العربى فى الأقطار الإسلامية قاطبة. وفى هذه الآونة تصدرت مصر فى الأدب صدارتها فى العلوم والفنون.. والسياسة وكان ذلك منذ أواخر القرن الخامس للهجرة.

ويذكر الدكتور أسعد طلس من رجال مصر مابين القرن السابع والقرن التاسع:

(ابن نباته المصرى (٧٦٨ هـ) وابن أبى حجلة (٧٧٦ هـ) وشمس الدين الهوارى (٧٨٠ هـ). وهؤلاء شعراء مجيدون خلفوا آثارا تدل على سمو كعبهم فى الأدب المصرى الإسلامى. ومن الأدباء المصريين الفحول فى هذه الفترة الشهاب القلقشندى (٨٢١ هـ) والبدر الدماميني (٨٢٧ هـ) والشمس النواجى (٨٥٩ هـ) والمؤرخ بيبوس المنصورى (٧٢٥ هـ) وابن منظور (٧١١ هـ) والشهاب النويرى (٧٣٢ هـ) وغيرهم.

وقد كان لهؤلاء الأئمة تلاميذ من الشاميين قصدوهم إلى ديار مصر وتعلموا عليهم فى الأزهر أو فى غيره من المعاهد المصرية، ولو رحنا نستقصى أسماء هؤلاء الطلاب لجئناك بسفر ضخم).

وصدارة مصر الفنية وثروة مصر المادية جذبت إليها الشعراء والكتاب والعلماء فانتجعوها مسحُرين. وترطبت ألسنتهم باسمها وترنم شعرهم بذكرها.

وحين كان شعراء العرب فى مصر يلتزمون «العمود» والبحور التقليدية، كان المصريون ينطلقون على سجيتهم المجنحة الرفافة، فالألفاظ رقيقة سهلة مضيئة، والبحور آثروا منها القصيرة التفاعيل، والقصائد الطويلة استبدلوها بالمقطعات. ولأمر ما سمى المصريون ذلك اللون الذى استحدثوه من الشعر الشعبى «البلاليق». وهو اسم طائر مختلف ألوانه، شجى صوته، له تطريب. وذاع هذا اللون فى عصر المماليك وسامت فن الموشحات.

ومن الألوان المصرية فى الشعر العربى الأديرة. وقد وجد هذا اللون فى غير مصر حيث تتناثر الأديرة فتغنى البحترى بدير العاقول، وابن المعتز بدير السوسى. ولكن انتشارها كان بمصر ومن ثم كثر شعر الديَّارات بها.

ومن الالوان التى استحدثتها مصر فى الشعر «**فن رثاء الدول**» .. وهو كما يقول الدكتور كامل حسين (فن جديد كل الجدة فى تاريخ الأدب العربى) .

حقيقة وصف البحترى إيوان كسرى (ولكن شعراء مصر لم يستمدوا صورهم وعواطفهم من التاريخ بل شاهدوا الأحداث وسجلوها وعبروا عن مشاعرهم نحوها) .

حتى مالم تستحدثه مصر طورته وتفننت فيه **فن الإجازة** مثلا أخضعته مصر لطبعها الحضارى فقسمته قسمين اجازه معاصر لمعاصر واجازة معاصر لقديم .. وجعلت له تقاليد خاصة لم يكن معروفا بها . واذ غدا فن الاجازة على يد مصر خلقا جديدا اطلقت عليه اسما من صنعها فسمته (**التمليط**) .

ويبدو أن مصر عافت المدح يتصدر القصائد فاستحدثت القصائد الغزلية التى لاتبقى للمدح إلا نذرا من مقال أو مجال . وأطالت مصر هذه المقدمات لا أدرى أسخرية من المدح والممدوح أم حبا فى الغزل لمواءمته طبيعتها الرقيقة الدافئة .

على كل حال استحدثت مصر هذه الطريقة ثم كلفت بها كعادتها ، وسمتها «**الطريقة الغرامية**» . ولها فى هذا الباب قصة قد يقرؤها المرء للحظتها ثم يعبرها ولكنها على عفويتها تؤيد معنى كبيرا وتعمق خطا ممتدا على سير التاريخ وعلى طول الزمن: هو نزوع مصر إلى السهولة **وانطباعها على العذوبة والرقة والأناقة الحضارية**.

جاء فى خزانة الأدب «لابن حجة الحموى» أن ابن سعيد المغربى خلال زيارته لمصر اجتمع بابن سناء الملك فسأله أن يرشده السبيل إلى الطريقة الغرامية هذه فوجهه البهاء زهير إلى قراءة بعض دواوين الشعراء على أن يراجعه بعد ذلك ، فغاب ابن سعيد مدة أكثر فيها من قراءة هذه الدواوين إلى أن حفظ أغلبها .

ثم اجتمع بعد ذلك بالبهاء زهير وتذاكرا فى الغراميات . وفى غضون -حديثهما أنشد البهاء (يابان وادى الأجرع) وقال اشتهى أن يكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا ثم قال:

«سقيت غيث الأدمع» .

فقال البهاء المصرى: هذا والله حسن ولكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول:

«هل ملت من طرب معى» .

لقد كان ابن حجة يسمى **مدرسة مصر فى التورية** مدرسة (السحر الحلال) وقد لعبت هذه المدرسة دورا كبيرا فى شعر هذا العصر.

ولم تتكلم مصر العربية، بالمعنى الجامع، إلا منذ عدة قرون فإذا بها تستحدث فيها كل هذه الآثار... وتضع لها قاموسها الأكبر والأشهر والأصح ١١.. «لسان العرب الذى وضعه ابن منظور المصرى.

مصر فى الأدب الشعبى العربى:

لهذه الشخصية أكثر من أثر فى الأدب الشعبى وبعض هذه الآثار: الإنشاء، والإيواء، والتحرير، والتحوير، والتمصير، وإشاعة قيم جديدة، وتسوية نماذج جديدة أيضا.. حتى السير العربية الأصل، العربية الأبطال **مصرها الشعب المصرى** كملحمة بنى هلال إذ نقاها من تصرفات البداوة وموروثاتها ومواضعات حياتها كنظام الرياسة وبواعث الحروب.

هذب الشعب المصرى هذه السيرة وحضرها وارتفع بها فأبو زيد الذى لايعدو أن يكون أحد فرسان القبيلة أصبح على يد مصر قائد جيش نظامى يعرف التحضير والتجهيز والتحصين والتعبئة. كما مد له المصريون فى الشجاعة حتى ليأتى بالخوارق فى بابها وفقا لمزاج مصر فى التهويل. وعلموه مختلف العلوم والفنون، واللغات **وهى لمسة حضارية طبيعية من مصر.** وجعلوه واسع الحيلة يعرف مداخل الأمور وخوارجها وكأنه «ابن بلد» -يفهمها وهى طايرة- وانعكس هذا على الأمثال الشعبية المصرية التى تقول: (سكة أبو زيد كلها مسالك).

والحسن بن سرحان ارتفعوا به من أمير قبيلة إلى ملك الملوك ولكنهم قيدوه بالشورى. فهو لايبرم أمرا لاتراه الجماعة، كما جعلوه كريما واسع العطاء فى فيض -وكأنه النيل- وجعلوه عادلا عفوا انعكاساً لرغبة النفس المصرية فى العدل والسماحة. وبهذا غدا الحسن بن سرحان بمجامع **الصفات المصرية فيه**، رمزا شعبيا حتى لنطلق على وجيه السمت والشارة، باذخ العطاء، «الفنجرى»: عامل أبو على.

وقد استحدث المصريون فى سيرة الهلالية: (ديوان مصر) من شعورهم بأنفسهم ووعيهم لذاتيتهم.

وأشاعت مصر فى القصص الشعبى **قصص الفكاهة** كما أشاعت فيه **الحياة الأسرية**.. دفء البيت.. وهذا اللون خاص بمصر فى ألف ليلة. فالحياة المصرية الخاصة هى وحدها المفصلة فى الليالى. فمنذ يستقبل وليدنا الحياة تسجل الليالى: ففرحة المولود.. والسبوع، والنمو، والتربية، وممارسة الحياة، وزفة العرس، والزوج والزوجة، والأم، مادة خصبة فى الطبقة المصرية من ألف ليلة وليلة.

وأشاعت مصر فى القصص الشعبى كالهلالية والظاهر بيبرس وألف ليلة، **فنها القديم «السحر»**. فالغزالة المسحورة تستدرج غريمها، واسمه دياب بن غانم والجن له ملوك وملكات تنشب بينهم وبين أبطال السير المعارك وكأنها العنف الذى يقابل الوداعة المصرية ويموج سطحها الأملس بدوامات الحزبية والهوى انتصارا لهذا الفريق أو ذاك تسلية فى بادئ الأمر، ثم حقيقة.

وإذ تم تمصير السيرة تحمسوا لها كالعادة حتى ليخلعون اسماءها على الأبناء ويرسمون صورها على الجدران بل الصدور.

بل إن الشعب المصرى **«مفرط» الرياسات فى الملاحم الشعبية**. ففى سيرة الظاهر بيبرس لم تعد الرياسة وراثية كمشيخة القبيلة بل غدت بالانتخاب.. إنه نزوع مصر إلى الديمقراطية وكأنها تهتبل هذا اللون من الأدب لتبث فيه مثلها حتى ولو لم يسعد بها الواقع. وتمضى مصر تقعد القواعد وترسم الصور للمجتمع والأشخاص وتنقد مايغاير هذا لتؤكد ذاتيتها.

وحين سقطت بغداد فى يد هولاكو أوى القصص الشعبى إلى مصر.. إلى القاهرة **فأضافت وحورت وسوت وصقلت** كما فعلت فى **«الهلالية»** و**«ألف ليلة وليلة»** فبثت فى الأولى عواطف واستحدثت فى الأخرى طبقتين أو لونين:

اللون الأول طبقة «الشطار» التى **شاع فيها طلب العدل**.. أما اللون الآخر فهو «وصف الآثار المصرية».

وقد أضافت بلاد أخرى إلى ألف ليلة، ولكن مصر هى التى بلورتها بعد أن اعطتها إضافات هامة ثم صبتها فى القالب الأخير الذى تعرف به بعد أن لمسها القاص الشعبى المصرى اللمسات الأخيرة.

رد القصص الموضوع فى مصر إلى أصول فى الأدب الفرعونى فقصة على الزيبق –يردها نولدكه إلى القصة المصرية القديمة كنزرامبسينت. وقصة القرد الكاتب يلمح فيها شبيجلبرج توت المصرى القديم الذى يصور فى صورة قرد.

وبعد صنيع مصر هذا أخذت «ألف ليلة» طريقها إلى أوروبا بالنقل والترجمة بما تحمل من طابع مصر ممثلا فى حكمة النصيحة واصطناع الصبر والأناة وما إلى هذا من مظاهر السلوك والعمل الذى تضرب جذوره كنباتنا فى بيئتنا الزراعية. وفى الكتاب من مصر من حيث الشكل، ظاهرة التكرار وكأنه يحاكى الفن المصرى الإسلامى فى تكرار الأجزاء والوحدات الكاملة. والمزاج المصرى يرتاح إلى التكرار بما فيه من الطبيعة المصرية.

حتى أولياء الله يتخذون مصر مقرا ومقاما، وحين تقوم مصر بدورها القيادى فى المنطقة على مسرح الأحداث الكبرى، يؤكد هؤلاء الأولياء دورها الكبير بما قر فى نفوس الجماهير من إيمان مسلم به بالغيبيات والكرامات إيمانا يؤيده الأدب الشعبى الذى يجعل من شخصيات الأولياء قوى غيبية تتدخل فى كثير من المواقف تدخلا مباشراً. ففى قصة الظاهر بيبرس نجد **السيدة نفيسة** تجمع بينه وبين عثمان بن الحبل ويتصافيان فى رحابها وبين جنبات جامعها، كما نجد المغاورى يجمع بين الظاهر بيبرس وجمال الدين شيحه، ثم يجمعهما بالقائد البحرى محمد فارس البطريق المغربى. أما **السيدة زينب** فى القصة فهى روح.. ونفحات تلهم النصر وتدنيه بما تجمع من صفوف وتضم من شتات وتوثق من روابط.. روح تبارك المواقف وتسعدها.

وهكذا صبغت مصر قصة سيف بن ذى يزن بالأساطير القديمة عن النيل.

ومن عمل الشخصية المصرية فى الأدب الشعبى آثار مصر فى فن: «خيال الظل».

إن ابن دانيال أعظم المبرزين فى فن خيال الظل لم يستقم فنه إلا بعد أن أوى إلى مصر عندما دهم التتار بلدة الموصل. ومع تبريزه وتفويه لم يقو على فرض تمثيلياته على مصر أو يحمل فنانيها على أدائها وعرضها بل التقطت مصر هذا الفن ومارسته بطريقتها هى فأخملت ابن دانيال حسين عفت فصفت تمثيلياتها من المجون والاقذاع واتسمت كدأبها فى فنون الأدب بالفكاهة والنقد.. بل عمدت مصر إلى بث الحياة المصرية فى هذا اللون من الفنون الشعبية وقبسته بعضا من تاريخها وفرضت عليه أماكنها وصور العيش فيها.. إمعانا منها فى ربطه بعجلتها.. فى تمصيره.

وراحت مصر بعد هذا تغاير فى التقاليد التى وضعها ابن دانيال فوضعت تقاليد فنية جديدة فى الاستهلال والختام فكانت تمثيلياتها «لعبة التمساح» و«لعبة المنار» اللتان عثر

عليهما المستشرق (بول كاله) فيما عثر عليه من مخطوطات القاهرة سنة ١٩٠٩، طبقة أخرى غير ابن دانيال حتى لتعد الدراسة المتخصصة، التمثيلية المصرية «حرب العجم» أو «لعبة المنار».. من أروع ما خلفه خيال الظل.

وفى هذه التمثيلية وحدها دلالة كبيرة على شخصية مصر وعملها ونزوعها إلى الفن وإلى الجد والتجميع والكفاح والظفر بالنظر والتغنى به غناء يغرى ويشحذ العزائم للجهاد فى الحروب الصليبية التى أخذت مصر فيها دورا طليعيا قياديا من حيث الفن الحربى والتبعات. هذا حين نجد ابن دانيال الذى يقرن به فن «خيال الظل» يخدمه –وفى العصر نفسه والظروف عينها تخديما متواضعا فيعرض كما يقول الدكتور عبد الحميد يونس (لمناقرة الديكة وتناطح الخراف ومصارعة الثيران ويستعرض الانحراف الأخلاقى ويسخر ببعض الاوضاع).

ولقد بدت خصوصية مصر وصقلها فى أسلوب التمثيليتين فقد كان أسلوبا فنيا راقيا يعتمد على التصوير والأدب معا ويجعلهما صالحتين للعرض أمام الخاصة المثقفة والعامة على السواء.

ولقد دخلت التمثيليتان بما وفرت لهما مصر، الفن الشعبى، حين اخرجت منه الدراسة المتخصصة بابات ابن دانيال على شهرتها.

وعن مصر أخذت تركيا فن خيال الظل وتأثرت بها فاستعارته اليونان. وعن مصر أخذه الشمال الأفريقى.. وعن مصر أيضا انتقل إلى شمال حوض البحر الأبيض المتوسط.

وهناك فنون من الأدب الشعبى وعلى التحديد من الشعر الشعبى، نشأت فى غير مصر مثل «القوما» و«كان كان» ثم لمحتها مصر وادخلتها بوتقتها فانجلت حتى لتروع ابن خلدون حين يتحدث عن هذه الفنون فيقرر أن (أهل مصر القاهرة أتوا فيها بالغرائب وتبحروا فيها فى أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاءوا بالعجائب).

ومثل هذا **فعلته مصر بالموشحات** التى اقترنت باسماء شعراء مصريين بالأصل أو المولد أو المربى... بل ان الشاعر المصرى ابن سناء الملك هو الذى ألف فى فن التوشيح كتاب «دار الطراز فى عمل الموشحات».

وزكى شاعرنا، الصفدى فى كتابه «توشيع التوشيح» كما زكاه صاحب كتاب «المقتطف من أزاهر الطرف» الذى نقل عنه ابن خلدون موشحه ابن سناء الملك التى

طارت شهرتها شرقا وغربا: (حبيبى ارفع حجاب النور عن العذار) وان كان هذا لم يحل دون نقد الدكتور الأهوانى له فى كتابه: «ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر».

ويسلمنا الحديث عن الموشحات إلى ألوان من الأدب الشعبى كان لمصر ذوق خاص فيها كالموال.

نشأ الموال فى بغداد ولكنه تفتح وازدهر فى مصر.

فقد استحدثت مصر فى فن الموال من الناحية الفنية «السجع المشطر» فنظمت لأول مرة «البسيط» مجزوءا متصرفة فى عدد أغصان الموال. ومضت تتصرف فى عدد شطرات الموال، وفى القافية، وتنوع فى الوزن دون أن تخرج على البحر. ويتمثل صنيعها، وهذا فى الموال الذى استشهد به ابن خلدون فى مقدمته.

هذى جراحى طريا	والدما تنضح
وقاتلى يا أخيا	فى الفلا يمرح
قالوا وتأخذ بتارك	قلت دا أقبح

وبرعت مصر فى فن الموال حتى تطعمت به أمثالها الشعبية.

واستخرجت مصر من البحر البسيط بقدرتها على اللعب الفنى، **صورا عدة للموال** من حيث التنسيق والقافية. فالموال الأعرج والموال النعمانى وهو من تخريج أهل الصعيد ومواويل «الفرش والغطا» التى ينشدها المغنون على طريقة «الموال النعمانى» **بل بلغ الصعايدة بفن الموال مبلغا ينظمون معه المواويل ارتجالا** على البديهة فى سرعة ولماحية وشفافية أيضا. وهم يسمون عملهم هذا أو فنهم هذا: «الرمى» وهم حين «يرمون» فإنما يتناولون جوانب الحياة كلها فيكون موضوعهم سياسيا أو اجتماعيا أو وطنيا أو فكاهيا أو اقتصاديا. وفى كل الحالات نجد الحكمة مبثوثة والحادثة مسرودة، والمعنى الغريب مقتنعا فى براعة وحذق، والصياغة بعد هذا لاهى بالمكروه ولا بالمستهجنة.

وفى مجال الابتكار فى صياغة الموال يأتى بير المصور بالمعجب فيجزئ الأشطر ويغاير بينها فى الطول ويخدم مع القافية الأصلية قافية داخلية وينوع فى وزن الموال ويقفى أشطره.

الإسلام والغرب

علاقة الإسلام بالغرب بدأت بأسبانيا والفتح العربى.. وقد سبقه الفينيقيون، ثم القرطاجنيون، ثم الرومان، ثم الجرمان، ثم القوطيون، ثم البيزنطيون، ثم القوط الغربيون مرة أخرى. ولكن كانت دولتهم ضعيفة استندت فى حكمها إلى النبلاء ورجال الدين هناك.

ولعل هذا المناخ أغرى الأمويين الذين دالت دولتهم وخلفهم العباسيون المتربصون بهم أينما كانوا..

أوى الأمويون إلى شمال افريقيا وهى طرف من أطرف العالم القديم ومن السهل أن يصل إليه العباسيون ويحكموا قبضتهم عليهم.. وأمامهم منفذ بحرى ضيق هو مضيق ويعبرون إلى عالم آخر وقارة أخرى وربما استكشفوا جديداً بها وربما استطاعوا أن يكون لهم ملك يعوض مافقدوه. إنه منطق بالنسبة إليهم فى عصر الغزو فيه مفتوح.

أنا لا أبرر غزواً مهما كان، ولكن الحضارة الإسلامية فى الأندلس بسلامها وعطائها الفنى والعلمى تنفى البطش والاستبداد والسلب والنهب إلى أخر الصفات التى مارسها الآخرون.. وكما يقول شوقى:

والفتح بغى لايهوّن وقعه ∴ إلا العفيف حسامه المترفق

عبر طارق بن زياد، المضيق وهزم فردريك آخر ملوك القوط الغربيين، وسقطت قرطبة فى يده، وكان ذلك سنة ٧١١م.

وبعد تسعة قرون سقطت المدينة فى يد فرديناندو ايزابيلا وأكره المسلمون على ترك دينهم وما تركوه ولكن شُبِّه لهم لأعدائهم، ونصبت محاكم التفتيش واقترفت آثام وروعت نساء وأطفال.

وبعد أحد عشر قرنا طبقت أوربا هذا الأسلوب من أجل التجارة وسلب خيرات الشرق.. وبدأ الاستعمار الجديد أو الاستخراب فلم ينشئوا فيه حضارة وارفة الظلال كالتى أنشأها المسلمون فى الأندلس ولم يظفر الناس بسماحة وعدل ومشاركة كالتى أشاعها الإسلام فى الأندلس. ولايزال الغرب يسطو على الشرق فى شراسة شرسه أشرة فهو لايكتفى باستلاب خيراته بل يمضى فى زلزلة كيانه بالدس فى حضارته حتى يوقعه فى محنة الاختيار ويرسخ عقدة النقص فيه ويغرى بعضه ببعض ويتجسس عليه ويسمم أفكاره وينتحل علمه السابق وعلماءه حتى صلاح الدين، زعموا أن أمه مسيحية غربية!!

وكاد القرن العشرون أن ينصرم وأوربا لاتفتا تدس سمومها فى عقول الشرق بعد أن دستها فى طعامه وشرابه وزراعاته ومناهج تعليمه. أما الحروب الصليبية فسوف أتناولها بعد قليل.

والحضارة الإسلامية فى الأندلس التى كان لها روافد من القاهرة وبغداد أعطت أوربا، الكثير دون أن تمن وتسمى أوربا، العالم الثالث كما تفعل أوربا اليوم وتطلق هذا الاسم على دول الحضارات العريقة فتجرحها جرحا عميقا ولهذا نرجو أن تختفى هذه التسمية وتغيب فى عالم النسيان كلون من العرفان ويلتقى الشرق والغرب على خير الإنسانية. يكفى أن الشرق مهد الأديان السماوية جميعا.. والدين عنصر فاعل ومؤثر من عناصر الحضارة التى تقوم على خمسة عناصر:

الدين – العلم – الفن – المال – العمل.

إن الدول العربية والإسلامية التى يسلكها الغرب اليوم فى عداد العالم الثالث، يبلغ عدد المؤهلين فى العلوم الهندسية الذين هاجروا منها إلى أمريكا وأوربا نحو ثلاثين ألفا. وصل بعضهم إلى مراكز قيادية فى أعمال البحوث والتطوير فى بيئتهم الجديدة. وهناك ٧٥٤ من هؤلاء المتخصصين ظهرت أسماؤهم فى الطبعة الأخيرة من كتاب (رجال ونساء العلم الأمريكيين) منهم ٣٢١ من الدول العربية و١٦٧ من الهند وباكستان و١٠٦ من إيران وأفغانستان و٧٦ من تركيا وهى دول إسلامية... وفى مجالات التخصص منهم ٢٢٦ مهندسا و٣١٣ فى العلوم الطبيعية والبيولوجية و٢٢٥ فى العلوم الطبيعية والرياضيات مما يعد امتدادا لعطاء الإسلام حضارة وشعوبا (مجلة العلم والمجتمع عدد ديسمبر سنة ١٩٧٧م).

ومن البديهى أن هذه الأرقام تضاعفت أضعافا من سنة ٧٧ إلى سنة ١٩٩٧م خلال عشرين عاما.

هذا فى العلم فى العصر الحاضر، أما فى القرون الوسطى التى كان الإسلام يبدد ظلامها فى الغرب فقد قوى نفوذ الفن الإسلامى، حتى شاع فى انجلترا فى عهد المملكة اليصابات وما بعده وكانوا يسمونه (Arabesque).

وبعد الحروب الصليبية بنى الأوربيون قلاعهم على مثال الحصون العربية، فى مضاعفة الجدران، وإقامة البروج والأبواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة التى تحول دون وصول القذائف إلى الأفنية الداخلية.

كما تأثر بناء الكنائس فى أوربا بالكنائس الشرقية المتأثرة بدورها بالطراز العربى، فظهرت فى الكنائس الأوربية الزوايا والبروج المستديرة.

وقد بلغ من نفوذ وسحر الفن الإسلامى على الأوروبيين أنهم قلدوه تقليدا حرفيا فنقلوا حروفه على أنها جزء من النقوش. ومن الطريف ما ذكره الأستاذ توماس أرنولد فى كتاب (تراث الإسلام)، أنهم عثروا فى أيرلنده على صليب من مخلفات القرن التاسع على الأرجح، نقشت البسملة على زجاجة فى وسطه بالحروف الكوفية. واشتملت كنيسة بمدينة فلورنسة فى منظر تتويج السيدة العذراء على أنسجة منقوشة بالحروف العربية.

يقول م. س. ديماند فى كتابه (الفنون الإسلامية) الذى ترجمه أحمد محمد عيسى: (يمتاز الفن الرسلامى بتنوعه العظيم تنوعا شمل نواحيه وأشكاله وصناعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله تنوعا بلغ من الشدة حدا يصعب فيه كثيرا أن نجد معه تحفتين متماثلتين).

أما الأدب فقد نقل كتاب (ألف ليلة وليلة) منذ أوائل القرن الثامن عشر إلى كل لغة، حتى قال فولتير: إنه لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة أربع عشرة مرة. وتمنى القصصى «استندال» أن يمحو الله من ذاكرته ألف ليلة وليلة حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته. وكتاب (ألف ليلة وليلة) سجلته دوائر المعارف فى عدة بلاد.

وقد أفرد له الأستاذ «فيكتور شوفان» جزئين فى كتابه (تاريخ المؤلفات العربية) وفى هذين الجزئين: سرد فيهما مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته، كما خصص جزئين آخرين لخص فيهما طائفة كبيرة من حكاياته وعكف على الكتاب كتاب السينما فاستخرجوا رواية

(لص بغداد) و(قسمت) أو القضاء والقدر.. كما اقتبس منه رجال التعليم فى فرنسا وألمانيا وانجلترا أدبا للأطفال فاختصروه وصوروه.

كليلة ودمنة: نقل إلى الأسبانية برعاية الفونسو العاشر الحكيم ملك قشتاله وليون «١٢٥٢-١٢٨٢». ولم يلبث أن نقل إلى اللاتينية بقلم يهودى متنصر، ثم ترجمت قصصها إلى الفرنسية ورجع إليها لافونتين. وتمت القصة الأسبانية الساحرة «بيكارسك» Picaresque بنسب واضح إلى المقامة العربية وما اتصفت به من السجع وما تضمنته من ضروب التزويق اللفظى وما رمت إليه من مغزى أدبى يستخرج من سرد مجازفات بطل القصة المغوار.

وبمناسبة الكتابة والكتب نقول: إنه لولا صناعة الورق البلدية فى الأندلس، وهى من أهم ما أسداه الإسلام إلى أوربا، لما راجت سوق الكتب إلى هذا الحد.

وقد اقترنت بموضوعات الأدب العربى، أسماء طائفة من عباقرة الشعر فى أوربا بأسرها خلال القرن الرابع عشر وما بعده منهم بوكاشيو ودانتى وبتراك الإيطاليون.. وشوسر الإنجليزى وسرفانتس الأسبانى وهم دعائم التجديد.. تجديد الآداب القديمة.

بوكاشيو كتب ١٣٤٩ حكاية «الصباحات العشر» محتذيا (الليالى العربية) أو ألف ليلة وليلة.. وضمنها مائة حكاية من طراز ألف ليلة. وشاع كتابه فى أوربا فاقتبس منه شكسبير موضوع مسرحيته «العبرة بالخواتيم». All is well that ends well.

واستفاد دانتى من رسالة الغفران، ووصف الجنة عنده يشابه أوصاف الجنة فى كلام محى الدين بن عربى.

و«دون كيشوت» لسرفانتس» فيها طابع العبارات العربية، والأمثال العربية.. وقد جزم برسكوت Prescot، بأن فكاهة دون كيشوت فى صميمها أندلسية.

وأهم من هذا كله أن شيوع التعليم بالعربية كان له أكبر الفضل والأثر فى إحياء اللغات الشعبية الأوربية ونهضة اللغات الأوربية الحديثة وارتقائها إلى مقام الأدب والعلم بعد إهمالها طويلا من جراء الكتابة باللاتينية والإغريقية وسدنتها القسوس والرهبان.

ولقد تأثرت القصة الأوربية بالمقامات وأخبار الفروسية العربية ورحلات جلفر التى ألفها سويفت ورحلة روبنسون كروزو التى ألفها ديفوى تمت إلى ألف ليلة ورسالة حى ابن يقظان لابن طفيل حتى ليقول «أبانيز» إن أوربا لم تكن تعرف الفروسية وآدابها المرعية ونخوتها الحماسية قبل وفود العرب إلى الأندلس وانتشار فرسانهم فى أقطار الجنوب..

كما تأثر بالعرب الشعراء الجوالون Ttou badour ويرجعها بعض المستشرقين إلى كلمـة «طرب» وقد تأثروا فى أوزانهم بالزجل الأندلسى بل إن التـأثر فى صـورة كلمـات عربية، ظهر فى شعراء الشمال من الأوربيين. يقول فياردو:

[كان الشعر الفرنسى العامى من نوع الشعر العامى الأسبانى المأخوذ عن الشعر العربى لاعن الشعر اليونانى أو الرومانى.. لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد، شعراء اليونان أو الرومان حتى ينسجوا على منوالهم، إذ لم يطلعوا على شىء من ذلك قبل القرن الرابع عشر. لذلك كان الشعر عندهم يشبـه الشـعر العربى، من حيث إنـه قطع صغيرة، وأبيـات قليلة فى المدح أو الذم أو الوصف. وذلك أظهر مايكون فى فـرنسا عند شعـراء القرن الرابع عشر وبعض شعـراء القـرن الخـامس عشـر. حـتى إن أسـمـاء هذه المقطوعات أو الأصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربى].

الموسيقى

هناك بلاشك اختلاف بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية فى العصر الحديث. وهو اختلاف ليس مرجعه تفاوت فى الفطرة الإنسانية بدليل وجوده بين الأوربيين أنفسهم إذا قارنا موسيقاهم الحديثة بما سبقتها من موسيقاهم القديمة. بل إن الشعوب الأوربية اليوم لاتطرب لما يطرب له خاصتها من الموسيقى العلمية المركبة.

لقد كـان الأوربيون يتعلمـون الأنغام على يد العـرب فى الأندلس حتى ظلت أسماء الآلات العربية فى اللغات الأوربية إلى اليوم فكلمة لوت Lute من العود وكلمة Naker من النقارة وكلمة Cle أو المفتاح الموسيقى من إقليد وكلمة Rebec من الرباب.

إن الأستاذ فارمر Farmer يقرر سبق العرب إلى نوع من الهرمونية يسمونه التركيب ويعنون به توقيع النغمة الواحدة من عدة طبقات فى وقت واحد.

جاء فى موسوعة مكملان للموسيقى والموسيقيين: أن نيقولا رمسكى كورساكوف، قد أنشأ جماعة لدراسة ربع المقام منذ نيف وعشرين سنة فى لننجراد.

وقد أخذ غيـر واحـد من الموسـيقيين الأوربيين فى العـصر الحـديث بربـع المقام فى توزيعاتهم الموسيقية وتوقيعاتهم حتى الأوبرالية وتقسيماتهم المسرحية وغير المسرحية.

ووضع الكندى (٨٠١–٨٧٠) وهو من علماء الرياضة أسسا نظرية للأصوات الموسيقية.

ويمت إلى الموسيقى علم الأصوات الكلامية الذى اخترعه المسلمون عندما حاولوا وضع أسس نطق القرآن الكريم بالطريقة التى نطق بها الرسول عليه الصلاة والسلام.. ويسمى «علم التجويد» وهو يصف نطق الحروف المختلفة على أساس حركة الهواء فى الفم والحنجرة.

وجاء فى الجزء الثانى من كتاب فياردو: (إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التى ساعدت أهل أوربا على الوصول إلى الدرجة التى عليها الآن هذا الفن الجميل.. فإن بمكتبة طليطلة آثارا عظيمة تدل على ماكان للعرب من التقدم فى ذلك الفن. إن هناك جزءا من المخطوطات فى الموسيقى عليه ملاحظات بخط الفونس العاشر، الذى كانت معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من قراءة الكتب العربية. وكانت الموسيقى فى ذلك العصر مقصورة على الكنائس، فساعد العرب على نشر هذا الفن بوساطة الفرنسيين الذين كانوا يقيمون فى أسبانيا مع العرب، أو يتعلمون فى مدارسهم.

المسلمون والعلم:

لقد بدأت الحركة العلمية عند العرب فى العصر العباسى الأول بالترجمة، ولكن لم يقف العرب عند الدرس فى هذه الترجمات، وإنما أقبل بعضطهم على تحصيل اليونانية واللاتينية ليرجعوا بهما إلى بعض تلك الأصول. وفى مكتبة الاسكوريال مايثبت ذلك من قواميس عربية يونانية وأخرى عربية لاتينية قد ألفها العرب للعرب. وتشهد دائرة المعارف البريطانية فى مادة الضوء: أن بحوث العرب قد هدت العلماء إلى اختراع المنظار.

إن معظم أسماء النجوم فى اللغات الأوربية عربية الأصل أمثال: «العقرب» Acrab و«الجدى» Algadi و«الطائر» Altair و«الفرقد» Phercad بل إن كثيرا من مصطلحاتها الفلكية يرجع إلى ألفاظ عربية أمثال «السموت» Azimuth و«النظير» Nadir.

وكان الشيرازى ١٢٣٦–١٣١١، أول من فسر قوس قزح بأنه نتيجة لانكسار أشعة الشمس داخل قطرات الماء المعلقة فى الهواء. واختراع الفازارى «الاصطراب» وهو جهاز فلكى قديم، وتنبأ بمواقيت كسوف الشمس وخسوف القمر. ودرس السنة القمرية وحركات النجوم.

ووضع عبد الرحمن الصوفى «٩٠٣-٩٧٦» من طهران، جداول للنجوم الثوابت، ورسم الخرائط لمواضعها فى السماء، كما وضع أسماء نحو ألف من النجوم.

واخترع الروضانى «١٦٢٧-١٦٨٣» من مراكش، آلة كروية لقياس الزمن. يمكنها العمل عند أى خط طول أو عرض.

إن الجبر يعرف باسمه العربى فى جميع اللغات الأوربية، وقد ذكر جوستاف لوبون إضافاتهم فى العلوم ووصفها بأنها فى وقتها كانت: «**ثورة علمية بعيدة الآثار**». وأستاذ أخر هو «كارل ساخاو» أستاذ اللغات السامية بجامعة فيينا، يصف البيرونى بأنه أعظم العقول التى ظهرت فى العالم.

وينوه «يسلر» فى كتابه (الحضارة العربية) بابن حزم الذى ينسب إليه أربعمائة مؤلف فى مختلف العلوم.. كما ينوه بابن خلدون باعتباره أكبر مؤرخ فى الإسلام وأحد العظماء فى جميع العصور.

أقول لعل من أهم اختراعات علماء المسلمين «الصفر» فاستخدامه مع الأرقام التسعة الأخرى، يمكن تكوين أعداد ذات قيم لانهائية.

أما علم الجبر فهو من اختراع محمد بن موسى الخوارزمى «٧٥٠-٨٥٠» ومن اسمه اشتق المصطلح المعروف «الجويثم» الذى يستخدم بكثرة فى الوقت الحالى فى التحليلات العددية.

وقد وضع أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندى من الكوفة «٨٠١-٨٧٠م» أسس الرياضيات الحديثة.

كذا اخترع ابن الهيثم «٩٦٥-١٠٦٩» الهندسة التحليلية بإيجاد علاقة بين الجبر والهندسة باستخدام الوسائل التى استخدمها فى دراسته لعلم البصريات وهو أبو البصريات الحديثة، وقد أثبت فى كتاب «المناظير» قوانين انكسار الضوء. ودرس ابن الهيثم حركة الأجسام. وقد وصف ابن الهيثم وهو من البصرة بالعراق، جراحات العيون وأطلق الأسماء على أجزاء العين مثل الشبكية والقرنية والسائل الزجاجى. وكانت أوصافه دقيقة.

وكما كان عمله فى العدسات، تمهيدا لاستخدامها فى تصحيح عيوب النظر.(١)

---

(١) اقرأ كتاب (العرب) للدكتور فيليب حتى.

المسلمون والطب

لقد نقلت أوربا كتاب القانون لابن سينا فى القرن الثانى عشر، وهو موسوعة جمعت خلاصة ما وصل إليه الطب عند العرب والإغريق والهنود والسريان والأقباط، كما نقلت كتب ابن الهيثم.

وأمدت الأندلس أوربا بمرجعها الأكبر فى الجراحة وتجبير العظام، وهو كتاب (التعريف لمن عجز عن التصريف) لأبى القاسم خلف بن العباس. وفى الصيدلية قام ابن البيطار «١١٩٧-١٢٤٨» برحلات عديدة فى الدول الإسلامية وغيرها لجمع المعلومات عن النباتات الطبية. ومن بين ١٤٠٠ دواء وصفها فى كتابه «الجامع فى الأدوية المفردة» وكان له الفضل فى اكتشاف ٣٠٠ منها.

الكيمياء

تأثرت أوربا بالعرب فى الكيمياء. فالقلويات معروفة فى مصطلحات الكيمياء الحديثة باسمها العربى ALKALI. ومن العرب عرف الإفرنج ماء الفضة وهو أهم الحوامض المستخدمة فى التجارب الكيميائية، ومنهم عرفوا ملح النوشادر وماء الذهب والبوتاس.. وترجموا لجابر بن حيان سبعين كتابا.. كما ترجموا له كتاب (تركيب الكيمياء) إلى اللغة اللاتينية فى أوائل القرن الثانى عشر. ودخلت كتبه مرجعا لأوربا حتى أواخر القرن السابع عشر. ويعتبر جابر بن حيان أبا الكيمياء الحديثة.

لقد ابتكر ابن حيان أجهزة للقطع والتكليس والبلورة، كما أتقن عمليات التبخير والإسالة وترسيب البلورات والتقتير والتنقية والإذابة والتثبيت والتحميض والأكسدة وغيرها.. ووصف بالتفصيل هذه العمليات.

وقد عرف جابر بن حيان من المواد الكيمائية القلويات والحمضيات والأملاح والصبغات والشحوم وحضر حامض الكبرتيك والماء الملكى الذى يذيب الذهب والبلاتين. وابتكر مادة تحتفظ بالملابس جافة ومادة أخرى لمقاومة الصدأ.. واستحضر صبغات من ألوان مختلفة لاستخدامها فى صناعة الملابس وجلود الحيوان، وكذلك نوعا من الحبر لاستخدامه فى الكتابات النفيسة.

وكتب ابن حيان مايزيد على ٥٠٠ دراسة فى الكيمياء ولم يصلنا منها إلا القليل.

وقد عرف العالم الإسلامى الجامعات والحياة الجامعية والنظم المرتبطة بها قبل الغرب الأوربى بمئات السنين.

فالجامعات الأزهرية فى مصر والمدرسة النظامية فى بغداد. ونظام المعيدين والإجازة.

وكان مقام الأستاذ محمودا ومعدودا، حتى كان الحاكم يسعى إلى الأستاذ احتراما للعلم.

الجغرافيا والفلك والرياضة

ذاع اسم بطليموس بين الأوربيين لأن العرب أذاعوه بينهم وبطليموس هذا تعلم فى مصر. إذ نشأ فى الإسكندرية واقتبس الكثير من المصريين وغيره كثيرون ممن سبقوه، اعتمدوا على مصر وبابل فيما وصلوا إليه من أصول جغرافية. لقد أخذ اليونان عامة عن المصريين، الأرصاد والتقاويم وأخبار الرحلات وقصص الرحالة فى مصر القديمة وما طرقوه من برور وبحور. وقد بلغ من شيوع هذه القصص وذيوع هذه الرحلات، أنها تسربت إلى الإلياذه والأوديسة من شعر هوميروس، كما تسللت إلى شعر غيره من الفحول.

ومدرسة الإسكندرية الجغرافية، وفد إليها استرابون قبل بطليموس بنحو مائة عام.

على كل حال جغرافية بطليموس، نقلها إلى أوربا الثقافة العربية مزيدة منقحة، قد أضاف إليها البيرونى رحلاته فى أسيا الشرقية.

واخترع ابن يونس المصرى فى القرن التاسع الميلادى «الرقاص» ثم جاء بعده من ضبط حركاته وانتظام ذبذباته.

ومن الراجح أن الإبرة المغناطيسية من عمل الملاحين العرب والمسلمين يقول هذا جوستاف لوبون فى كتابه عن الحضارة العربية.

لقد تطلعت أوربا فى القرن الثانى عشر الميلادى إلى الشريف الإدريسى الذى درس فى قرطبة وتطايرت شهرته بين المسلمين والمسيحيين على السواء. إن صاحب كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» سبق إلى معرفة **منابع النيل العليا**، كما حفظت فى الخرائط التى بقيت فى بعض المتاحف الأوربية، ومنها خريطة محفوظة بمتحف فى

الخرائط التى بقيت فى بعض المتاحف الأوربية، ومنها خريطة محفوظة بمتحف سان مارتين الفرنسى ترسم النيل آتيا من بحيرات جنوب خط الاستواء بعد أن تخبط الجغرافيون طويلا فى وصف منابعه ومنهم هيرودوت نفسه الملقب بأبى التاريخ.

وقد قال العرب (ابن خرداذبة وابن رسته والمسعودى) باستدارة الأرض وبوجود جزء مغمور من الجانب الغربى من الكرة الأرضية فسنح فى ذهن كولمبوس السفر إلى هذا الجزء للوصول إلى الأقطار الأسيوية.. وقد وصل المسلمون إلى المناطق القطبية. وقد أسهم الخوارزمى فى قياس طول محيط الأرض.

لقد كانت السياحة فيما بين القرن العاشر والقرن السادس عشر فنا إسلاميا من فنون أهل المغرب خاصة وهم قدوة الأوربيين. ومن الأسماء الإسلامية الباقية فى عالم الرحلة والارتياد: أبو عبد الله البكرى صاحب كتاب (معجم ما استعجم) و(المسالك والممالك) – توفى فى القرن الحادى عشر الميلادى ومنهم الشريف الإدريسى.

ومنهم محمد بن عبد الرحيم المازنى فى غرناطة – فى القرن الثانى عشر – وألف (نخبة الأذهان فى عجائب البلدان).

ومنهم ابن جبير صاحب (رحلة ابن جبير).

ومنهم ابن بطوطة أكبر الرحالين فى القرن الرابع عشر على الإطلاق وهو صاحب (تحفة النظار فى غرائب الأمصار).

ومن الرحالين العرب: المسعودى وابن حوقل وياقوت الحموى والبيرونى وغيرهم.

وكان شهاب الدين أحمد بن ماجد «١٤٣٣–١٥٣٦» من عمان، حجة فى جغرافية المحيط الهندى، وقد قاد سفينة فاسكو دى جاما عبر المحيط الهندى.

وقد كان Radewrigo de Lob أحد أعضاء رحلة كولمبوس أول أوربى يضع قدميه على أرض العالم الجديد «أمريكا» متأثرا بالمسلمين فى الأندلس، حتى أنه بعد عودته إلى أسبانيا، أعلن إسلامه على الرغم من وجود محاكم التفتيش فى ذلك الوقت.

واصطلاحات الملاحة الأوربية تشير إلى أصلها العربى فكلمة Admiral من أمير البحر. وكلمة Arsenal من دار الصناعة، وكلمة risk بمعنى المغامرة من رزق وكلمة Wissil الألمانية من وصل، وغير ذلك كثير لاسيما فى اللغة الأسبانية والبرتغالية.

أحوال الحضارة

لقد تأثرت الحياة الأوربية بالحضارة الإسلامية حتى انعكست فى لغاتها، ألفاظها مثل Coton من القطن، Muslin من الحرير الموصلى Damas من الحرير الدمشقى، Cordevan من الجلد القرطبى، Morocco من الجلد المراكشى – Jup من الجبه – Musk من المسك AHard من العطر – Syrup من الشراب – Jar من الجرة – Sifa من الصفة أى المقعد الطويل – Rice من الأرز – Orange من البرتقال – Lemon من الليمون – Sucre من السكر – Coffee القهوة.

هذا بعض ما ثبت فى الإنجليزية والفرنسية، وأضعاف هذا فى الأسبانية والترتغالية.(١)

ولاتأخذ الحياة الأوربية هذا كله من العربية، إلا إذا كانت الحضارة الإسلامية فى مقام التفوق الذى يغرى بالاقتباس.

لقد كان سادة أوربا يفخرون بما يقتنونه من قرطبة فى عهدها العربى، من منسوجات أو مصوغات أو آنية فخارية. وإلى قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية، كان يتوافد طلاب التحف والترف والموسيقى والغناء، والدواء أيضا حتى ليقول المؤرخ الإنجليزى استانلى لاين بول: (إن حكم عبد الرحمن الثالث الذى قارب خمسين عاما أدخل على أسبانيا تجديدا لايلم الخيال – على أجمع مايكون – بفحواه).

ويقول الكاتب الأسبانى الكبير «أبانيز» فى كتابه: (ظلال الكنيسة) عن غزو العرب لأسبانيا:

(لم تكن غزوة فتح وتدويخ بل حضارة جديدة بسطت شعابها على جميع مرافق الحياة. ولم يتخل أبناء الحضارة زمنا عن فضيلة حرية الضمير وهى الدعامة التى تقوم عليها كل عظمة حقة للشعوب. فقبلوا فى المدن التى فيها الأشعار بمهارة لاتفوقها مهارة العرب أنفسهم.

إن العالم المؤرخ «أرنست رينان» خالق فكرة السامية والآرية، وأعدى الكتاب للأمة العربية، لم يملك إلا أن يجهر بفضل العرب على القرون الوسطى وإن قال: (إن الذين نهضوا بالعلم من المسلمين لم يكونوا من العرب).

---

(١) اقرأ كتاب (كلمات عربية فى الأسبانية) تأليف الأستاذ عدلى على طاهر نور.

وهو سلاح لاتفلت منه أمته نفسها إذا حلل هذا التحليل نسبها وأدبها. رينان هذا قال: (ما دخلت مسجدا قط، إلا تملكنى إنفعال شديد وهو لو أفصحت عنه، نوع من الأسف على أنى لم أكن مسلما).[1]

ولكن من الأوربيين أيضا منصفون فالكتابة الألمانية سيجريد هونكه تقول فى كتابها (شمس الله على الغرب):

(لم يعد سرا أن مصر هى الوطن الذى بزغ فيه فجر الضمير ومنها أخذ اليهود ما أخذوا. وأن العرب ظلوا ثمانية قرون طوال يشعون على العالم علما وفنا وأدبا وحضارة. وأخرجوا أوربا من الظلمات إلى النور).

أقول: يكفى العرب أنهم وفروا على الحضارة الأوربية والحضارة الحديثة، اليوم، زمنا طويلا يعد بعشرات القرون.

ومهما يكن من أمر، فإن أشد الناس تعصبا لايمكنه الإقلال من شأن النتائج الحضارية الخطيرة التى حدثت فى تاريخ البشرية وترتبت على ظهور محمد النبى العربى. وعلى قيامه ببث الدعوة إلى الدين الإسلامى، وعلى إنتشار هذا الدين فى منطقة كبيرة من العالم. فإن ما أحدثه محمد عليه السلام بما أتى به من عقيدة وتعاليم يدعو بها الناس إلى عبادة رب واحد عظيم. وإلى خلق كريم. دعوة ترشدهم إلى مافيه صلاحهم وصلاح البشرية. كل ذلك بلا شك نقطة تحول هامة فى مجرى حضارات العالم.

ولايمكن مقارنة هذا الحدث بأى حدث آخر فى تاريخ البشرية.

هل بعد هذا كله يحمل على الإسلام كل اعتداء فردى أو غير فردى ويوصف الإسلام بإرهاب مدبر ويقحم عليه للإساءة إليه هل المسيحية السمحة نديتها بالحروب الصليبية ومحاكم التفتيش ومساندة الغدر والغيله والمذابح الجماعية فى دير ياسين وصبرا وشاتيلا وقانا. هل ندين المسيحية بحربين عالميتين فى ربع قرن قتل فيها الملايين من شباب أوربا المسيحية نفسها؟.

أين الغرب الآن فى سطوته من الإسلام فى أوج قوته. الغرب وليس المسيحية. الإسلام لم يدمر بل كان يعمر. لقد حالت روح الإسلام دون الهدم حتى فى الحروب فحرم هدم المنازل أو بيوت العبادة أو قتل النساء والشيوخ والأطفال. لقد بنى الإسلام فى

---

(١) اقرأ كتاب (فى أصول الأدب) للأستاذ أحمد حسن الزيات.

قوته ٢٥ مدينة منها بغداد واللد والقاهرة الإسلامية. التى هى إضافة إلى منف والفسطاط والعسكر والقطائع فصارت القاهرة أم المدائن.

لقد تقدم الغرب فى هندسة الجينات. وتوسع فى ارتياد الفضاء ولكنه توسع أيضا فى جهاز الحرب والامتداد المسلح من خلال إسرائيل وأجهزة التجسس العلمية. أجهزة تحرم الإنسان من حياة خاصة يحياها. تحرمه من الستر والسر. لقد انتهك الغرب حرمة أفراده أنفسهم حتى النخاع حتى ليسمى «باكارد» المجتمع الأمريكى المجتمع العارى فى كتابه: The naked Society كما يعزو ارنولد توينبى ظاهرة العنف فى العصر الحديث الذى يسيطر فيه الغرب إلى انسحاق الفرد وضياعه فى صخب الآلة وآلية الحياة الاجتماعية.

لقد اقترن عصر سيطرة الغرب بين استعمار سافر واستغلال فى أثواب عدة. بالغزو الحضارى والتحدى الحضارى والوهم الحضارى.

* السباق النووى المحموم الذى يهدد الحضارة فى كل مكان.
* بالتلوث.
* بالشركات المتعددة الجنسية وهى وبال بكل المقاييس والتفاصيل فيها كثيرة.
* بهجرة الكفايات.
* بالاغتراب حتى على أرض الوطن.
* بانزلاق المفكرين إلى (عصر الجملة) انتاجا واستهلاكا وغلبة الكم على الكيف

وينشأ من هذا كله تغيير فى عقلية الإنسان يتبعه تغيير فى القيم. إنها محاولة الغرب إحداث تغيير اجتماعى وسياسى وثقافى محسوب ومرسوم فلم يعد الاستعمار الآن جيوشا تستفز المشاعر ولكنه يتزيا فى أثواب عدة ويتغيا أهدافا بعيدة فتسطيح الثقافة وتقليص المناهج والاستنزاف العقلى وتفريغه من المضمون بتخفيض درجات اللغة القومية وجعل التاريخ مادة اختيارية، وجعل الرسوب لايعوق الانتقال إلى السنة الدراسية التالية: الاستعمار الغربى يعمد إلى التطوير الشكلى، والتحديث المظهرى، والتأثير الفكرى من خلال القنوات المقروءة والمسموعة والمرئية كلها عمليات تسير جنبا إلى جنب فى محاولة (تقريب) أمم الحضارة العريقة وبلبلتها وذبذبة مسيرتها بحيث تقف على الأعراف لاتنطلق فتحيا ولاتسقط فتموت فإن الأمم العريقة إذا أريد بها شر أو أريد لها الموت تنتفض انتفاضة قوية تعود معها فتية من جديد. وهذا يخيف أعداءها مهما بلغت قوتهم وبلغ ضعفها فيعوقون مسيرتها دون أن يميتوها ويمسخون سحنتها دون أن يشعروها، حتى

تغير النمط الاستهلاكى ونوعيته وسرعته ومداه مؤشرات إلى تغييرات حضارية تحدث ببطء لانراه أو بسرعة تذهلنا.

إنه تغير فى الطعام والشراب والوسائل. تغير فى العمارة والآثاث والملابس . تغير فى الأدب والفن والموسيقى والثقافة وهذا أخطر أنواع التغير.

تغير فى وظيفة المجتمع.

تغير فى دور القرية والمدينة وهو بالتالى يؤثر على سلوك الأفراد فى الناحيتين.

تغير فى أسلوب الزراعة الذى أدخلوا عليه المبيدات الحشرية فانسحب تدميرها على البشر وحيوانات الزراعة والطيور النافعة (أبو قردان).

تغير فى الاقتصاد.

ليس حديثا عن التجارة ولكنه قلق على الحضارة التى تعنى عمر أمة، وعطاء أجيالها ومقومات شخصيتها وطابعها تمثله الماديات كالمعنويات.

أمام أخطار الغرب نريد اختيارا راشدا. نحن أصحاب حضارات لاحضارة واحدة أو حضارة متجددة فيها خاصية الاستمرار، وفيها موهبة الابتكار، وفيها قدرة التطوير والتحوير فى ذاتية عزيزة معتزة يصل بها رسوخ اليقين إلى لحظة التنوير.

نريد تفتح الوعى، والوعى رحلة طويلة لاتنتهى يسافر فيها قلب الإنسان متجدد الرؤية.

نتكلم الآن عن الاستثمار. إنى أدعو إلى استثمار الطفل الذى لم يلوث بعد كما فعلت اليابان فسبقت أمريكا وليس عندها من كنوز الطبيعة شئ يقاس بما عندنا. ليس عندها نهر هو سيد الأنهار. ليس عندها سهلان وبحران وصحراوان غنيتان بالمعادن والكنوز.

نريد الاستثمار الإنسانى فى المدرسة والجامعة والمستشفى استثمار يطب لعقل الإنسان وجسمه، وإذا سلم الاثنان سلمت الحياة ودانت قطوفها.

نريد تكتلا عربيا إسلاميا فى عالم التكتلات:

* تكتل أوربى.
* تكتل أمريكى.
* تكتل يابانى – صينى.

للبيت رب يحميه

للبيت رب يحميه

ليس موضوع كتاب ولكنه موضوع الساعة وكل ساعة إلى أن تقوم الساعة... فلولا البيت فى مكة والحرم النبوى فى المدينة ما هبت مصر هبتها ولكنها كانت تستمع إلى صوت كريم كأنه يتردد من جديد.

ومصر تحفظ عنه قوله صلى الله عليه وسلم (اتخذوا من مصر جندا كثيفا فإن فيها خير أجناد الأرض وهم فى رباط إلى يوم القيامة).

أرسلت مصر أجنادها لتصد عن الحرمين... إنها رسالتها التى تحددت فى ذلك اليوم البعيد... إنه دورها إلى (يوم القيامة) منذ قال الرسول الكريم وكأنه حدد هذا الدور الذى لم تتخل عنه مصر منذ خاضت موقعة الصوارى وهى حديثة عهد بالإسلام... والإسلام حديث عهد بالدولة والسياسة... فكان النصر حاسما وعلامة طريق.

وتوالت وقفاتها ومواقفها، فى (حطين) و (عين جالوت)... وعند انحسار الإسلام من الأندلس وآوى علماؤه إليها كما آل إليها من قبل (الخليفة العباسى) الذى حملته من بغداد بعد أن داهمها هولاكو ودمرها تدميرا... حتى كتبها ألقاها، جاهلا، فى نهر دجلة لتعبر عليها خيوله. فلاذ الكتاب والعلماء بمصر.

وإلى اليوم نصف تراث الإسلام فى مصر، والنصف والآخر موزع فى بلاد العالم، الأخرى، شرقا وغربا.

قبل أن أتكلم عن إكرام الله البيت، أثبت هنا لمحة من تاريخه... يقول الأستاذ البتنونى فى (الرحلة الحجازية) التى صحب فيها الخديوى عباس الثانى منذ قرن أن الحرم المكى كان على حدود المطاف الآن فلما كثر المسلمون زاد فيه عمر وعثمان رضى

الله عنهما شيئا مما اشترياه من الدور التى كانت حوله وزاد فيه عبدالله بن الزبير عندما أعاد بناء ما تهدم من الكعبة فى الحرب التى دارت بينه وبين الأمويين.. وزاد فى البيت، الوليد بن عبدالملك وهو أول من نقل إليه أساطين الرخام. ولما حج الخليفة محمد المهدى سنة مائة وستين هجرية رأى أن البيت ليس فى وسط المسجد فاشترى كثيرا من البيوت خاصة فى الجهة الشرقية القبلية وزادها فى المسجد.

وفى سنة ٨٠٢ احترق الرواق الشرقى، فأمر الملك الناصر فرج بن برقوق ملك مصر بتعمير ما خرِب منه... وصار تعمير البيت سنة استنها ملوك مصر ومن أبرزها ما قام به السلطان قايتباى.

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريبا) وفى وسطه (يميل الى الزاوية الجنوبية) الكعبة المكرمة. وطول ضلع الحرم المقابل للحطيم وهو الذى فيه باب الزيادة مائة وأربعة وستون مترا، وطول الذى يقابله وهو فيه باب الصفا مائة وستة وستون مترا، وضلعه الذى فيه باب السلام مائة متر وثمانية... والذى يقابله وهو الذى فيها باب إبراهيم مائة وتسعة أمتار فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر ألفا وتسعمائة واثنين من الأمتار المربعة أى ما يربو على أربعة أفدنة... هذا فى القرن التاسع عشر وقد تضاعفت المساحة مرات إلى يومنا هذا... وللحرم اثنان وعشرون بابا منها ما له مدخل واحد ومنها ما له مدخلان أو ثلاثة أو خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثين مدخلا.

وهذه الأبواب ثمانية فى الجهة الشمالية وهى : باب الدريبة وباب المدرسة، وباب الحكمة، وباب الزيادة، وبجواره إلى الغرب باب القطبى، وباب الباسطية، وباب الزمامية ثم باب عمرو بن العاص.

ويلى هذا من الجانب الغربى ثلاثة أولها باب العمرة وباب إبراهيم ثم باب الحزورة ويليه من الجهة الجنوبية سبعة أبواب: أولها باب أم هانى، وباب العجلة (ويسمونه باب التكية) وباب الرحمة وباب أجياد أو السنبلة، وباب الصفا، وباب بنى مخزوم ثم باب بازان.

ويلى ذلك من الجهة الشرقية أربعة أبواب وهى: باب بنى هاشم أو (باب على)، وباب العباس وباب النبى، وباب السلام وهو الذى يدخل الحاج منه إلى الحرم عند طواف القدوم.

وفى المسجد ست منارات إحداها مصرية

وبهذه المناسبة يحكى الأستاذ البتنونى أنه شاهد فى الحرم بعض المصريين يستعمل البوصلة التى عملت للصلاة بمصر ولوحظ فيها الاتجاه لجهة مخصوصة، ولا يمكن أن تؤدى وظيفتها إلا فى البلاد التى على اتجاه مصر من الكعبة، أما إذا وضعت مثلا فى طريق المدينة أو اليمن أو الطائف فإنها لا تؤدى وظيفتها بتاتا.

وزوايا البيت الخارجية تسمى : الأركان.

ويرى الطائف بالبيت فى الحائط الغربى لوحة كتب عليها (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ومن الطريف التعليق الذى يلى الآية وهو (تقرب إلى الله تعالى بتجديد رخام هذا البيت المشرف، العبد الفقير إلى الله تعالى الملك الأشرف أبو النصر برسباى خادم الحرمين الشريفين).

وفى الجدار الشرقى لوح مكتوب عليه (أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك أبو النصر قايتباى عام أربع وثمانمائة من الهجرة).

وبجانب الباب على يسار الداخل منضدة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير الأخضر يوضع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو فى الأطلس الأخضر المزركش بالقصب، يأتى إليها سنويا من مصر مع الكسوة الشريفة.

وقد كانت الكعبة قبل الإسلام موضع احترام أهل الكتاب بل كانوا يتعبدون فيها وكان لهم فيها صور وتماثيل. لقد أجمع الناس على اختلاف دياناتهم على احترامها وهذا فى بابه، ظاهرة لا نظير لها باستثناء بيت المقدس.

وقد بلغ إجلال الناس للكعبة أن جعلوا لها حرما من جميع جوانبها واسع الأطراف لا يدخله الإنسان إلا وهو محرم وكل من دخله صار آمنا.

يقول الله تعالى: (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم).[١]

وقد امتدت الحماية، كرامة للبيت، إلى أهل مكة ومن دخلها... فقديما قامت الأحلاف لرفع الظلم عن من بمكة أو من دخلها من غير أهلها. وأشهر هذه الأحلاف

---

(١) العنكبوت ٦٧.

(حلف الفضول) وقد حضر هذا الحلف الرسول صلى الله عليه وسلم... إذا اجتمع إليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد وبنو عبدالعزى وبنو زهرة وبنو تميم.

ولقد بلغ من شأن الكعبة فى الجاهلية أن الناس كانوا يحجون إليها من جميع أنحاء البلاد العربية وغيرها. وكانت أشهر الحج عندهم شوالا وذا القعدة وذا الحجة. وكانوا يحرمون الشهر الذى يكون فيه الحج وهو ذو الحجة والذى قبله لأنه وسيلة إليه، والذى بعده لأنه تابع له لأن الحاج كان يسافر فيه إلى بلاده فوجب أن يكون فيه آمنا على نفسه وماله. ونرى ذلك فى أسماء الشهور نفسها فذو القعدة يعنى الشهر الذى يقعدون فيه عن الحرب وذو الحجة هو شهر الحج، والمحرم هو ما حرموا فيه القتال. وكانوا يحرمون أيضا شهر رجب ويسمونه شهر الله الأصم أى الذى لا يسمع فيه صوت سلاح ولا صوت مستغيث.

والعرب كانوا يسمون شهر رجب بالفرد لعزلته عن الأشهر الحرم الأخرى. وربما كانوا يستعملون رجبا لحجهم الأصغر أى العمرة فقد جاء فى تفسير الألوسى لقوله تعالى (الحج أشهر معلومات) أنه الحج الأكبر والحج الأصغر وهو العمرة ويسمونه الحج الرجبى.

وحدث مرة وحارب العرب أو تحاربوا فى هذه الشهور الأربعة فأحسوا بعقدة الذنب وانعكس هذا فى تسميتهم الحروب الأربعة التى وقعت: الفجار.

وحين جاء الإسلام زاد الكعبة تشريفا حين جعلها فى السنة الثانية للهجرة قبلة المسلمين وكانوا، قبلاء يولون وجوههم شطر بيت المقدس. فنزلت الآية الكريمة : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره).

ومنذ ذلك اليوم تنزل الكعبة من نفوس المسلمين أكرم منزل مهما اختلفت مذاهبهم وفى أى مكان يكونون. وفيها يصلون وراء أى إمام كان.

بل أن فى اللغات الأوروبية قول متداول فى حالة تقديس إنسان الشيء: His Mecca

فى هذه الآية تكريم رفيع للكعبة فهى ليست قبلة محدودة بل هى قبلة لجميع المسلمين فى جميع البلاد والأرجاء... وليس جامعا أكبر من هذا وليس رباطا أعمق من هذا تعجز الكلمات عن الإحاطة بهذه الدلالة. إن فى وقفتهم وراء أى إمام فيها، دون نظر

إلى جنسية أو لون أو ثراء مما يتمايز به الناس فى غيرها من الأمكنة، ظاهرة لا توجد فى دين آخر حتى أن الغربيين يشبهون الشيء المقدس عند إنسان بقولهم: His Meca

وقد حاول أكثر من ملك أن يحول الناس عن الكعبة ففشل حاول هذا ملك حمْيَر وهو عائد من حرب الأوس والخزرج بيثرب وهَمّ بهدمها فمنعوه فكساها وعاد الى بلاده.

وبنت قبيلة غطفان حرما فى القرن الأول قبل الهجرة بقصد تحويل العرب إليها فحاربها زهير بن حباب وأعاد إليها مكانتها بعد حرب ضارية.

وفى نحو سنة ستين قبل الهجرة حاول أبرهة أن يهدم الكعبة فلما وصل الطائف، بعث من ساق إليه أموال أهل مكة وفيها مائتا بعير لعبدالمطلب فأتى أبرهة وطلب إليه ردها فقال أبرهة: (أتكلمنى فى إبلك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك وأنت تعلم أننى جئت لهدمه فقال عبدالمطلب) (أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه) فأعطاه أبرهة إبله فساقها هديا. وزحف أبرهة إلى مكة ومعه فيل فجعل الله كيدهم فى تضليل (وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول). وهذه الآيات تستقطب قصصا طويلة غريبة رواها الألوسى فى كتابه (بلوغ الأرب).

وقبل بعثته، صلى الله عليه وسلم، بنحو خمس سنين هدم السيل الكعبة فأجمعت قريش أمرها واقتسمت القبائل بناءها وكان الذى يبنيها لهم «باقوم الرومى» بمساعدة نجار مصرى. فلما انتهوا إلى وضع الحجر الأسود اختلفوا.... كل قبيلة تحاول أن تستأثر بهذا الشرف.

وفى دماثة وكياسة وذكاء ولطف مدخل، طرح عليهم الشاب ابن الخامسة والثلاثين من سنيه، أن يطرحوا رداء يوضع عليه، الحجر الأسود، وطلب إلى القبائل أن تمسك بأطرافه ووصلوا به جميعا إلى مكانه من البناء فى الركن الشرقى... وهنا تقدم ووضعه بيده الشريفة فيه... فشكروا له صنيعه.

ولما ولى عبدالله بن الزبير أمر مكة، سير يزيد بن معاوية إليه، الحصين بن نمير فى عسكر كثيف فالتجأ بن الزبير إلى المسجد الحرام فضربه الحصين بالمنجانيق فأصاب الكعبة وأحرق كسوتها مع بعض أخشابها فإذا بالموت يقضى على يزيد ويرجع الحصين عن مكة ويعيد ابن الزبير بناء الكعبة...

للبيت رب يحميه.

يقول عز وجل : (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود). البقرة ١٢٥

ويقول جلت آياته: (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا). آل عمران ٩٦، ٩٧

ويقول سبحانه: (جعل الله، الكعبة البيت الحرام). المائدة ٩٧

ويقول تباركت أسماؤه: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود). الحج ٢٦

ويقول عزت صفاته: (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وقال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار، وبئس المصير، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم).

ويقول خير القائلين: (فليعبدوا رب هذا البيت. الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). سورة قريش ٣، ٤

ومن أصدق من الله قيلا

نريد تكتلا عربيا متعاونا متناغما راشدا رشيدا يحل فى حيدة تامة المشكلات والقضايا قبل تصعيدها. تكتلا وراءه بنك معلومات وإحصاءات ودراسات. تكتلا فى الملمات، يتخذ قرارا موحدا ليحسب لنا الأعداء الحساب كل الحساب.

ومع هذا نحن نحمد للفاتيكان الوثيقة التى أبرأ فيها ساحة الإسلام مما ألصق به من جانب الغرب سنة ١٩٧٦م.

نحن لانريد صراعا أو حروبا. نريد تفاهما يتبادل معنا الاحترام والتقدير ولاتطوير فى العلاقات وصولا إلى لحظة تنوير تسطع فيها الحقائق وينتفى معها الافتئات والعداوات والتحيفات ليهدأ الصراع وتخف أسباب النزاع ويفئ الشرق والغرب إلى الرشاد والسداد.

رقم الأيداع : ١٤٦٩٨ / ٩٨

عـربيـة للطباعة والنشر
7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043